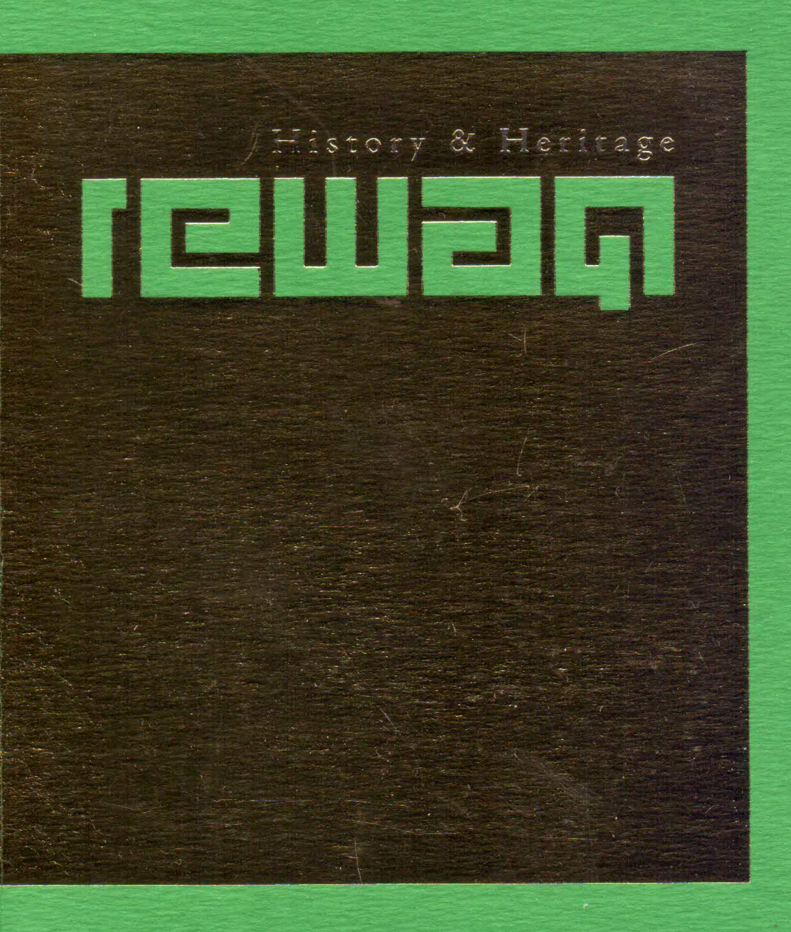
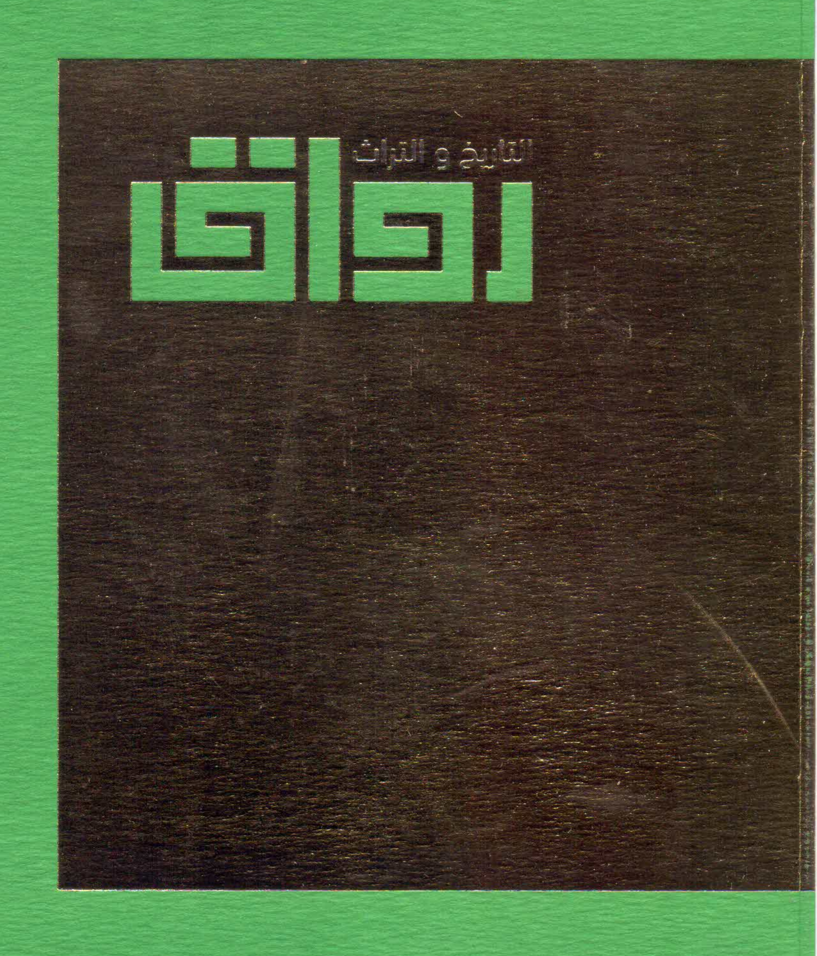



ISSN 2414-6005
03
9 772414 600503

Issue 2, June 2016



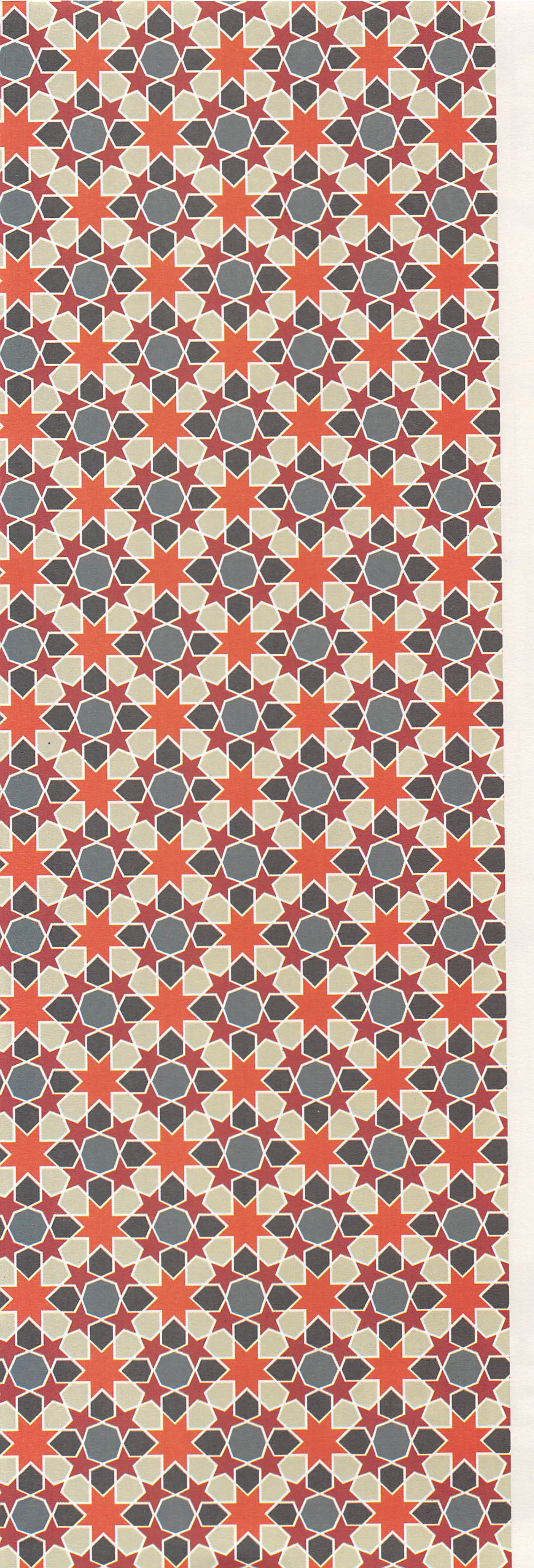
العدد الثاني، يونيو ٢٠١٦

ISSN 2414-6005

9 772414 600503 03



التاريخ و التراث
رواق
العدد الثانـي
يونيو ٢٠١٦



رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: 2016/19

الرقم الدولي (ردمك) : 978/9927/00/333/2

المراسلات باسم مدير التحرير

توجه إلى العنوان التالي:

مركز حسن بن محمد للدراسات التاريخية

ص. ب. 690 الدوحة – قطر

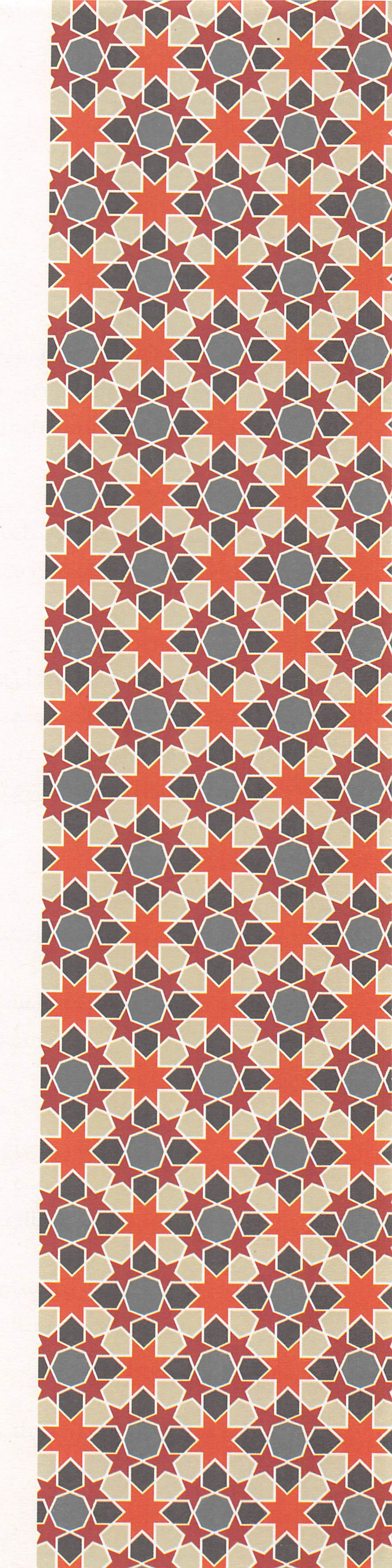
البريد الإلكتروني : rtt@hbmhc.com

This publication is printed on FSC approved Arjowiggins Rives

شروط النشر

تقبل المجلة نشر البحوث باللغات العربية والأجنبية، والتي تتوافر فيها الشروط التالية:

1. أن لا يكون البحث قد سبق نشره.
2. أن يستوفي البحث الشروط المنهجية للبحث العلمي.
3. توضع الإشارات المرجعية آليًا بأرقام مسلسلة.
4. يُمكن تزويد البحث بالصور والرسوم التوضيحية إذا ما استدعى الأمر ذلك. على أن تكون صورًا أصيلة، ويحصل المؤلف على حقوق نشرها.
5. تكتب المصطلحات ذات الأصول الأجنبية بلغتها الأصلية.
6. يكتب البحث على صفحات بحجم A4 بخط Arial وألا يزيد عدد الصفحات عن 30 صفحة متضمنة الصور والرسوم وغيرها من الملاحق.
7. تخضع البحوث المقدمة للنشر في المجلة للتحكيم السري من قبل متخصصين.
8. المجلة غير مطالبة بتبرير عدم قبول البحوث المرفوضة، وغير مطالبة بردها لأصحابها.
9. الباحث مطالب بمراجعة مادة بحثة بعد إعدادها للنشر وقبل دفعها إلى المطبعة.
10. تمنح المجلة مكافأة تقديرية عن البحث المقبول للنشر، ولا يحق للكاتب إعادة نشره بأية صورة أخرى دون موافقة مسبقة من المجلة.
11. يقدم الباحث ملخصًا لبحثه لا يزيد عن 50 كلمة، وكذلك سيرة ذاتية موجزة لا تزيد عن 50 كلمة، وصورة شخصية 6x4 سم.
12. يزود الباحث بنسخة مجانية من العدد المنشور به بحثه.



الافتتاحية

في عصر تدفق المعلومات، وانتشارها عبر مصادر المعرفة المتنوعة، تغدو الحاجة إلى جودة المصدر وأصالته هدفًا يسعى إليه الباحثون عن المعلومة، وهو الدور الذي تقوم به المجلات العلمية المحكمة، وتكافح من أجله بعض المراكز العلمية التي تتمسك بالقيم الأصيلة التي تحكم البحث العلمي وتقومه.

إن «رواق» في عددها الثاني، وبعد تلقيها العديد من البحوث العلمية، واعتمادها منهج التحكيم النزيه، تعتز بأنها تخضع البحوث التي تردها لمعايير الجودة العلمية أولًا وآخرًا، ونحسب ذلك غايتنا التي من أجلها صدرت.

يتضمن هذا العدد من مجلة «رواق» بحوثًا ومقالات علمية تشكل إضافات جديدة في رصيد المعرفة؛ ففي إطار مشروعه العلمي الرامي إلى إبراز إسهامات الحضارة العربية والإسلامية على الحضارة الإنسانية يستعرض مايكل مرجان في بحثه المعنون «من الجزيرة العربية إلى وادي السيلكون» جوانب من هذه الإسهامات التي كون المفكرون الأوائل من خلالها صورة صحيحة عن العالم الحديث.

وفي مدار آخر من مدارات الحوار الحضاري يقدم الدكتور جمال حجر صورة من التلاقي الفكري بين السياسي والفيلسوف، وكيف نظر كل منهما إلى السلام كمطلب إنساني.

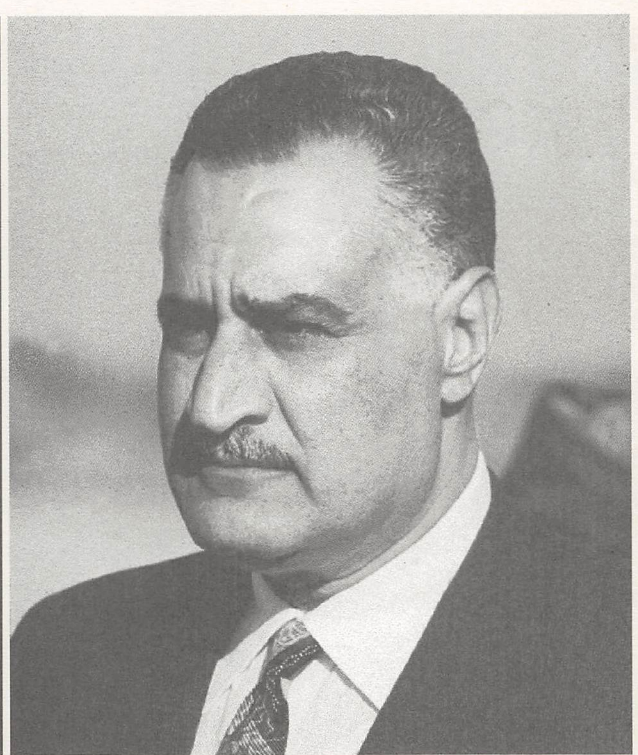
ويستعرض الدكتور يوسف عبد الله جملة من الصور الأدبية من خلال الشواهد الأثرية في جزيرة العرب قبل الإسلام؛ متجاوزًا قضية الشك في الشعر الجاهلي.

ويقدم الدكتور قاسم الحادك في بحثه المعنون: «الزاوية الدرقاوية في المغرب من انتقاد المخزن ومعارضته إلى رفض الاحتلال الفرنسي ومقاومته» صورة من تاريخ المغرب السياسي الحديث. ويضيف الدكتور جلال زين العابدين في بحثه صورة عن «العنف السياسي بالمغرب غداة الاستقلال» ليتناول فترة حرجة في تاريخ المغرب المعاصر.

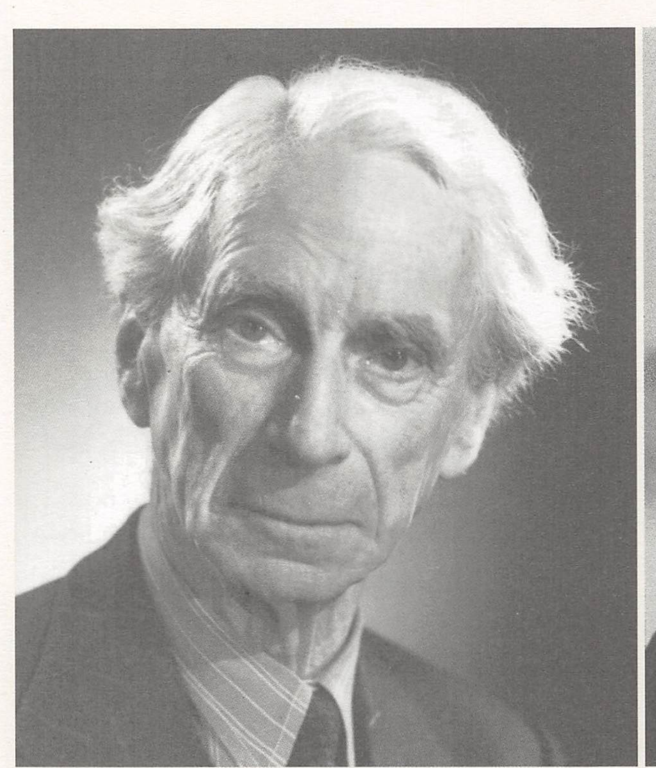
ويهتم الأستاذ الدكتور علي السيد بشخصية «همفري الثاني: كونسطبل مملكة بيت المقدس الصليبية»، تلك الشخصية التي لعبت دورا واضحا في التاريخ الصليبي في المشرق العربي.

تأمل مجلة «رواق» أن يضيف هذا العدد، بما يتضمنه من بحوث علمية رصينة، رافدًا جديدًا من روافد المعرفة الأصيلة.

المحتويات



جمال عبد الناصر



برتراند رسل

حوار السلام بين برتراند رسل وجمال عبد الناصر

1962-1966



أ.د. جمال حجر

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة الإسكندرية

دكتوراه الفلسفة في التاريخ من جامعة كيل (إنجلترا 1981)، أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، شغل مناصب: رئيس قسم التاريخ (1995-1996)، وكيل الكلية للدراسات العليا والبحوث (2002-2004)، عميد الكلية (2004-2008). مقرر لجنة ترقية الأساتذة في التاريخ بالمجلس الأعلى للجامعات (2004-2008) عضو اللجان الجامعية والجمعيات العلمية المتخصصة. يهتم في دراساته بتاريخ الشرق الأوسط بعامة، وتاريخ الخليج والجزيرة العربية بخاصة، وقضايا البحث في التراث والتاريخ الشفوي، وتاريخ المؤسسات، وتاريخ المكتبات، وله إسهامات علمية في التاريخ الأوروبي والأمريكي والآسيوي، درّس في الجامعات المصرية والخليجية. له أكثر من مائة وخمسين بحثًا وكتابًا منشورًا. نال جائزة الجامعة التشجيعية (1992) وجائزتها التقديرية (2008).

جميع الصور الواردة في هذا المقال من اختيار الكاتب

تتناول الدراسة حوارًا فكريًا غير مباشر بين الفيلسوف البريطاني برتراند رسل والزعيم السياسي المصري جمال عبد الناصر، خلال الفترة من نوفمبر 1962 إلى نوفمبر 1966. واعتمدت بشكل رئيس على أوراق رسل الخاصة غير المنشورة، والمحفوظة بجامعة ماكمستر بكندا، وأحاطت بالظروف التاريخية التي دفعت الطرفين إلى البحث عن أدوات السلام زمن الحرب الباردة.

مقدمة

راودتني فكرة الكتابة عن «السلام» في أعقاب زيارتي لمركز رسل بجامعة ماكمستر في مدينة هاملتون بأنتاريو في كندا McMaster University, Hamilton, Ontario, Canada في مارس 2008. كان الطقس في شهر مارس لا يزال شديد البرودة، وثلوج الشتاء المتراكمة بكثافة في كل مكان تأبى الرحيل، والأشجار تقف عارية من أوراقها، مستدفئة بالأمل في أن تتفتح براعمها المنتفخة بالأزهار والأوراق الجديدة. إلى هذه البيئة شديدة البرودة، يرحل شباب منطقة الشرق الأوسط، كما يرحل إليها الشباب من كافة بقاع الأرض، باحثين عن الأمل في حياة أفضل. وإلى هناك أيضًا رحلت الأوراق التي كانت تحمل أمل برتراند رسل في السلام، حاملة معها كل النوايا الطيبة التي مَهَرَها هو وكل من تراسل معهم، وهم كثر. رحلت تلك الأوراق لتعيش في ظل «السلام الكندي» فلا تنطفئ شعلة أفكار أصحابها الذين رحلوا عن عالمنا، تاركين إياه ينعم في صراعاته ونزاعاته التي شب عليها وشاب. وهي ذات الأفكار التي دفعت رسل لأن يكتب في كلمة إهداء كتابه الموسوم «سيرتي الذاتية» إلى زوجته الرابعة (الروائية الأمريكية أديث فنش) هذه العبارة: «عبر السنوات الطوال ظللت أبحث عن السلام ... فلم أجده، والآن أدركتني الشيخوخة وأشرفت على النهاية»[1].

شهدت الفترة من عام 1962 إلى عام 1966حوارات عبد الناصر ورسل حول السلام من بدايته إلى نهايته بين حربين، كانت مصر طرفًا فيهما، الأولى الحرب في اليمن عام 1962، والثانية الحرب العربية الإسرائيلية عام 1967. وهذه الورقة معنية بمسألة كيف يُمكن إحلال لغة السلام محل لغة الحرب التي كانت طاغية على مستويين: الأول مستوى الحرب الباردة بين الكبار، والثاني مستوى الحرب الباردة والساخنة معًا في منطقة الشرق الأوسط. وتعتمد الدراسة في المقام الأول على أوراق برتراند رسل دون أوراق عبد الناصر، التي لم يتيسر لي الوصول إليها. وإن تحقق ذلك في المستقبل، فهل يُمكن أن يُغير ظهورها شيئًا من الحقائق التي أظهرتها أوراق رسل؟ من المتوقع أن تُضيف أوراق عبد الناصر الكثير من المعلومات حول المشهد السياسي، نظرًا لتشعب الأبعاد السياسية لفكرة السلام.

والأوراق الخاصة تُعدّ من المصادر الوثائقية[2] المهمة في

1. برتراند رسل: **سيرتي الذاتية**، (القاهرة: دار المعارف، 1970).
2. المصادر الوثائقية هي كل الأصول التي تحتوي على معلومات تاريخية. أو هي كل ما هو مكتوب أو مطبوع ويكون له فائدة مستقبلية. ويرى الأنثروبولوجيون وبعض المؤرخين أن الروايات الشفاهية تُعدّ من الوثائق، فالمعلومات التي يُدلي بها الأحياء معلومات وثائقية، وهم على =

كتابة التاريخ، لأنها تكشف عن المكنون من الجوهر، وعن ما لا يُكتب عادة في الأوراق الرسمية وصولًا إلى الحقيقة، ولذا فإنها تُعالج نقصًا حادًا في وثائق الحقبة الناصرية. خاصة وأن عبد الناصر كان زعيمًا ثوريًا قويًا مثيرًا للجدل؛ فقد انقسم الرأي حول ما إذا كان الرجل داعية إلى السلام أم داعية إلى الثورة والحرب، وهل كان التلويح بالحرب تجارة يقتات منها كما يقول خصومه؟ إنهم يستدلون على أنه داعية حرب من أنه أدخل مصر في أربعة حروب خلال عهده الذي لم يتجاوز 16 عامًا[1] بحثًا عن الزعامة، وانتهت جميعها إلى فشل عسكري. وعلى غير ذلك تكشف أوراق برتراند رسل داعية السلام عن أن عبد الناصر كان في جوهره داعية للسلام، وأن الظروف الدولية والإقليمية المحيطة به في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، هي التي شوهت صورته السلمية.

وللوصول إلى الحقيقة، التي هي مطلب عقلي، ينبغي البحث في المصادر التاريخية بكافة أنواعها وأشكالها، مع توظيف المناهج العلمية المناسبة. فمهمة المؤرخ الأساسية تبدأ بتحليل المادة التاريخية، ونقدها، وإعادة صياغتها في القالب البنيوي التركيبي، الذي يصوغ التصور الكلي لمنظومة الحدث التاريخي، من خلال جهد ذهني يُشبع رغبته في المعرفة من ناحية، ويُقدم المعرفة لغيره في سلاسة من ناحية أخرى، مع ملاحظة ألا تظهر على السطح أمام القارئ مخلفات تلك العملية العقلية، وإنما تظهر له نتائجها في أبهى صورها وكامل حيويتها. وفي مثل هذا الموضوع لا يجب اعتبار الحقيقة أنها الصدق التام، وإن كانت قريبة منه إلى حدٍ كبير، فالحقيقة محض خيال يرسمه العقل عن الواقع.[2] أقول هذا في محاولة للتجرد عند الكتابة عن مرحلة عشت تفاصيلها بوعي عقلي ووجدان روحي، أخشى أن أبدو فيها منحازًا، لأن الانحياز يضرب ما يكتبه المؤرخ في مقتل.

وسوف أقسم الموضوع إلى ثلاثة أقسام رئيسة: الأول يُعنى بفكر الفيلسوف رسل ورؤيته للسلام. والثاني يُعنى بحرص السياسي جمال عبد الناصر على تحقيق السلام. والثالث الحوار الذي دار بينهما حول السلام.

رسل والسلام

كان برتراندرسل[3] واحدًا من أعظم فلاسفة القرن العشرين. هو بريطاني من أسرة أرستقراطية نبيلة في ويلز، كان أبوه فيلسوفًا ومفكرًا حرًا، وكان جده لورد جون رسل رئيسًا للوزراء من حزب الأحرار[4]. ولد رسل عام 1872، ونشأ يتيمًا؛ الأم (ماتت 1874)، والأب (مات 1876). عاش رسل قرنًا من الزمان

= حق فيما ذهبوا إليه، فالوثيقة هي، في أبسط تعريفاتها، «أي مادة تحمل معلومات». وهكذا فإن الوثائق بشقيها الشفاهي والكتابي هي مادة تسجيل التاريخ. انظر: محمود عباس حموده: **المدخل إلى دراسة الوثائق العربية**، (القاهرة: دار الثقافة، 1980)، ص 5، 6.

1. هذه الحروب الأربعة هي: حرب السويس 1956، والحرب في اليمن 1962، والحرب مع إسرائيل 1967، وحرب الاستنزاف في أعقابها إلى أن توفي عام 1970 قبل أن يُحرر الأرض التي أُحتلت في عهده.
2. انظر: جمال محمود حجر: «الحقيقة التاريخية بين المصادر الوثائقية والمصادر الشفاهية»، منشور في كتاب: **الملتقى الخليجي الأول للتراث والتاريخ الشفهي** (العين: مركز زايد للتراث والتاريخ، 2000)، ص115-154؛ وانظر أيضًا للمؤلف: «الحقيقة التاريخية» منشور في كتاب: صفاء جعفر (محرر): **أحمد محمود صبحي... رائد التجديد في الفكر الإسلامي، كتاب تذكاري لعلم من جيل الرواد** (الإسكندرية، المحرر، 2009)، ص 957–971.
3. ولد برتراند آرثر ويليام رسل Bertrand Arthur William Russell في عام 1872. التحق بكلية ترينتي بجامعة كمبردج عام 1890، وحصل على البكالوريوس في الرياضيات عام 1893. عُين محاضرًا في مدرسة لندن للاقتصاد عام 1896، ثم محاضرًا في كلية ترينتي في كيمبردج عام 1899، وعين أستاذًا للفلسفة في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس عام 1939. وعن حياته الاجتماعية تزوج للمرة الأولى عام 1894، ثم للمرة الثانية عام 1921، والثالثة عام 1936، والرابعة عام 1952. ترشح في أعوام 1907 و1922 و1923 لدخول البرلمان، ولم ينجح. انظر: Stanford Encyclopedia of Philosophy, "Bertrand Russell".
4. لورد جون رسل Lord John Russell عاش فيما بين عامي (1792-1878)، وشغل منصب رئيس وزراء بريطانيا مرتين: الأولى من 30 يونيه 1846 إلى 23 فبراير 1852، والثانية من 29 أكتوبر 1865 إلى 28 يونيه 1866.

(1872-1970)، وشهد أحداث فترة من أخصب فترات التاريخ الحديث. وفي مواجهة التطورات الكثيرة التي عاشها في عالم مليء بالشرور[1]، صور له حبه للسلام الحياة في صورها المثالية، التي تصلح لأن تنسج من خلالها قصائد شعرية أكثر مما تُعالج ما فيها من أخطاء.

لكل ما سبق، كان رسل ناشطًا بارزًا مناهضًا للحرب، ومقاومًا للاستعمار، ومساندًا لقضايا العدالة والحرية ودفع الظلم عن المظلومين. كان محبًا للسلام، وهو الذي قال بوضوح في سيرته الذاتية «إنني أتوق إلى تخفيف وطأة الشر ولكنني لا أستطيع، فإنني أعاني منه». لذلك شارك مع صديقه الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر[2] (1905-1980) في إقامة محكمة للضمير العالمي لمحاكمة مجرمي الحرب في العالم. وأعلن الحرب على الحرب، فانتقد الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، وأُدين في عام 1916 بتهمة الانهزامية والسلبية والجبن، ووقعت عليه غرامة مالية (110 جنيه أسترليني)، وأقيل من وظيفته الأكاديمية التي كان يشغلها في كلية ترينتي بكيمبردج. وفي عام 1918 كان رسل لا يزال معارضًا للحرب، فحوكم وسجن لمدة ستة أشهر بسبب ذلك. كان ناقدًا اجتماعيًا، وكان ذلك النقد بداية توجهه نحو التفكير في مشاكل الإنسانية السياسية والاجتماعية، فوضع في ذلك عددًا من الكتب، وألقى كثيرًا من المحاضرات. وحين نشبت الحرب العالمية الثانية انتقدها، وهاجم هتلر.

وفي 9 يوليو 1955 أصدر برتراند رسل في لندن مع ألبرت أينشتاين (1879-1955) بيانًا عالميًا يُحذر فيه من مخاطر الأسلحة النووية[3]، ووقع عليه أحد عشر من كبار المفكرين والعلماء، وجهوا بمقتضاه نداء إلى قادة العالم يدعون فيه إلى البحث في حلول سلمية للنزاعات الدولية. وهاجم رسل الرئيس الأمريكي جون كنيدي (1960-1963) بسبب تهديده بحرب نووية[4]؛ إذا لم تُفكك الصواريخ السوفيتية المزروعة في كوبا[5]. وفي عام 1958 أصبح رسل الرئيس المؤسس للحملة ضد السلاح النووي، ووقع مع ألبرت أينشتاين بيانًا ضد الأسلحة النووية. وكانت الحرب الباردة[6] قد وصلت إلى درجة عالية من الخطورة حين شهدت دورة الجمعية العامة

1. شهد رسل صعود وهبوط كثير من الدول، منها: صعود ألمانيا وانكسارها، وصعود بريطانيا وتفكك إمبراطوريتها، وانكسار فرنسا وصعودها، وصعود اليابان وضربها بالقنابل الذرية في تجربة تاريخية فريدة. وشهد الثورة البلشفية ونشأة الاتحاد السوفيتي والمد الشيوعي، وضعف الدولة العثمانية وتفككها وسقوطها، وبزوغ الولايات المتحدة قوة عظمى. وشهد انقسام العالم إلى كتلتين شرقية وغربية، وظهور حركة دول عدم الانحياز. وشهد تقسيم فلسطين ونشأة إسرائيل، وانحسار الأمل العربي. كما شهد كثيرًا من نماذج العنف والظلم والاضطهاد والتفرقة العنصرية وإبادة الجنس. وباختصار شهد كثيرًا من الشرور ومعاناة الإنسان.
2. جان بول سارتر: فيلسوف فرنسي، اشتهر بفلسفته الوجودية، وروائي وناقد أدبي وناشط سياسي. كان رفيقًا دائمًا للفيلسوفة والأديبة الفرنسية سيمون دي بوفوار. زارا مصر معًا، والتقيا عبد الناصر في القاهرة في ربيع 1967. كانت مصر في ذلك الوقت في حاجة ماسة إلى أن يُساندها أولئك المثقفون الأوروبيون؛ لتحسين صورتها أمام العالم الغربي وإظهار رئيسها كداعية للسلام وليس للحرب.
3. من أقوال أينشتاين في الحرب المقبلة التي حذر من نتائجها: «لا أعلم بأي سلاح سيُحاربون في الحرب العالمية الثالثة، لكن سلاح الرابعة سيكون العصي والحجارة». في إشارة إلى أن الحرب المتوقعة لن تُبقي ولن تذر، وستُعيد الإنسان سيرته الأولى.
4. من أقوال رسل في الحرب: «الحرب لا تُحدد من هو صاحب الحق، وإنما تُحدد من تُبقي». في إشارة إلى أن الحرب المتوقعة لن تُبقي ولن تذر، كما أشار أينشتاين.
5. الأزمة الكوبية، أو أزمة الكاريبي عام 1962، واحدة من الأزمات الخطيرة التي وضعت القوتين العظميين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي) في مواجهة مباشرة لشن حرب نووية نتيجة الحرب الباردة، وتعرف تلك الأزمة بأزمة أكتوبر، نظرا لأنها نشأت يوم 8 أكتوبر حين اكتشفت طائرات الاستطلاع الأمريكية وجود صواريخ بالستية سوفييتية في كوبا، ووصلت الأزمة إلى ذروتها يوم 14 أكتوبر، ولكن السكرتير العام للأمم المتحدة نجح في وضع حد لحرب نووية محتملة حين وافق الاتحاد السوفيتي على سحب صواريخه شريطة ألا تغزو الولايات المتحدة كوبا. وبذلك انتهت الأزمة في 28 أكتوبر.
6. لا شك أن الحرب الباردة كانت عاملًا أساسيًا في سعي رسل للسلام، وفي الوقت نفسه كانت عاملًا مساعدًا في سعي عبد الناصر نحو رسل.

للأمم المتحدة عام 1960 الرئيس السوفييتي نيكيتا خورشوف Nikita Khrushchev (1958-1964) وهو يضرب بحذائه على الطاولة. واستمعت إلى أطول خطاب من الرئيس الكوبي فيدل كاسترو Fidel Castro (1959-2008) الذي استمر خطابه لنحو 7 ساعات. وفي عام 1961 شن رسل حملة ضد سباق التسلح النووي، وسُجن بسببها لمدة أسبوع. وبعد خروجه من السجن رأس محكمة ضد جرائم الحرب الأمريكية في فيتنام. وتوج جهوده العملية بتأسيس «مؤسسة رسل للسلام» عام 1963. وظهرت توجهاته هذه بوضوح في كتاباته المتنوعة في مجالات الفكر والفلسفة والمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والنظرية السياسية والأخلاق والتربية والبحث عن السعادة، وأبدع في هذه المجالات ما يزيد على مائة كتاب، وكثيرًا من المقالات والمحاضرات[1].

نضجت أفكار رسل وتطلعاته المثالية[2]، وصارت أقرب إلى الواقع مع تقدمه في العمر ومع تعدد زياراته لبلدان مختلفة الأعراق والثقافات؛ فقد زار كلا من روسيا والصين وأمريكا وحاضر في جامعاتها. وتغيرت أفكاره عن التطبيق الاشتراكي، ووقف على سلبياته في روسيا. كما تغيرت أفكاره عن مستقبل أوروبا الذي رآه مُدْبرًا، وعن مستقبل الصين الذي رآه مُقبلا. وبرزت إلى السطح كتاباته الاجتماعية والسياسية للمثقفين والعامة معًا. فقد كان مناضلا يساريًا أقرب إلى الاشتراكية الديموقراطية. استقر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في بريطانيا، وأصبح معروفًا للعامة بفضل سلسلة برامجه الإذاعية عن السلطة والفرد.

لقي رسل تقدير المجتمعات الأكاديمية، ففي عام 1915 منحته جامعة كولومبيا في مدينة نيويورك ميدالية بتلر الذهبية Butler Gold Medal تقديرًا لإسهاماته في مجال الفلسفة[3]. وفي عام 1949 نال تقدير الملك جورج السادس، الذي منحه وسام الاستحقاق the Order of Merit، وشهادة تقدير موقعة منه. وفي عام 1950 نال تقدير المجتمع الأكاديمي الدولي حين حصل على جائزة نوبل[4] في الأدب، كما نال تقدير جامعة كوبنهاجن التي منحته إحدى جوائزها عام 1960. وبالرغم من ذلك دفع ثمنًا غاليًا لكثير من مواقفه[5] في رحلة بحثه عن السلام. وفى ختام حياته أعلن أن محصلة الرحلة مزيد من الألم والحسرة في عالم يعج بالصراع والانقسام، ولما لم تؤاته الفرصة لرؤية العالم الكبير ينعم بالسلام، صنع عالمه الصغير ليستشعر فيه الحب والسلام.

مات رسل في بيته في 2 فبراير 1970 عن 97 عامًا[6]، بعد أن ملأ الدنيا بأفكاره الإنسانية في التحذير من الحرب والدعوة للسلام، مخلفًا وراءه من الأبحاث ما تفخر به جامعة كيمبردج التي تخرج فيها، تاركًا أفكاره وأوراقه وأدواته وغيرها مما يتعلق بالقراءة والكتابة، من مقتنياته التي جمعها خلال سبعين عامًا بعد تخرجه. هذه المقتنيات محفوظة الآن في جامعة ماكمستر

1. Stanford Encyclopedia of Philosophy, "Bertrand Russell".
انظر كذلك سليم نصار: «تعقيب على مقال فهد السماري، الملك فيصل بن عبد العزيز وبرتاند رسل»، **مجلة الدارة**، العدد 2، السنة 34، (1429هـ)، والعدد 4، السنة 34 (1429هـ).
2. لم يتبن رسل الفلسفة المثالية، بل أفكارًا مثالية حول السلام، أبعدته عن الواقع. إلا أن تقدمه في العمر جعله أقرب إلى الواقعية.
3. وبعد 14 سنة من منحه تلك الميدالية منعه بتلر، رئيس جامعة كولومبيا، من التدريس بسبب الإدانة المجتمعية الواسعة لكتابه الموسوم «الزواج والأخلاق».
4. ألفريد نوبل (1833-1896) سويدي عاش في سان بطرس برج، وهو مخترع الديناميت (1867)، وحصل على براءة الاختراع من الولايات المتحدة. وانتخب عضوًا في الأكاديمية الملكية السويدية للعلوم (1884)، وهي ذات المؤسسة التي كانت تمنح جائزته حينئذ لاثنين من الفائزين سنويًا. وكان نوبل قد أوصى بمعظم ثروته لجائزة السلام باسمه، ومنها جائزة نوبل في الأدب Noble Prize for Literature.
5. إذ كان من منتقدي الحرب العالمية الأولى (1914-1918). سجن عام 1918 بسبب تصريحات ضارة بالعلاقات البريطانية الأمريكية، ثم دخل السجن مرة أخرى عام 1961 بسبب التحريض على العصيان المدني في حملة تطالب بنزع السلاح النووي.
6. توفي راسل إثر إنفلونزا حادة في منزله في «بلاس بينرهن» في ويلز، وحسب وصيته لم تنظم احتفالية دينية. ثم أحرق رفاته في «كلوين باي» في 5 فبراير 1970، ونثر رماده على الجبال في ويلز فيما بعد في العام نفسه. وفي عام 1980، أقيم له نصب تذكاري في ميدان «ريد ليون» في لندن يتألف من تمثال نصفي.

مع كتبه المصفوفة على الرفوف، وملفاته المحفوظة في الخزائن. في مكتبته كل شيء ينتمي إلى الماضي شكلًا وموضوعًا، في دولة حديثة يشير كل ما فيها إلى الحاضر والمستقبل.

تساءلت عن تفسير وجود مكتبة رجل بريطاني في دولة فرنسية الأصل والثقافة والتاريخ، وأفادت مديرة المكتبة بأن الجامعة اشترتها[1] بكل ما تحتوي، واحتفظت بها كما هي[2]. ويُعدّ وجود المكتبة في كندا إشارة إلى أن هذا البلد يحترم التراث ويُحافظ عليه، ولو كان تراثًا وافدًا، ولم لا وجل مواطني هذا البلد وافدون، والتراث إنساني بطبيعته، كالعلم لا وطن له، ولا يرتبط بالجغرافيا. ولكن كيف سلكت أوراق رسل، التي اعتمدنا على بعضها في إعداد هذه الدراسة، طريقها إلى كندا؟

تبدأ قصة رحلة أوراق برتراند رسل إلى كندا حين وقف أمام بيته في شمال ويلز في أحد أيام صيف 1966 ليرصد صفحة حياته التي بدأت تنطوي (أو كما كتب أندرو فاولز Andrew Vowles في مجلة «ماكمستر كورير The McMaster Courier» سنة 1994): في ذلك اليوم، «كانت حافلة تقف محملة بأوراق ومراسلات وكتب رجل في الرابعة والتسعين استعدادًا للانطلاق إلى لندن». وبعد عام ونصف قضتها في لندن، أي في عام 1968، كانت أوراق رسل المصنفة تُغلف للمرة الثانية كي تُسافر إلى كندا لتستقر في مكتبة جامعة ماكمستر التي اشترتها. وكان على كنيث بلاكويل[3] أن يُعدّ نفسه هو الآخر للعودة إلى وطنه الأصلي (كندا) وإلى وظيفته الجديدة في جامعة ماكمستر[4]. وصل أرشيف رسل الذي يضم مراسلاته ومخطوطاته، وشرائطه وأفلامه وصوره الفوتوجرافية، ومكتبه الذي كان يجلس إليه إلى جامعة ماكمستر في العام نفسه، حيث يتولى مركز رسل للبحوث والدراسات نشر أوراقه وخطاباته. ومنذ ذلك الوقت والجامعة هي مقر دراسات الفيلسوف وداعية السلام العالمي[5].

1. كان الدكتور وليام ريدي William Ready أمين مكتبة جامعة ماكمستر (1966-1979) قد سافر إلى إنجلترا في بداية عام 1968 في محاولة لإنهاء تلك الصفقة. وكانت جامعة أمريكية وأخرى كندية قد أرسلتا مندوبين عنهما لشراء ذات الصفقة بنحو 100,000جنيهًا استرلينيًا، ولكن ماكمستر كانت أسرع منهما، إذ دفعت ضعف ذلك المبلغ. وفي عام 1972 تابع بلاكويل عملية تجميع أوراق رسل ومراسلاته من مظانها حول العالم، ونجح في ذلك بفضل فريق العمل المعاون. نتائج هذا الجهد أن هذه المقتنيات محفوظة في قسم وليام ريد للأرشيف والبحوث، والذي يضم أكبر مجموعة من أوراق رسل ومقتنياته في العالم، ويوجد في قسم وليام ريدي عدد 25,000 وثيقة كتبها رسل بخط يده، و50,000 خطابًا، و2,500 مقال، و3,300 مجلدًا من مكتبته، فضلًا عن العديد من المقالات المنشورة وغيرها.
2. يُثير ذلك المقارنة بين مجتمع حديث يُقدّر التراث الإنساني المادي والفكري إلى حد الاهتمام بفكر الإنسان الفرد ومقتنياته، ومجتمع آخر يمتلك من التراث أكثر مما يمتلك غيره، ولا يلقى التراث فيه ذات الاهتمام، بل ويتهمون من يهتم به بأنه ماضوي، ينظر إلى الوراء، ونسوا أو تناسوا أن من الواجب على من يتقدم إلى الأمام أن ينظر إلى الخلف ليقيس مدى تقدمه وليؤمنه، هكذا يفعل الرياضيون في السباقات، وهكذا نفعل طول الوقت في قيادة السيارات.
3. كنيث بلاكويل: باحث صغير حديث التخرج، كان قد التقى رسل في منزله بشمال ويلز أثناء زيارته لإنجلترا بعد تخرجه في عام 1965، وأسفر هذا اللقاء عن وظيفة مؤقتة لبلاكويل يقوم بمقتضاها بفرز وتصنيف أوراق رسل قبل تعبئتها استعدادًا لبيعها. وهي المهمة التي أدت إلى أن يُصبح بلاكويل هو القائم على أرشيف رسل في ماكمستر.
4. استطاع بلاكويل أن يضع فهرسًا لأعمال رسل في ثلاثة مجلدات، وأن يُعد أرشيفًا إليكترونيًا لها، ولمحتويات مجلة برتراند رسل نصف السنوية The Journal of Bertrand Russell Studies التي يُصدرها مركز أبحاث رسل في جامعة ماكمستر Bertrand Russell Research Centre، والمركز معني بالبحث في فكر رسل ودراساته وعصره وتأثيره الممتد وكتبه ومقالاته، وتعتمد هذه المجلة في صدورها على الدعم الذي تقدمه كلية العلوم الإنسانية في الجامعة، ومجلس الدراسات الإنسانية الكندي The Humanities Research Council of Canada.. ويعمل بلاكويل على إتاحة مقتنيات رسل عبر الإنترنت لكافة الباحثين في مختلف أنحاء العالم، حيث يتردد على أرشيف رسل باحثون من كافة أرجاء الدنيا، في مجالات السياسة والتاريخ والأديان والفلسفة والتربية والأدب والرياضيات، انظر:

   Kenneth Blackwell: "The Original Purchase of Bertrand Russell Archives", **Website** (Last updated 23 Feb. 2009)..
5. **Ibid.**

كان من بين ما وقفت عليه، أن أرشيف رسل الشخصي يتضمن مراسلاته مع جمال عبد الناصر. أثار ذلك فضولي عمّا يُمكن أن يكون في الأرشيف عن مصر. ورغم خبرتي بعالم الوثائق والأرشيف والأوراق الخاصة في العالم الغربي[1]، والألفة اليومية مع الوثائق، إلا أن مجرد وجود اسم عبد الناصر ممهورًا على أوراق خرجت من القاهرة في الستينيات إلى لندن، إذ كنت لا أزال تلميذًا في المرحلة الإعدادية، جعلني أسترجع أجواء الحماسة والأناشيد الوطنية الثورية، والأغاني الحماسية، والإحساس بالذات، والمفاخرة بأننا كنا مصريين في عهده، نرضع معاني المواطنة أطفالًا، ونرددها شبابًا، إلى أن انطفأت شمعته وانطفأت معها قيم ثقافية واجتماعية كثيرة. ووجدتني لأول مرة «شاهدًا على عصر»، وطرفًا في كتابة «تاريخ حي».

رحت أقلب في الرسائل كمن يرى وثيقة لأول مرة في حياته، شكل الورق، ورائحته، وموضوعاته، وما عليه من توقيعات وأختام. وتساءلت: هل كان عبد الناصر أو مرؤوسيه يتوقعون أن تصل رسائلهم، التي بعثوا بها إلى لندن، إلى بلد هو آخر ما تراه عند الطرف الشمالي الغربي من خريطة الدنيا، بلد أقرب إلى القطب الشمالي منه إلى خط الاستواء، بلد صار قبلة المسافرين إلى المستقبل، وقبلة المتمردين على مرارة الواقع المعاصر، وقبلة الهاربين من أوجاع الوطن؟ لم أنتظر إجابة من نفسي عن سؤالها الساذج[2].

عبد الناصر والسلام

في زمن الحرب الباردة، كانت جهود رسل في الدعوة إلى السلام مرصودة من الزعيم جمال عبد الناصر ومعاونيه. وتساءلت: كيف لسياسي أن يتحاور مع فيلسوف؟ وما هي القواسم المشتركة التي يُمكن أن تجمع بينهما في شأن ذي صبغة عالمية؟ وهل كان عبد الناصر فعلًا يبحث عن السلام من خلال داعية للسلام؟ أم أنه كان يهدف إلى تسريب توجهاته السياسية إلى الحكومة البريطانية ليصل ما انقطع معها؟ كل هذه الأسئلة وغيرها تفرض نفسها في هذه الورقة، إذ لا يُمكن حل هذا اللغز في التواصل الدبلوماسي دون الإلمام بمجمل الظروف التي أحاطت بعبد الناصر في ذلك الوقت من ناحية، وبطبيعة الموضوع قيد الدراسة من ناحية ثانية، وبطبيعة العلاقات السياسية بين مصر وبريطانيا تحديدًا من ناحية ثالثة، والوقوف على أدوات الحركة عند عبد الناصر، وكيف التقى كسياسي بفكر رسل كفيلسوف، أو بعبارة أخرى كيف التقى الواقع السياسي، الذي يتأرجح بين الفوضى والطغيان لتحقيق فن الممكن، مع الفكر الفلسفي ليعيشا معًا داخل عالم المتناقضات، الذي هو عالم الواقع؟

المثقفون يتحملون مسؤولية خاصة في قيادة العالم بحكم خبراتهم وبصيرتهم العلمية والتاريخية، ويقفون خلف السياسيين لتنويرهم عند صناعة القرار. وكان عبد الناصر زعيمًا واسع الثقافة، يحرص على الاستنارة بالمثقفين المصريين من حوله، وبالمثقفين والمفكرين الأجانب. كان يؤمن بأن التحرر الفكري والاستقلال الثقافي من أقوى الدعائم للاستقلال السياسي. وكان يقول: «يجب أن تكون لنا ثقافة سليمة، تنبه الشعب وتوسع مداركه»، وهو ما يجعل من «العلم للمجتمع» شعارًا للثورة الثقافية[3]. وكانت ثقافته التاريخية عميقة، فقد وقف على النتائج السلبية للحرب العالمية الأولى، التي أسفرت عن تقسيم البلاد العربية إلى كيانات منفصلة تخضع بشكل أو بآخر للسيطرة أو النفوذ الغربي، ووقف على سعي بعضها نحو الاستقلال. وكان يعلم أن الحرب العالمية الثانية أسفرت عن تأسيس الجامعة العربية على أرض مصر، بغرض توحيد صفوف الدول العربية المستقلة. وصدمه المخطط البريطاني بوضع فلسطين تحت الانتداب، وهو المخطط الذي انتهى إلى خلق دولة إسرائيل

1. تحفظ الأوراق الخاصة للكبار عادة في مراكز الأبحاث العلمية في الدول الغربية، وقد تكون هذه المراكز البحثية تابعة للجامعات أو لدور الوثائق أو للأفراد. ويجري استخدامها طبقًا للقانون المنظم لذلك، أو طبقًا لاتفاق بين الورثة والمؤسسة البحثية التي تودع الأوراق لديها.
2. حين انتهى وقت زيارتي لمكتبة رسل، في إطار برنامج الزيارة للجامعة، كان عليَّ أن أعتذر لمديرة المكتبة عن أنني لن أستطيع المكوث طويلًا في مكتبة رسل الجاذبة، وسألتها على استحياء، مخافة الرفض، إن كان في الإمكان أن أنسخ هذا الملف، وجاء الرد فوريًا «بكل سرور، وسنرسلها بعد نصف ساعة إلى حيث تكون، فلدينا نسخة من برنامج الزيارة». وبعد نصف ساعة تلقيت مظروفًا مميزًا به صور ضوئية من ملف المراسلات المتبادلة بين رسل عبد الناصر.
3. محمد شعلان، يوسف خليل يوسف: **أيديولوجية جمال عبد الناصر** (القاهرة: مكتبة غريب، د. ت.) ص 37 و41.

في عام 1948[1]. ورصد ما حل بالحركة العربية الناشئة من مؤامرات خلال فترة ما بعد الحربين العالميتين، وفشل محاولة العرب القضاء على إسرائيل في مهدها. ولعل هزيمة العرب في حرب عام 1948 أمام إسرائيل كانت أحد أسباب قيام ثورة يوليو 1952 التي كان عبد الناصر طرفًا فاعلًا فيها[2].

وفي سياق الحديث عن السلام، بدأ عبد الناصر عهدًا جديدًا في سياسة مصر الخارجية، تحددت ملامحه الاستراتيجية في القضاء على الاستعمار والصهيونية، وفي خلق واقع عربي جديد، من خلال تأسيس رؤية معرفية جديدة، مخالفة للوعي العربي التقليدي المحافظ. اعتمد فيه عبد الناصر على قيادة الجماهير بكاريزما خاصة، يقطع من خلالها كل ما يصلها بالولاءات القبلية أو الطائفية، وكل مظاهر الركود الفكري[3] لتحرير الإنسان العربي وأرضه، فأكدت مصر في دستور 1956 على أنها «دولة عربية مستقلة ذات سيادة... والشعب المصري جزء من الأمة العربية»، لأن المصير العربي واحد، ومتى توافرت القوة، كانت الوحدة نتيجة طبيعية لها[4]. ومن الأمثلة على ذلك الثورة الأمريكية التي حققت الاستقلال للمستعمرات، ثم اتحدت كي لا تفقد هذا الاستقلال[5].

كانت تلك الرؤية التاريخية ماثلة أمام عبد الناصر وهو يخط سياسة مصر الخارجية، التي يجب أن تكون واضحة تجاه ثلاث دوائر، هي: الدائرة العربية، والدائرة الإسلامية، والدائرة الأفريقية. وارتأى أن ذلك يُمكن تحقيقه بتبني فكرة القومية العربية، والوحدة العربية، وسياسة عدم الانحياز، والحياد الإيجابي، ومؤتمرات القمة، من خلال منظمتي الجامعة العربية والوحدة الأفريقية، والمنظمات الدولية، والمشاركة الإيجابية مع المجتمع الدولي لـ «تحقيق السلام»، وإقرار «مبدأ التعايش السلمي». فهو الذي يقول: «نحن نؤمن بالحياد الإيجابي طريقًا إلى السلام القائم على العدل، ... ونحاول بالتعايش السلمي أن نضع جسرًا بين الكتلتين الدوليتين، تعبر عليه الأفكار، وتعبر عليه التجارب في كل الميادين ...». وأشار إلى أن مصر «تتحمل مسؤولية خاصة تجاه حركات التحرر ...»[6]. ويؤكد على أن أهداف هذه السياسة: أن يُمارس الحق في «لقاء الشعوب المتحررة، والتعاون معها من أجل سلام البشر جميعًا...»[7] في إشارة إلى مناسبة سابقة قال فيها: «كنا نريد أن يكون ضميرنا الدولي يقظًا، يشارك في الدفاع بكفاءة عن سلام العالم...»[8]، وهو هنا يتفق مع ما كان ينادي به برتراند رسل من إقامة صرح للسلام العالمي، ووقف تجارب الأسلحة الذرية، وتدمير ما هو موجود منها، وتوجيه نشاط العلماء لما يخدم الشعوب[9]. يتضح من الشذرات السابقة أن فكر السلام كان واردا في ثقافة عبد الناصر وسياساته وتطبيقاتها في الخمسينيات.

كان عبد الناصر يؤمن بأن السلام لن يتحقق ما دامت الحرية

1. شهد عبد الناصر حرب فلسطين، وربما شارك في تدريب كتائب الإخوان المسلمين المشاركين فيها، فقد كان في مرحلة ما من المتحمسين للجماعة، كان وطنيًا حتى النخاع، راغبًا في أن ينال الفقراء حقهم من ثروات البلاد، ومناهضًا قويًا للاستعمار. برز دوره بعد الثورة ليُصبح الشخص الثاني بعد محمد نجيب. كان معاديًا للأمريكيين بقدر عدائه للإنجليز. انظر: رؤوف عباس: **شخصيات مصرية في عيون أمريكية**، (القاهرة: دار الهلال، 2001)، ص 90، 91.
2. جمال محمود حجر: «دور مصر الريادي في السياسة العربية الخارجية وانتماء مصر العربي»، (البحث الفائز بالجائزة الأولى للمبعوثين المصريين بالخارج عام 1980)، **جريدة الشباب العربي** (1980).
3. انظر: فتحي بالحاج: «عبد الناصر والقطيعة مع الوعي العربي التقليدي»، **أنصار**، العدد 31، (28 سبتمبر 2010).
4. انظر: **خطب الرئيس جمال عبد الناصر 1952-1956**، (القاهرة، مصلحة الاستعلامات، د. ت.) ج 10، ص 1916.
5. انظر: جمال محمود حجر وأحمد جلال بسيوني: **الولايات المتحدة الأمريكية من الكشوف الجغرافية إلى القيادة الدولية**، (الإسكندرية، المؤلفان، 2012).
6. من رسالة عبد الناصر إلى الملك حسين، في مارس 1961، ورد في: محمد شعلان، يوسف خليل يوسف: **مرجع سابق**، ص 42.
7. من خطاب لعبد الناصر في مجلس الأمة في 23 يوليو 1957. انظر: **خطب الرئيس جمال عبد الناصر**، ج9، ص 1677.
8. محمد شعلان، يوسف خليل يوسف: **مرجع سابق**، ص 44.
9. من كلمة لعبد الناصر في مؤتمر الشعوب الأفريقية الآسيوية عام 1958. انظر:محمد شعلان، يوسف خليل يوسف: **مرجع سابق**، ص 48.

والعدالة غائبة، ولذا نادى «بضرورة الثورة السياسية كي نتحرر من الاستعمار والاستغلال، ثم تنطلق قوانا... إلى الثورة العربية، ثورة القومية العربية، وثورة الوحدة العربية»[1]. كان الرجل يؤمن بأن تجميع القوى العربية معناه «خلق حياة جديدة وأوضاع جديدة، في تفاعل خلاق ينتج عنه كائن اجتماعي جديد تنبض فيه حياة جديدة»[2]. لهذا كان لابُد أن تتخلص مصر من بقايا الاستعمار الجاثم على أرضها، وأن تحل مسألة السودان مع بريطانيا بمنحه الاستقلال أو بتوحيد وادي النيل. وفي عام 1954 حلت مسألة السودان بالاستقلال كرغبته، وفي العام نفسه حلت مسألة الاستعمار برحيله نهائيًا عن مصر. وفي مناسبة العيد الثاني للثورة (23 يوليو 1954) أكد جمال عبد الناصر على أن هدف الثورة المصرية هو تكوين «أمة عربية واحدة» في إطار الحركة القومية العربية[3]، وأن الدفاع عن الأرض العربية هو مسئولية العرب جميعًا دون الدخول في أحلاف، وكان يرد بذلك على محاولات الاستقطاب التي أفرزت حلف بغداد. في هذه الظروف تأسست إذاعة «صوت العرب» في يوليو 1953 وكان شعارها يعبر عن الهدف من إقامتها بتعزيز الفكر القومي العربي، ليكون صوت العرب من أجل العرب، يناضل من أجلهم ويُعبر عن وحدتهم. استعْدت سياسة عبد الناصر هذه القوى الكبرى، فتآمرت عليه في عام 1956 بالعدوان الثلاثي[4].

دخلت سياسة مصر تجاه إسرائيل طورًا جديدًا نتيجة العدوان الثلاثي، وتأصلت حركة معاداة الاستعمار والصهيونية في آن واحد. عندئذ انتهجت مصر نهجًا جديدًا في تأييد ودعم حركات التحرر في العالم العربي بالمال والسلاح والأفراد، ولتفعيل ذلك فتحت مكاتب لحركات التحرر في القاهرة، ولم يقتصر هذا الجهد النشط على الدائرة العربية، بل امتد إلى كل من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، وأصبحت القاهرة ملاذًا لجميع المجاهدين من أجل الاستقلال. كان من نتائج العدوان الثلاثي كذلك أن أدركت الولايات المتحدة أن حليفتيها (إنجلترا وفرنسا) غير قادرتين على مواجهة الخطر الشيوعي في المنطقة، وأن المصالح الغربية أصبحت في خطر بعد فشل حرب السويس. عندئذ رأت الولايات المتحدة أن تدخلها يجب أن يتم في المنطقة بصورة أكثر فعالية، وأن عليها أن ترعى المصالح الغربية، ففي بداية عام 1957 أعلنت الولايات المتحدة مبدأ أيزنهاور لتحقيق هذا الهدف. وكان أول تطبيق عملي لهذا المبدأ في عام 1958 عندما تدخلت القوات الأمريكية في لبنان، وتدخلت القوات البريطانية في الأردن بحجة حماية البلدين من الخطر المصري. وعلى المستوى الإقليمي غيرت السعودية من موقفها المؤيد لمصر في محاربة الاستعمار والأحلاف الأجنبية نتيجة للضغوط الأمريكية التي ظهرت نتائجها في عام 1957 في أعقاب زيارة الملك سعود لواشنطن. وهكذا بدأت حملة منظمة لإفشال خطط مصر في تدعيم الوحدة العربية ومواجهة الاستعمار والصهيونية[5]. ولا شك أن هذه الخطى اسْتعْدَت القوى الاستعمارية للعمل ضد عبد الناصر، الذي رأت فيه زعيمًا خطيرًا على مصالحها في المنطقة، ففرضت عليه واقعًا أليمًا كان لابد من مواجهته.

وهنا يتطلب الأمر الإشارة إلى محمد حسنين هيكل، ذلك الصحفي المرموق، الذي كان قريبًا جدًا من عبد الناصر، والذي كان يستضيف المثقفين في حوارات سياسية، وكان عارفًا بخبايا سياسة مصر الخارجية، للوقوف على تطور العلاقات المصرية البريطانية منذ العدوان الثلاثي[6] عام 1956 إلى الثورة في اليمن عام 1962، وهو العام نفسه الذي بدأت فيه عملية التواصل مع رسل[7]. ففي برنامج تليفزيوني[8]، كشف

1. **جريدة الأهرام**، (18 نوفمبر 1960).
2. محمد شعلان، يوسف خليل يوسف: **مرجع سابق**، ص 35.
3. انظر: حبيب عيسى: «28 سبتمبر ؟!»، **أنصار**، العدد 31، (28 سبتمبر 2010).
4. جمال محمود حجر: «دور مصر الريادي في السياسة العربية الخارجية وانتماء مصر العربي»، **مرجع سابق**.
5. جمال محمود حجر: «دور مصر الريادي»، **مرجع سابق**.
6. صعد عبد الناصر إلى الواجهة في عام 1956، واصطدم بالقوتين الكبيرتين (بريطانيا وفرنسا) وإسرائيل في العام نفسه فيما يعرف بحرب السويس وحقق نصرًا سياسيًا.
7. كان هيكل واحدًا من أشهر 11 صحفيًا على مستوى العالم، وكتبه تترجم إلى أكثر من 20 لغة.
8. «مع هيكل»، **قناة الجزيرة**، (15 فبراير 2009).

هيكل[1] عمّا يُمكن أن يُشكّل إجابة عن الأسئلة المطروحة هنا بشأن البحث عن السلام حين قال: إن قطع العلاقات بين بريطانيا ومصر بسبب العدوان الثلاثي لم يكن أمرًا مريحًا للطرفين، لذلك سعت الدولتان إلى التقارب من جديد حفاظًا على مصالحهما التي تضررت. وما كان ذلك ليتم مباشرة، فكل من الطرفين، المصري والبريطاني، كان حريصًا على أن يُحافظ على هيبته في مواجهة الآخر دون أن يُقدم أية تنازلات.

لقد كانت نهاية الخمسينيات حاسمة بالنسبة للإمبراطورية البريطانية، وكانت لندن حريصة على تخفيف أعباء إدارتها، فتبنت استراتيجية بحرية تركز على الارتباط بسواحل الإمبراطورية دون دواخلها، لتأمين طرق الملاحة البحرية بين الشرق والغرب، كانت هذه السياسة واضحة في الخليج كما هي في البحر الأحمر. وقد كشفت هذه السياسة بعد العدوان الثلاثي عام 1956عن اعتبار ميناء عدن بديلًا لميناء السويس، ليُصبح محطة رئيسة للسيطرة على طريق الملاحة في البحر الأحمر، وليُكمل دور كل من جبل طارق ومالطة في البحر المتوسط. وبعبارة أخرى إحكام القبضة البريطانية البحرية على السواحل المصرية في البحرين الأحمر والمتوسط.

ومع إنهاء فترة الصمت الدبلوماسي والتوتر بين مصر وبريطانيا بعد العدوان الثلاثي (1956-1959)، دبت الروح في العلاقات بين البلدين مع تعيين السير كولين كراو قائمًا بالأعمال في القاهرة (1959-1961). فقد أخذ الرجل المبادرة، والتقى محمد حسنين هيكل، وتشاور معه حول إمكانية عقد لقاء بين جمال عبد الناصر وهارولد ماكميلان، رئيس الوزراء البريطاني (1957-1963)، على هامش انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك (عام 1961)، لتصفية الأجواء وإعادة العلاقات بين البلدين اللذين تضررت مصالحهما بسبب القطيعة. وأشار السير كولين كراو إلى أن هارولد بيلي، مدير مكتب وزير الخارجية وكبير الدبلوماسيين في الوزارة، والذي كان هيكل يعده واحدًا من أقوى الشخصيات الدبلوماسية في وزارة الخارجية البريطانية، سيعمل على تيسير تحقيق هذا اللقاء. وطبقًا لهيكل، وفي سياق عدم تقديم تنازلات، جاء رد عبد الناصر إيجابيًا، إذ وافق على اللقاء، شريطة أن يأتيه ماكميلان. لكن الأخير رفض في إطار السياق نفسه أن يذهب إلى عبد الناصر. عندئذ لعب الوسطاء الدبلوماسيون من الطرفين أدوارًا خفية، جعلت اللقاء يأتي في ردهات اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة صدفة، فلا يبدو أن أحدهما قدم تنازلا للآخر. وعلى إثر ذلك اللقاء عادت العلاقات بين البلدين. وعين هارولد بيلي أول سفير لبريطانيا في القاهرة (1961-1964) بعد القطيعة. يجب أن نلاحظ هنا أن بيلي (الدبلوماسي) كان يعتبر حرب السويس خطأ بريطانيا كبيرًا، تمامًا كما كان رسل (الفيلسوف) يعتبرها، وكلاهما كان بريطانيًا. وهكذا صار لعبد الناصر مؤيدون مؤثرون للسلام من داخل المجتمع البريطاني.

من هنا يُمكن أن نفهم كيف سيكون كل من بيلي ورسل وسيطًا إيجابيًا في تحسين العلاقات المصرية البريطانية، وإحلال حالة السلام محل حالة الحرب. وربما كان ذلك سببًا غير مُعلن في اختيار بيلي سفيرًا في القاهرة. كما يُمكن أن نفهم أن الخطوات التي اتخذها مساعدو عبد الناصر في التواصل مع رسل لم تنشأ من فراغ سياسي، بل إنها كانت تتمة للقاء ناصر وماكميلان، الذي سبقت الإشارة إليه في نيويورك. وجميعها كانت خطوات تصحح الصورة الثورية المعادية من جانب عبد الناصر(1956-1970) لبريطانيا والغرب.

وعلى المستوى الإقليمي، شهدت المنطقة العربية تحولات جوهرية، بدأت إيجابية، وسرعان ما انتهت سلبية، فأضرت بمصالح الطرفين المصري والبريطاني، وأحدثت شرخًا في العالم العربي، ودفعت عبد الناصر إلى التأكيد على فكر السلام؛ ففي 14 فبراير 1958 تكون «الاتحاد الهاشمي العربي[2]» ليضم كلًا من العراق (الملك فيصل الثاني 1953ـ 1958)

1. في سياق الحديث عن الأوراق الخاصة التي هي المصدر الرئيس في تناول هذا الموضوع، هل يُمكن أن تكشف الأوراق الخاصة بمحمد حسنين هيكل عن جوانب غير مرئية من هذا الموضوع، وربما تصير هذه الأوراق متاحة بعد وفاته، وليس هذا يقينًا، لأن القواعد العالمية لنشر الوثائق لا تُطبق في مصر. والشيء نفسه يُمكن أن يُقال عن أوراق عبد الناصر الخاصة.
2. حول الاتحاد العربي، انظر: مؤيد الونداوي: **الاتحاد العربي في الوثائق البريطانية، المجموعة الوثائقية البريطانية الرسمية الكاملة للاتحاد العربي الهاشمي بين العراق والأردن لعام 1958**، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).

والأردن (الملك حسين 1952ـ 1999) في اتحاد غير اندماجي. وسرعان ما تفكك في 14 يوليو من العام نفسه، على إثر انقلاب عبد الكريم قاسم (1958 ـ 1963) الذي أنهى حكم الملك فيصل الثاني، وصار أول رئيس للجمهورية العراقية، وبذلك انتهى دور الهاشميين في العراق. وبعد أسبوع واحد من قيام «الاتحاد الهاشمي العربي»، وفي 22 فبراير 1958 أعلنت مصر وسوريا قيام وحدة اندماجية بينهما تحت اسم «الجمهورية العربية المتحدة»، لتصير سوريا الإقليم الشمالي، وتصير مصر الإقليم الجنوبي في دولة الاتحاد، وكانت هذه الوحدة تجسيدًا لفكرة القومية العربية التي تبناها عبد الناصر. ومع ذلك لم يُقدَّر للكيان الوحدوي الجديد برئاسة عبد الناصر، كما لم يُقدَّر لسابقه الهاشميّ أن يدوم طويلا؛ ففي 28 سبتمبر 1961خابت حسابات عبد الناصر، وانفصلت سوريا عن مصر. وكان ذلك ضربة عنيفة لطموحاته الوحدوية والقومية في مواجهة بريطانيا والدول العربية التي تدور في فلكها[1]. انكسر حلم الوحدة العربية والقومية العربية عند عبدالناصر، وماتت معه الفكرة يوم مات في 28 سبتمبر 1970، ولم تقم لها قائمة منذئذ[2]. وتجب الإشارة هنا إلى أن كلًا من رسل وأينشتاين لم يؤمنا بفكرة القومية، ويعتبرانها أحد وجوه التعصب والدعوة إلى الحرب. يقول أينشتاين: «القومية مرض طفولي، هي حصبة البشرية». كل هذه التطورات الإقليمية وما صاحبها من تفاعلات دولية، دفعت عبد الناصر دفعًا نحو البحث عن السلام.

ولم يمض عام على انكسار فكر عبد الناصر الوحدوي، حتى حدث تطور جديد، إذ أعلن عن قيام الجمهورية العربية اليمنية في 26 سبتمبر 1962 برئاسة عبد الله السلال (1962-1967). استبشر عبد الناصر بالحدث خيرًا، واعترفت بها مصر في 28 من الشهر نفسه، وإذ كان يحاول أن يسترد شيئًا من الهيبة التي فقدها نتيجة لانفصال سوريا عن مصر، وانكسار مشروعه القومي، فاعتبر ثورة اليمن هي ثورة مصر، ليتحدى بها كلا من بريطانيا والسعودية. وهكذا أسفرت سياسة عبد الناصر الثورية عن دخول مصر طرفًا في مساندة النظام الجمهوري بالتدخل العسكري المباشر، وفي مواجهته وقفت كل من بريطانيا والمملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية مساندة للنظام القديم. وهكذا انقسم العرب بشأن اليمن إلى معسكرين متناحرين. واستُدرج عبد الناصر إلى مستنقع اليمن، حيث كان يسعى لتغيير النظام الملكي في أعقاب انتصاره السياسي على العدوان الثلاثي عام 1956[3].

بدأت بريطانيا تقلق على مصالحها من جديد، وتسرب القلق إلى شركات النفط العاملة في المنطقة. ووجد عبد الناصر نفسه في مأزق سياسي حاد على مستوى العلاقات المصرية العربية، كما هو الحال على مستوى العلاقات المصرية البريطانية. يقول هيكل في هذا السياق: «لم يعد أمام الطرفين من مخرج سوى الحوار عبر مراكز الفكر، بعيدًا عن الوسائط الدبلوماسية التي استنفدت أدواتها، فهما في حاجة إلى التواصل عبر الحوار والكتابة والنشر»[4]. وفي هذا المجال كان معهد شاتام هاوس Chatham House[5] يلعب ذلك الدور البحثي على الجانب البريطاني.

رأى البريطانيون في عام 1962 أن يكسروا ثورية جمال عبد الناصر، وأن يتحمل جهاز المخابرات البريطانية القيام بالدور الرئيس في تلك المرحلة. فجهزت المخابرات البريطانية أول شركة أمن Watch Guard في التاريخ بالتعاون مع إسرائيل للعمل في اليمن ضد عبد الناصر. فكونت تلك الشركة أول جيش من المرتزقة، تتوفر لديه إمكانيات الجيوش النظامية. أدرك عبد الناصر نوايا بريطانيا وهدد بالتصدي لها، وهدد بإبادة هذا الجيش في إحدى خطبه الثورية في ديسمبر 1962. وفي المقابل أعلن ماكميلان: «إننا نريد أن نستنزف ناصر

1. مجموعة مؤلفين: **أربعون عامًا على الوحدة المصرية السورية**، (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، 1999).
2. انظر: صبحي غندور: «هكذا نحن الآن بعد 40 عاما يا ناصر»، **أنصار**، العدد 31، (28 سبتمبر 2010).
3. حول الثورة اليمنية وموقف كل من مصر والمملكة العربية السعودية انظر: أحمد يوسف أحمد: **الدور المصري في اليمن**، (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1981)؛ سعيد محمد باديب: **الصراع السعودي المصري حول اليمن الشمالي، 1962-1970**، (لندن: دار الساقي، 1990).
4. «مع هيكل»، **قناة الجزيرة**، (15 فبراير 2009).
5. مؤسسة بحثية بريطانية معروفة رسميًا بالمعهد الملكي للشؤون الدولية The Royal Institute of International Affairs تأسس في أعقاب الحرب العالمية الأولى عام 1920، أي بعد معاهدة السلام في باريس عام 1919.

حتى الموت[1] في اليمن»[2]. في هذه الظروف الصعبة، كان على عبد الناصر أن يبحث بوسائله عن مخرج سلمي من أزمته في اليمن وسط انقسام عربي.

من هنا يمكن أن نفهم: لماذا فتح عبد الناصر خطًا للتواصل مع الفيلسوف البريطاني داعية السلام عبر السفير البريطاني في القاهرة ووزارة الخارجية البريطانية في لندن. إذ ربما أراد أن تكون رسالته موجهة إلى الخارجية البريطانية بقدر ما هي موجهة إلى رسل، لتكشف بطريقة غير مباشرة عن نوايا عبد الناصر نحو السلام.

تُفيد الإشارات السابقة في أن المد الثوري الذي تبناه جمال عبد الناصر قد أحدث تأثيرًا واضحًا في المشرق العربي في كل من سوريا والعراق واليمن، وهو ما أحدث قلقًا للنظم الملكية في كل من السعودية والأردن كما في إسرائيل. فقد كان تحرير فلسطين قضية عبد الناصر الأولى، وكانت سياسته الثورية في محاربة الاستعمار الغربي في المنطقة وبالًا عليه. كان عبد الناصر زعيمًا ثوريًا قوميًا يُعلن معاداته للاستعمار والصهيونية. ولكنه كان في الوقت نفسه باحثًا عن السلام، ويعد هذا وجهًا جديدًا لعبد الناصر تكشف عنه هذه الدراسة، ليتأكد أن الرجل كان صاحب مشروع فكري. ورغم التقائه برسل حول السلام إلا أن رسل كان يعتبر القوميات عائقًا في طريق السلام.

ورغم ما كان يبدو في خطبه الحماسية من تحد غير مسبوق لكل أعدائه، سواء أكانوا من القوى الدولية أو من القوى الإقليمية، وثقته الزائدة بالنفس، فقد كان يتمتع بكاريزما عالية، أكسبته شعبية كبيرة في داخل مصر وخارجها، إلا أن أعداءه الذين كانوا يرصدون ذلك بعد حرب السويس، كانوا يُشكّلون خطرًا حقيقيًا عليه، ومع أنه كان يُدرك ذلك مبكرًا، إلا أنه لم يأخذ حذره إلا متأخرًا. في هذه الظروف كان السلام خيارًا لابد منه، يتبناه مفكرون كبار على شاكلة برتراند رسل صاحب التأثير القوي في المجتمع الدولي، وكان لابد من التواصل معه باعتباره واحدًا من القوى الناعمة التي يُمكن توظيفها لخدمة السلام.

كان عبد الناصر السياسي المثقف يستعين بالخبراء الذين يرتبون له أجواء صناعة القرار، بحيث يملك أدوات العمل السياسي، ومنها مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة عين شمس، الذي أنشئ متأخرًا خمس سنوات بمبادرة منه عام 1967، ليكون على شاكلة معهد شاتام هاوس في لندن، يُقدم الخبرات العلمية للدولة في مختلف المجالات، وتحويل الفكر إلى واقع، على شاكلة ما يفعله برتراند رسل. هنا التقى عبد الناصر السياسي المثقف ببرتراند رسل الفيلسوف الواقعي، فالفكر لا ينفصل عن السياسة. ولذا كان اختيار صلاح دسوقي[3] محافظ القاهرة اختيارًا موفقًا ليكون قناة اتصال مع رسل حول فكر السلام وقضاياه، دون أن يورط نفسه حفاظًا على هيبته، وعدم الكشف عن أوراقه أمام الآخر، خاصة وأن رسل استطاع بفكره أن يُذيب الحواجز التي تفصل بين الشرق والغرب، وأن يجمع بينهما، وأن يُفند مقولة الشاعر الإنجليزي روديارد كبلنج Rudyard Kipling «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا»، التي كان قد أطلقها في أواخر القرن التاسع عشر، والتي تعوق فرص التقريب بين الشرق والغرب، ليثبت قدرة الفكر على خدمة قضايا السياسة. خاصة وأنه تجاوز دوره كمنظر أو فيلسوف، وصار أحد الفاعلين في المشهد السياسي. وتكشف المراسلات التالية بوضوح عن التغير الذي جرى على فكر رسل ودوره.

1. «We want Nasser to bleed to death in the Yemen».

2. «مع هيكل»، **قناة الجزيرة**، (15 فبراير 2009).

3. هو صلاح دسوقي الشيشتاوي محافظ القاهرة (16 أكتوبر 1960-30 يوليو 1965) كان أول ضابط شرطة يصل إلى منصب المحافظ، إذ كان من المقربين للضباط الأحرار. (انظر: علاء الغطريفي، «حركة المحافظين»، **جريدة المصري اليوم**، 4 يناير 2006) وكان دسوقي مقربًا جدًا لعبد الناصر ويلعب معه التنس (انظر تصريحات الدكتور خالد عبد الناصر في **صحيفة الدستور الأردنية**، 3 أكتوبر 2010) وكثيرًا ما استعان عبد الناصر به في التواصل مع شخصيات سياسية أو ثقافية مرموقة، كما حدث عندما طلب منه توجيه الدعوة إلى ويلي برانت، الذي كان رئيسًا لبلدية برلين، قبل أن يُصبح وزيرًا للخارجية ثم مستشارًا لألمانيا، وقد لبى برانت الدعوة في منتصف الستينيات. (انظر: ناصر الدين النشاشيبي: «3 سنوات في مصر»، **صحيفة الشرق الأوسط**، (8 أغسطس 2001) ولكن علاقتهما ساءت في عام 1965 عندما اختلف في الرأي مع عبد الناصر، الذي أنهى خدمته كمحافظ.

حوار السلام

بدأ الحوار بين عبد الناصر ورسل في صورة رسالة بعث بها صلاح دسوقي إلى برتراند رسل في 22 نوفمبر 1962[1] يُشير فيها، دون مقدمات، إلى إعجابه بشخصية رسل ويعده «من محبي السلام وداعميه»، لأنه يدعم «كل الأمم المحبة للسلام»، ولأنه في نظره «أعظم مفكري وفلاسفة[2] هذا الزمان»، ويدعوه لزيارة الجمهورية العربية المتحدة (مصر)[3]. يقول دسوقي: «وطالما أنك لم تزر بلادنا، فإنني دائمًا أتبنى فكرة دعوتكم لزيارة الجمهورية العربية المتحدة، رغم أن كثيرين هنا يظنون أن ذلك لن يكون في وسعك بسبب التزاماتك المتشعبة. ولكنني الآن متشجع بنشاطك الواسع وطاقتك وحيويتك، وحبك المتميز للسلام، وإن ذلك كله سيدفعك لقبول هذه الدعوة»[4]. يتضح من مدخل الخطاب على النحو الذي عرضناه أن محافظ القاهرة كان على صلة ما برسل، تسمح له بأن يمتدحه على هذا النحو، وأن يُخاطبه في شأن عام هو السلام، وأن يجعل منه وسيطًا ممهدًا لبدء علاقات ودية مع بريطانيا في هذا الإطار.

لم يكن الموضوع الذي طرحه دسوقي موضوعًا شخصيًا، بل كان موضوعًا عامًا، ولم يكن وديًا وإنما كان رسميًا، ولم يكن يخصه هو كمحافظ، وإنما كان يخص مصر كدولة، ولم يكن يخص مصر وحدها، وإنما يخص المنطقة بكاملها. ومن الواضح أن عبد الناصر كان لديه رؤية ومشروع ثقافي، يطبق من خلاله سياسة مصر الناعمة في التواصل مع مفكري العالم لمخاطبة الخارج، والاستئناس برؤى المفكرين المصريين في مخاطبة الداخل[5].

يقول دسوقي لرسل: «أنا على يقين من أنك قرأت تاريخ الشرق الأوسط، وتاريخ مصر القديم وحضارتها، وكذا معظم تاريخ البلاد العربية، ولعلك تعلم أننا في الجمهورية العربية المتحدة، كما في باقي البلاد العربية، نمر بمرحلة مهمة من التغير أو التحول. فقد مضى الآن عشر سنوات على ثورة يوليو 1952، التي حاولنا من خلالها أن ننهض بمستوى شعبنا ثقافيًا واقتصاديًا وسياسيًا[6]. فإذا تفضلتم وقبلتم هذه الدعوة سيكون أمامكم الفرصة لرؤية تراثنا الحضاري ونهضتنا الحديثة والتقدم الذي حققناه في مختلف المجالات. وفي الوقت نفسه سيسعدنا أن نستمع إلى نصائح رجل عظيم مثلك. فأنت تسعى بالتأكيد إلى إقامة السلام، ونحن نسعى جادين في الاتجاه نفسه، ولذلك فنحن سنلتقي حول هذا الموضوع»[7].

ويفهم صراحة من العبارة الأخيرة في خطاب دسوقي أنه كان يتكلم رسميًا باسم مصر حين يقول: «إنه لمن دواعي سعادتي أن أوجه إليكم دعوة رسمية لزيارة الجمهورية العربية المتحدة وأن تحل ضيف شرف على محافظ القاهرة، وسأترك لكم تحديد موعد الزيارة المقترحة»[8]. ليس لدينا ما يُفيد أن دسوقي تلقى تعليمات من جمال عبد الناصر، ولا من أية جهة عليا بشأن إجراء هذا التواصل مع رسل. وليس من المتوقع أن يأخذ دسوقي نفسه المبادرة في قضية لا تقع

1. Salah Dessouki to Lord Russell, 22 Nov. 1962. **Russell Private Papers,** MacMaster University. (here after: RPP).
2. يكشف الحوار عن أن عبد الناصر كان يسعى إلى تحقيق أهدافه السياسية على مستويين: الأول سياسي رسمي، والثاني فكري غير رسمي.
3. المقصود هنا مصر، وكان اسم «الجمهورية العربية المتحدة» قد أطلق في البداية على «مصر وسوريا» معًا عندما اتحدتا في عام 1958. وبعد انفصال سوريا عن دولة الوحدة عام 1961، ظل الاسم يُطلق على مصر وحدها، وبقيت تحمله طوال عهد عبد الناصر. وفي عهد السادات استعادت مصر اسمها من جديد تحت مسمى «جمهورية مصر العربية».
4. Salah Dessouki to Lord Russell, 22 Nov. 1962.(RPP)
5. لو أن هذه الفلسفة لا تزال قائمة لما وقعنا فيما نحن فيه من العبث في علاقاتنا الدولية. فنحن في حاجة إلى توظيف قوى مصر الناعمة في سياستنا الخارجية.
6. قد يكون من المناسب أن نطرح سؤالا على هامش الموقف: هل كانت أوضاع مصر الداخلية في مطلع الستينيات وراء توجهات عبد الناصر الخارجية نحو السلام؟
7. Salah Dessouki to Lord Russell, 22 Nov. 1962.(RPP)
8. **Ibid.**

في دائرة اختصاصه. ولعل التقارب الذي رصدناه بين دسوقي وعبد الناصر هو الذي جاء به محافظًا للقاهرة، ليكون أول ضابط شرطة يشغل منصب محافظ، وليكون وسيطًا مناسبًا بين الجهات العليا في مصر وبين رسل. وتتأكد هذه القناعة من رصد الطريقة التي بعث بها دسوقي رسالته إلى رسل؛ فهو لم يبعث بها مباشرة إلى رسل، وإنما طلب من السفير البريطاني في القاهرة (سير هارولد بيلي) أن ينقلها إلى رسل عن طريق وزارة الخارجية البريطانية، كي تتولى هي بدورها توصيلها إليه[1].

ويثير تمرير رسالة دسوقي إلى رسل على النحو السابق، مجموعة من التساؤلات، لعل أولها: ما هي دوافع دسوقي أو رئاسة الجمهورية من ذلك؟ ولماذا طلب من السفير البريطاني ووزارة الخارجية توصيل رسالة إلى مواطن بريطاني، حتى ولو كان فيلسوفًا في منزلة رسل الفكرية؟ وإن كان ولابد أن تسلك هذا الطريق، فلماذا لم يتم ذلك عن طريق وزارة الخارجية المصرية عبر السفير المصري في لندن؟ ولماذا تم اختيار دسوقي لهذه المهمة؟

رحب رسل بالدعوة المرسلة إليه من دسوقي، واعتبرها شرفًا عظيمًا، ولكنه اعتذر عن عدم تلبيتها. إذ كتب في رسالة إلى صلاح دسوقي في 6 ديسمبر: «ولكنني آسف كثيرًا لعدم تمكني من تحقيقها بسبب أعبائي وضغط العمل الذي يجعل من المستحيل زيارة بلدكم». وفضلًا عن ذلك السبب المعلن، بدا رسل غير مستريح للطريق الذي سلكته رسالة الدعوة، ربما لأنه لم يكن على علاقة ودية مع حكومة بلاده، ويبدو ذلك واضحًا حين كتب إلى دسوقي: «آمل أن تكتب إلي مستقبلًا على عنوان منزلي بدلًا من الكتابة عن طريق وزارة الخارجية»[2].

وحرصًا منه على أن يتحقق الهدف المنتظر من الزيارة التي لن تتم، وجه رسل اثنين من معاونيه، هما: رالف سكوبن مان، ونيقولاس جونسون اللذين كانا في بغداد[3]؛ لزيارة القاهرة والتشاور مع دسوقي وغيره من المسئولين المصريين. تمّت الزيارة، ولا يتوافر لدينا أية تفاصيل عنها، ولكن دسوقي كتب خطابًا مطولًا إلى رسل في 27 ديسمبر 1962[4]، يُفيده بأن «رالف سكوبن مان، ونيقولاس جونسون هما ضيفاي في القاهرة؛ وقد التقيتهما في مكتبي، ولعلي أقدم لهما الرعاية المناسبة، وكنت أتمنى لو أنك كنت معنا في القاهرة كي يتم التواصل الشخصي بيننا لنتبادل الرأي، باعتبار أن ذلك أفضل وسيلة للتواصل والتفاهم الودي، والطريقة العملية لحل المشكلات وتدعيم السلام العالمي». ثم استطرد دسوقي مُشيدًا بجهود رسل من أجل السلام، كاشفًا عن متابعته لتلك الجهود، وواضعًا جوهر فكرة السلام، كما تؤمن بها مصر، أمامه بوضوح لا يشوبه لبس، حين قال:

«إن رسالة السلام التي تحملها على عاتقك، والتي ترتبط باسمك، قد وصلت إلى كل مكان في العالم، الذي لابد أنه يُقدّر حماستك لهذا الهدف النبيل. وإنني أذكر لك أيها اللورد النبيل أن معظم شعوب العالم تدعم جهودك من أعماق قلوبها لتحقيق هذا الهدف النبيل. ففي عصور تاريخية سابقة كان الإنسان يميل غالبًا نحو السعي لتحقيق العدالة فكرًا أو فعلًا. وبالرغم من الإنجازات التي حققتها الأمم المتحدة فلا يزال بيننا وبين أن نعيش في سلام طريق طويل. فالأزمة الكوبية مثلا (1962) تؤكد على أن الإنسانية يُمكن

1. Dundee (FO) to Lord Russell, 29 Nov., 1962.(RPP).
2. Russell to S. Dessouki, 6 Dec., 1962.(RPP).
3. كان رسل يتواصل في ذلك الوقت مع بغداد من خلال مساعديه رالف سكوبن مان Ralph sckobn man ونيقولاس جونسون، اللذين يمثلانه في احتفالية الألفية بالكندي Alkindus (أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي 805- 873م)، المشهور في الغرب باسم الفيلسوف العربي، المولود في الكوفة وعاش في بغداد زمن الخليفتين المأمون والمعتصم. ويُعد أحد أعظم فلاسفة المسلمين في عصره. وقد قال عنه ابن النديم في الفهرست «فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة». وكان من المقرر أن يُلبي رالف سكوبن مان، ونيقولاس جونسون كذلك دعوة الأمير فيصل بن عبد العزيز ويزورا الرياض من بغداد لاستطلاع رأي الأمير حول موضوع السلام. انظر: فهد السماري: «الملك فيصل بن عبد العزيز وبرتراند رسل»، **مجلة الدارة**، العدد2، (1429هـ)، ص 12، 13. هكذا كان رسل يستطلع من خلال معاونيه أخبار المنطقة وتوجهاتها.
4. Salah Dessouki to Russell, 27 Dec., 1962.(RPP).

أن تجد نفسها فجأة عند منعطف حاد. لعل هذه الأزمة إنذار لذوي النوايا الطيبة، تؤشر بأن طريق العمل من أجل حماية السلام العالمي لا يزال طويلًا جدًا. إن المناقشة والحوار والفهم المتبادل هي الوسائل الوحيدة التي يجب من خلالها أن نتناول مشكلات العالم. وعليه يجب أن نتفادى الصدام المسلح، وأن نؤسس للسلام كي نجعل لعالمنا المتحضر معنى. إن الإنجازات العظيمة التي أنجزتها الإنسانية في مجال العلوم، يجب أن تؤدي إلى خدمة السلام وليس إلى تدمير ما أنجزه الإنسان. إن لكل مبدأ معتقديه ومؤيديه الذين يتحملون المعاناة من أجل تحقيقه، ويعملون لإقناع الشعوب بأهميته وبضرورة وضعه موضع التنفيذ. وإننا في الجمهورية العربية المتحدة مؤمنون بالسلام وأهدافه، ونعمل من أجل ما نؤمن به، ونتبنى الوسائل السلمية التي نبني بها مجتمعنا وننميه؛ كي نرفع مستوى معيشتنا، وبذلك نُقدم نموذجًا للشعوب في المنطقة من حولنا. إن عالم اليوم عالم متداخل، يرى أن السلام لا يُمكن تجنبه، وأن أي تهديد للسلام في أي جزء في العالم له آثاره السلبية على كل مكان في العالم. إن قوى السلام يجب أن تتطور من حيث القوة والنفوذ، وأن تتفاعل من أجل التأثير على الأهداف العالمية. ولعلك تتفق معي أيها اللورد على أن هذه القوى لا زالت بعيدة عن أن تكون منظمة أو متعاونة أو مفعلة. ولعل هذه واحدة من المشكلات الكُبرى التي تواجه عالمنا المعاصر. فالنوايا الحسنة، كما يُعلمنا التاريخ، ليست كافية لحمايتنا من خطر الحروب»[1].

وبعد أن وضع دسوقي رؤية مصر للسلام وفلسفته وأدواته وأهدافه، التي هي في الواقع رؤية قيادة أكثر منها رؤية فردية، طلب من رسل أن يضع يده في يد مصر، مُعبرًا بوضوح عن وعي تام بمخاطر الحرب، وراغبًا في تجنبها بالعمل الجماعي، الذي تلتقي فيه رؤية الفيلسوف بآليات السياسي، «كي نتحرك معًا في اتجاه إيجاد تنظيم فاعل. فتوظيف القدرات العقلية للإنسان لتطوير أساليب الحرب الحديثة يعتبر جنونًا، لأن الوصول إلى هذه النتيجة ليس فيه منتصر أو منهزم، ولكن فيه تدميرًا لكلا الطرفين». ويُضيف دسوقي: «وفي هذا المجال فإنني أريد أن أعرف رأيك في سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز[2]، ودورها في السياسة العالمية. فنحن في الجمهورية العربية المتحدة نعتقد في وجود دعائم للسلام في كل بلاد العالم شرقيه وغربيه، وأن دول عدم الانحياز لها أصدقاء في كل من الكتلتين. ونحن مع الرأي الذي يقول بأنه لا يوجد شعب يرغب في الحرب، سواء كانت حربًا باردة أو ساخنة. إن الناس يرغبون في أن يسود السلام في العالم، وأن على الشعوب المتقدمة والمتطورة ثقافيًا واقتصاديًا أن تُساعد في تنمية الشعوب الأخرى الأقل تقدمًا، لأن مثل هذه المساعدات لن تعود فقط على الشعوب المعنية، وإنما على كافة شعوب العالم، وعلى الدول المتقدمة ذاتها. فالعالم اليوم يُشبه الأسرة الكبيرة التي يُساعد فيها القادرون غير القادرين من أجل مصلحة الجميع. والولايات المتحدة تساعد أوروبا مؤخرًا بعد الحرب العالمية الثانية من أجل حمايتها من مصاعب اقتصادية خطيرة. والاتحاد السوفيتي، شأنه في ذلك شأن الدول الغربية، يساعد في تحسين مستوى المعيشة في العالم. وإن ما يُنفق في هذا المجال أقل بكثير مما ينفق في مجال التسلح. وكما أشرتم في مناسبات كثيرة سابقة، فإن تلك الموارد ستجعل العالم أفضل إذا ما وجهت إلى التنمية الاقتصادية. فالتسلح أثبت أنه بئر بلا قاع. إنه لرائع أن توجه تلك الموارد العظيمة لمحاربة الفقر دون تمييز»[3].

وفي ختام رسالته أشار دسوقي إلى أنه لا يتكلم بصفته مسئولًا في الحكومة المصرية، رغم أنه محافظ القاهرة، وإنما بصفته «مواطنًا مصريًا مسئولًا يتابع خطاك وأفكارك بإعجاب

1. Salah Dessouki to Russell, 27 Dec., 1962. (RPP)

2. الحياد الإيجابي شكل من أشكال الحياد يهدف إلى تأمين استقرار الجماعة الدولية. وهو «نظرية سياسية لا قانونية، بموجبها ترفض دولة ما الانحياز لمعسكر من المعسكرات الدولية، وتصر على اتباع سياسة حرة تمليها المصلحة الوطنية للدولة، بغض النظر عن الاعتبارات الأخرى». وأصبح هذا المصطلح متداولًا بعد انعقاد مؤتمر باندونج لعام 1955 بين عدد من الدول الإفريقية (على رأسها مصر) والآسيوية المستقلة حديثًا؛ ثم ما لبث هذا المصطلح أن توارى جزئيًا بعد انعقاد مؤتمر القمة للدول التي تبنته إضافة إلى دول أخرى في بلغراد عام 1961وحلّ محله تعبير «عدم الانحياز». وأُطلق منذ ذلك الوقت على الدول المحايدة إيجابيًا اسم «دول عدم الانحياز». انظر: **الموسوعة العربية**.

3. Salah Dessouki to Russell, 27 Dec., 1962.(RPP).

شديد، في خدمة السلام العالمي والارتقاء بالإنسانية». لقد كان دسوقي موفقًا في دمج «الأنا» الداعية للسلام في «نحن» التي هي الدولة التي تسعى للحياة في سلام. ولا يُمكن أن يكون ذلك جائزًا أو متاحًا بعيدًا عن علم القيادة السياسية.

عند هذه المرحلة من نهاية عام 1962 ومطلع عام 1963 نشطت المراسلات بين نشطاء السلام في كل من القاهرة ولندن، نتيجة للظروف السياسية المتوترة التي سادت الستينيات من القرن العشرين، والتي أشرنا إليها سابقًا. ففي 3 يناير 1963 خرجت من لندن أربع رسائل في اتجاه القاهرة.

الرسالة الأولى: من رالف سكوين مان، ونيقولاس جونسون (اللذين كان قد استقبلهما دسوقي وتحاور معهما في القاهرة كممثلين لبرتراند رسل قبل أقل من شهر) يخاطبان فيها صلاح دسوقي بالقول: «نحن نقف بقوة مع وجهة نظرك، ونشعر بتقدير شديد لكل ما فعلته من أجلنا أثناء إقامتنا في مصر، فقد كانت بالنسبة لنا تجربة فريدة، ونشعر بأننا غادرناكم بإحساس آمن وفهم أعمق للمشكلات والجهود التي تبذلونها من أجل حلها... ليس فقط كرم الضيافة هو الذي مكننا من البقاء في مصر فترة تزيد على الأسبوع، ولكن شخصيتك المتميزة التي تعني الكثير بالنسبة لنا، ونحن نثمن هذه الفرصة التي نتكلم فيها معك بطريقة غير رسمية. فكل منا يشعر بالصداقة التي ذكرتها ... إنني آمل في أن نتواصل... ويُسعدنا أن نُبقي على جهودنا من أجل السلام»[1].

والرسالة الثانية: من رسل إلى الدكتور إبراهيم حلمي عبد الرحمن[2] مدير المركز القومي للتخطيط، الذي كان قد التقي كلا من رالف سكوين مان، ونيقولاس جونسون أثناء زيارتهما للقاهرة، واقترح عليهما تدشين حملة لتأسيس «مؤسسة السلام». وفي هذه الرسالة يشكر رسل مدير المركز القومي للتخطيط على النصائح والمساعدة التي قدمها لممثليه اللذين زارا القاهرة، «فقد كانت عظيمة القيمة بالنسبة لي (رسل)، وتعلمت منها كثيرًا، وسوف أضعها موضع التنفيذ فورًا. وإنني معجب جدًا بمشروعك الموسوم «نقطة الانطلاق Trigger Action» من أجل تدشين حملة لتأسيس مؤسسة السلام، وسوف أرسل إليك في أقرب فرصة دليلًا أعده بعناية فائقة لنوايا السلام، ويتعلق بالمؤسسة المشار إليها والمشاريع التي ستضطلع بها. وإنني مهتم جدًا بمعرفة رأيك في هذه المؤسسة وخططها وكل ما يتعلق بها، وما يُمكنك القيام به. إنني سأثمن هذه النصائح»[3]. هكذا كانت فكرة مشروع مؤسسة رسل للسلام فكرة مصرية، طرحها الدكتور إبراهيم حلمي عبد الرحمن.وقد رأت النور عام 1963 لتحقيق هدف واضح هو دعم جهود رسل من أجل السلام، وحقوق الإنسان، والعدالة الاجتماعية، واستمرت المؤسسة ترعى هذه الاتجاهات لمدة 40 عامًا.

أما الرسالة الثالثة: فكانت من راسل إلى صلاح دسوقي، يقول فيها: إن مندوبيه قدما له «تقريرًا عن الزيارة الدافئة والصداقة التي أظهرتها لهما أثناء وجودهما في مصر،

1. Ralph Schoenman& Nicholas Johnson to Salah Dessouki, 3 Jan., 1963.(RPP).

2. إبراهيم حلمي عبد الرحمن (1919-1998) هو ابن عمدة كفر الولجا مركز كفر شكر محافظة القليوبية، كان متفوقًا في جميع مراحل التعليم. حصل على بكالريوس العلوم من جامعة القاهرة (1938)، والدكتوراه من جامعة أدنبرة (1941)، درس الفلك في جامعة كيمبريدج (1942)، كما أجرى دراسات علمية في جامعة ليدن بهولندا عام 1951. عمل مدرسًا بكلية العلوم جامعة القاهرة، ثم أستاذًا مساعدًا بمرصد حلوان (1942-1952)، ثم سكرتيرًا عامًا للجنة التخطيط القومي (1954-1965)، وسكرتيرًا عامًا لمجلس الوزراء (1954-1957)، وسكرتيرًا عامًا وعضوًا في لجنة الطاقة الذرية المصرية (1955-1958)، وسكرتيرًا عامًا وعضوًا بالمجلس الأعلى للعلوم (1956-1958)، ثم أسس معهد التخطيط القومي وصار أول مدير له (1960-1963). ثم مديرًا لمنظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (1967-1974). ثم مستشارًا لرئيس مجلس الوزراء (1974)، ثم وزيرًا للتخطيط والتنمية الإدارية (1975-1976). وإلى جانب ذلك كان عضوًا في صندوق التكامل بين مصر والسودان، وعضوًا بمجلس إدارة الاتحاد الدولي للدراسات المستقبلية، وعضوًا بنادي روما الدولي، وعضوًا بالمجلس الاستشاري لمدير منظمة اليونسكو للعلوم والتكنولوجيا، ومستشارًا اقتصاديًا للصندوق العربي للإنماء، ولمنظمة الدول العربية المصدرة للبترول بالكويت، ومديرًا منتدبًا لمكتب اليونسكو الإقليمي للعلوم، وعضوًا بالمجلس الأعلى للطاقة، وعضوًا بمجلس أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، وعضوًا مؤسسًا للاتحاد العلمي المصري والاتحاد العلمي العربي. وهكذا يشهد تاريخه السياسي ونشاطه الاقتصادي وخبرته العلمية على قربه الشديد من عبد الناصر.

3. Russell to I. H. Abdul Rahman, 3 Jan., 1963. (RPP).

وإنني أقدر اهتمامكم بالقضايا الفكرية التي أهتم بها. ويُسعدني أن أُعبر عن رغبتي في تلبية الدعوة لبلادكم، ولكن من غير الممكن تحقيق ذلك، رغم أنني أرغب في رؤية بلادكم لأول مرة، كما أرغب في لقائكم شخصيًا. أرجو ألا تُسيء فهم أسباب عدم تلبية الدعوة التي تتعلق بالمرحلة العمرية والحالة الصحية، خاصة وأنني ملتزم بأن أدخر طاقتي من أجل إنجاز العمل الذي هو ضروري لنا جميعًا[1]، والذي يعني وقف عمليات القتل الجماعي (المذابح)، وتوحيد الجهود من أجل التنمية في العالم. ويُسعدني أن أرسل إليك خلال الأسبوعين التاليين وصفًا للخطط التي آمل أن أعمل بها ضد الحرب النووية وفي انتظار رؤيتكم لها. وهناك مسألة أخرى أحب أن أذكرها، وهي أنني أعتذر عن عدم تهنئة الشعب المصري باحتفالات النصر عام 1956 في الوقت المناسب»[2].

وهنا وجه رسل إلى الرئيس جمال عبد الناصر وشعب الجمهورية العربية المتحدة التهنئة بالانتصار على العدوان الثلاثي، في رسالة هذا نصها[3]:

إلى الرئيس جمال عبد الناصر وشعب الجمهورية العربية المتحدة

إن المناسبة الاحتفالية السنوية لهزيمة العدوان (الثلاثي) على مصر هي مناسبة ذات دلالة. إنني أشعر بأهمية التعبير عن تحياتي وتهاني إلى شعب مصر بصفتي رجلًا إنجليزيًا يشعر بالخجل نتيجة الهجوم على الشعب المصري من قبل حكومة فاسدة (بريطانيا) مصابة بالهستيريا ضد أمة ناشئة (مصر) تبحث عن نهاية لسنوات من الاستغلال. فالهجوم على السويس كان درسًا واضحًا لشعوب العالم حين ترى أن دولة كبرى تدبر شئون السياسة الدولية بالقوة المسلحة.

والسؤال: ما هذا الداعي الذي أهاج الحكومة البريطانية في عام 1956؟ إنه الفكرة التي تجعل الاستفادة من الموارد الطبيعية المصرية تعود على المصريين الذين يعيشون على أرض مصر. إنه ليس فقط فقدان الدخل المالي الذي كان يأتي من القناة (لبريطانيا) هو الذي أثار الحكومة البريطانية، ولكنه الدرس الذي يُمكن أن تتعلمه الشعوب الأخرى التي تُعاني من غياب العدالة[4]. ففي عالم اليوم يُعتبر هذا العدوان العسكري الذي تم بدم بارد إهانة للإنسانية جمعاء. لا يوجد أحد يفهم حماقة هذا المعنى للسلوك أفضل من أولئك الناس الذين استغلوا هذه الشعوب، ولكنها في خطر بسبب الحماقة التي مكنت بعض الرجال أن يصدقوا بعض الأهداف السياسية العدوانية، وبعض أشكال السيطرة. إنها تعطي الشرعية لتبرير الرغبة في قتل السكان.

إن الاندفاع نحو دول العالم الثالث (الدول النامية) يرتكز أيضًا على حقيقة أن موارد العالم المادية والبشرية تدمر بمعدل مرتفع. فالعالم ينفق بجنون مائة مليون دولار في الساعة على الحرب الباردة. إن خطط التنمية وجهود تحسين مستوى المعيشة تُعامل من جانب القوى الكبرى فقط كنقاط للمساومة في صراع القوى مع طرف ثالث.

إنه لمن الواضح أن سلام وكرامة الدول الناشئة في خطر في ظل ذلك الصراع المجنون بين الشرق والغرب. وإذا نجا البشر من هذا الصراع فإن الموارد التي يحتاجها البشر سوف تُدمر. وستذهب جهود الدول النامية أدراج الرياح. إنني أعتقد أن هدف السلام هو نفسه هدف البلاد العربية في أن تظهر إلى الوجود[5]. إنني مقتنع أن الأمل في السلام يرتكز على فهم الناس لحماقة الحرب الباردة.

1. كان رسل في هذه المرحلة يُخاطب العقل الجمعي، يُخاطب الشعوب والحكومات والأفراد المثقفين، بما في ذلك الحكومة البريطانية. ولعل عبارة «ضروري لنا جميعًا» تصيب المعنى كونها تحمل دلالة مطلقة.
2. Russell to Salah Dessouki, 3 Jan., 1963.(RPP).
3. Russell to President Gamal Abdel-Nasser and the People of the United Arab Republic, 3 Jan., 1963. (RPP).
4. يلفت النظر هنا أن رسل يعتبر «غياب العدالة» الدولية سببًا رئيسًا للعدوان الذي وقع من الدول الكبرى على الدول النامية، إذ يعتبر ذلك «إهانة للإنسانية جمعاء».
5. نلاحظ هنا أن مسار البحث عن السلام الذي تنشده مصر على أرض الواقع يتسق مع طبيعة الدعوة التي يتبناها رسل، فإذا كانت مصر تمارس الدعوة سياسيًا، كان رسل ينظر لذلك بما يُفيد نشر ثقافة السلام.

إنني أقدر للرئيس ناصر ولشعب مصر دورهم في التوسط بين الشرق والغرب، وفي مناسبة نصر 1956 أرى أن العمل من أجل السلام يستقر عندكم بفضل جهودكم.
(برتراند رسل)

لقد فتح دسوقي باب الحوار مع رسل، ربما بتكليف غير معلن من الرئيس جمال عبد الناصر. وتواصلت حوارات رسل مع أطراف مصرية أخرى، كلها تمثل توجهات القاهرة السياسية. ويأتي في مقدمة هؤلاء الدكتور إبراهيم حلمي عبد الرحمن مدير معهد التخطيط القومي، الذي فتح قناة أخرى للتواصل مع مساعدي رسل، ومع رسل نفسه من خلال مشروع «نقطة الانطلاق»، الذي اقترح فيه حملة لتدشين مؤسسة السلام[1]. وفي 19 يناير يواصل الدكتور إبراهيم حلمي عبد الرحمن حواره مع مساعدي رسل، مقدرًا تفاعلهم معه، فيقول: «أقدر رسالتكم في 3 يناير[2]، التي أشرتم فيها إلى المناقشة التي جرت بيننا أثناء وجودكم بالقاهرة». ثم يخبرهم بالرسالة التي تلقاها من رسل، والتي يُعبر فيها عن تقديره لوجهات النظر التي طرحها للمناقشة. ويُضيف عبد الرحمن إشارة إلى استطلاعه الموقف، وحرصه على تقديم رؤية: «إنني أنتظر الآن أن أتلقى التفاصيل الكاملة عن مشروع ميزانية السلام، التي سوف أدرسها جيدًا، وأكتب إليكم بملاحظاتي إن وجدت». كان الدكتور عبد الرحمن يتوقع ردًا سريعًا من مكتب رسل، لأنه كان يستعد للسفر إلى جنيف لمدة ثلاثة أسابيع اعتبارًا من يوم 4 فبراير، لحضور مؤتمر الأمم المتحدة عن «العلوم والتكنولوجيا وأثرها على الدول النامية»، وأنه سيرأس جلسة عن توظيف خطط التنمية[3]. وبالطبع سوف تكون هذه فرصة طيبة للقاء هذا التجمع الكبير من العلماء والاقتصاديين[4]. لم ينتظر مكتب رسل طويلا؛ ففي 31 يناير أرسل رالف إلى عبد الرحمن «دليل مؤسسة راسل للسلام»[5]، آملًا أن تُساند مصر هذه المؤسسة، وأن يبدأ مشروع «نقطة الانطلاق» الذي ولد في القاهرة. وأضاف: «وفي انتظار رأيكم في دليل المؤسسة وإمكانية إسهام مصر في الوصول إلى الأهداف التي حددناها. وأؤكد على أن المؤسسة شأن خاص حتى الآن، ونرغب في أن تبقى كذلك في هذه المرحلة. كما نرغب في أن نعرف دوركم في المؤتمر القادم في جنيف، ونأمل في أن يكون ناجحًا»[6].

صمتت الوثائق عمّا جرى خلال الأسابيع العشرة التالية، إلى أن قطع هذا الصمت رسالة من رسل إلى عبد الناصر في 8 أبريل 1963. تعكس الرسالة قلق رسل الشديد على السلام في الشرق الأوسط، وتكشف عن استثماره لما تحقق من تواصل مع محافظ القاهرة، ومع مدير معهد التخطيط القومي ليبني عليه، وليتعرف على توجهات الحكومة المصرية. ولعل أهم ما جاء في رسالة رسل، هو ذلك الذي يكشف عن إمكانية تطور الصراع بين العرب وإسرائيل وتورط القوى الكُبرى فيه، حين يقول:

«إنني أعبر عن قلقي فيما يجري في الشرق الأوسط. فالسباق النووي وسباق التسلح لن يكونا في صالح أحد، وأخشى ما أخشاه هو ألا يجد الإسرائيليون والعرب طريقًا لإنهاء هذه الحالة من السباق، وفي هذه الحالة ربما يحدث صدام يؤدي إلى تدخل قوى الحرب الباردة الكبرى لاستغلال هذا الأمر لتحقيق أهدافها، وربما يؤدي إلى دمار نووي. إنني آمل أن يكون في إمكان كل زعيم من زعماء الشرق الأوسط أن يُعلن عن رغبته في قبول الاعتراف بإشراف دولي وتحكم في

1. كان الدكتور إبراهيم حلمي عبد الرحمن مهتمًا بالسلام العالمي، ويظهر ذلك من ترجمته لكتاب إسكندر هادوا الموسوم: السلام العالمي في العصر الذري، المنشور من خلال دار النشر المتحدة عام 1956.

2. Russell to Salah Dessouki, 3 Jan., 1963.(RPP).

3. كان الدكتور إبراهيم حلمي عبد الرحمن أستاذًا في العلوم، وهو أول سكرتير عام لمجلس الوزراء المصري، وأول من وضع خطة خمسيه لمصر في عهد الثورة. حين أنشأ وزارة التخطيط القومي والمتابعة، وكان أول وزير فيها، فهو عالم في التخطيط والفلك والاقتصاد. عن سيرته انظر ما ورد عنه أعلاه.

4. I. H. Abdul Rahman to Ralph Sckobnman, 19 Jan.,1963.(RPP).

5. لم نعثر على هذا الدليل بين أوراق رسل الخاصة.

6. Russell to I. H. Abdul Rahman, 31 Jan., 1963.(RPP).

The Institute of National Planning

3, MOHAMED MAZHAR STREET - ZAMALEK

CAIRO - U.A.R.

OFFICE OF THE GENERAL DIRECTOR



File No. ....

Cairo, 19 January 1963

158 ENCL. —
20-1-1963
A.9

Mr. Ralph Schoenman
Mr. Nicholas Johnson
22 ARGYLL MANSIONS
KINGS ROAD,
London SW3

Dear Friends,

I beg to acknowledge receipt of your letter of January 3d, in which you referred in most generous terms to the discussion we had together during your short visit to Cairo. A few days later, I received a letter from the Earl Russell, expressing appreciation for the points of view mentioned in our discussion; such views which I consider to be really the outcome of our conversations, rather than being opinions of my own.

I am waiting now to receive fuller details about the project of the Peace Fund. I shall look into them very carefully and write back giving my remarks, if any. I am expecting to be out of Cairo for three weeks in February (starting from February 4) to attend a U.N. conference in Geneva on science and Technology and their applications for the benefit of the developing countries. I am invited to be chairman of the meeting dealing with the implementation of development plans. I find it a useful apportunity to meet a good gathering of scientists and economists. I hope to receive the documents about the Peace Fund before my departure. Please note the exact address indicated.

With my best wishes and sincerest thanks.

Yours Sincerely

I. H. Abdel-Rahman

I. H. Abdel-Rahman
General Director
Institute of National Planning

I. H. Abdul Rahman to Ralph Sckobnman, 19 Jan.,1963.(RPP).

كافة البرامج والخطط النووية، وفي نظام الصواريخ[1]. ويمكن أن يتم ذلك تحت إشراف الأمم المتحدة والقوى الكبرى، أو تحت إشراف أي تجمع دولي محايد بين العرب وإسرائيل. ولعل في إمكان الدول الإفريقية أن تتبنى هذا الأمر. إنني أخشى أن يتطور الأمر إلى نقطة اللاعودة، إذا لم تُتخذ خطوات في هذا الاتجاه». ويختتم رسل كلامه بالقول: «إنني أتوسل إليك أن توافق على مشروع الإشراف المقترح، والتحكم في الأمر في الوقت المناسب. وأتوجه أيضًا إلى الزعماء في الشرق الأوسط، بما في ذلك إسرائيل، أن يستثمروا هذه الفرصة لأجل مستقبل الإنسان على كوكبنا»[2].

عاد الصمت مرة أخرى إلى الحوار لنحو ستة أسابيع، دون وجود أية مؤشرات في أوراق رسل الخاصة إلى أسباب ذلك، إلى أن قطعه رسل برسالة منه إلى عبد الناصر في 17 مايو 1963، يذكره فيها بأنه «معني للغاية بالتطورات الأخيرة في الشرق الأوسط ورفاهية شعوب تلك المنطقة، وأنا أكتب الآن مشيرًا إلى وقائع محددة محل اهتمام حكومة إسرائيل، تتعلق بحق العودة للفلسطينيين من المهاجرين. وإنني حريص على استثمار الفرصة لأضع أمامك مقترحات ومعلومات محددة، وسأكون سعيدًا وممتنًا إذا كان في الإمكان استقبال ممثلي الشخصي، رالف سكوين مان، الذي سبق أن كان ضيفًا على صلاح دسوقي في ديسمبر الماضي. ولديّ كبير الأمل في أن يكون هناك حل عادل للنزاع بين العرب واليهود. كما آمل أن توافق على اقتراحي»[3].

وبعد أسبوع واحد عاد رسل للكتابة إلى عبد الناصر حول الموضوع نفسه، الحرب الباردة والشرق الأوسط، قائلا:

«إنني متشوق لأن أتلقى أفكارك بشأن تلك الاقتراحات، وإنني آمل أن أحقق شيئًا مهمًا يخدم السلام العالمي ورفاهية الأمة العربية. وإنني سوف أقدر استقبالك لممثليّ»[4]. قد تثير عبارة رسل هذه الريبة حول ما إذا كانت أفكار عبد الناصر حول السلام قد تلاقت مع رغبة الغرب في التعرف على جوهر نواياه، أم أن فتح خط بريدي للتواصل معه كان بعيدًا عن أن يستغل من العالم الغربي، خاصة وأن خطًا جديدًا للتواصل تم فتحه بعد نحو عام عبر السفارة المصرية في لندن.

هكذا ساد الصمت من جديد لمدة عام كامل، إذ لا تحتوي أوراق رسل على أي رد من الرئيس جمال عبد الناصر على مقترحات الأول بشأن السلام في الشرق الأوسط، كما لا توجد أية مراسلات مع محافظ القاهرة أو مع مدير معهد التخطيط القومي، عدا رسالة قصيرة غامضة من السفير المصري (محمد القوني)[5] في لندن في 31 مارس، يقول فيها إنه تلقى رسالة رسل في 24 مارس، وصورة من الخطاب الموجه إلى الرئيس ناصر، وأنه يرغب في أن يؤكد له أن الأمر تم إحالته إلى المسئولين في القاهرة، وأنه سيعاود الاتصال به حالما يتلقى ردًا من القاهرة.[6] وفي 9 أبريل كتب رسل إلى القوني رسالة أكثر غموضًا عبر له فيها عن انتظاره بشغف لتلك «المعلومات التي تتعلق بالموضوع الذي كتبت لك عنه»[7].

نشطت المراسلات من جديد خلال النصف الثاني من عام 1964، إذ كتب رسل إلى عبد الناصر «أكتب إليك معبرًا عن تأييدي لردك المعتدل تجاه التطورات المتعلقة بإسرائيل[8]

1. كتب رسل إلى الأمير فيصل بن عبد العزيز بهذا المعنى في ذات الوقت تقريبًا. انظر فهد السماري: «الملك فيصل بن عبد العزيز وبرتراند رسل»، مجلة الدارة، العدد2، (1429هـ)، ص 11- 24.
2. Russell to President Gamal Abdel - Nasser, 8 April, 1963. (RPP)..
3. Russell to President Gamal Abdel - Nasser, 17 May, 1963.(RPP).
4. Russell to President Gamal Abdel - Nasser, 25 May, 1963. (RPP).
5. يُعدّ السفير محمد عوض القوني واحدًا من أبرز الدبلوماسيين المصريين. خدم القوني في روما وواشنطن وبومباي والأمم المتحدة، ووزارة الخارجية، وموسكو، قبل أن يُعين سفيرًا في لندن عام 1961.
6. Ambassador M. El Kony to Lord Russell, 31 March 1964.(RPP).
7. Russell to M. El Kony, 9 April, 1964. (RPP).
8. كانت وسائل الإعلام تردد في ذلك الوقت أن عبد الناصر كان يعمل على إلقاء إسرائيل في البحر، فهل يكذب رغبته في السلام هذه المقولة؟

From: The Earl Russell, O.M., F.R.S.,

25 May 1963

President Gamal Abdel Nasser,
United Arab Republic,
Cairo, U.A.R.

Dear President Nasser,

I am writing to ask if it would be possible for you to receive two of my associates around July 2 for the purpose of conveying to you certain particular proposals concerning the Cold War and Middle Eastern Affairs. I am most anxious to have an opportunity to receiving your thoughts of these suggestions for, it is my hope, something of importance may be gained for the peace of the world and the welfare of the Arab nation.

I shall be deeply appreciative should you find it possible to receive my two associates.

With kind wishes and my respect,

Yours sincerely,

Bertrand Russell.



Russell to President Gamal Abdel - Nasser, 25 May, 1963. (RPP).

في الشرق الأوسط». وتعني هذه العبارة أن التواصل كان قائمًا بين عبد الناصر ورسل، ولكننا لم نجد دليلًا على ذلك بين أوراق رسل غير هذه العبارة، التي تعكس روح التفاهم بين مفكر وزعيم سياسي. وتؤكد على توجهات رسل الذي يقول: «إنني مهتم للغاية بالتوترات المتزايدة بين العرب ودولة إسرائيل والمعاناة المستمرة للمهجرين الفلسطينيين العرب. ولديَّ أسباب للاعتقاد بأن حكومة ليفي أشكول[1] الإسرائيلية سوف تجد طريقة لصياغة تصور مع الأمة العربية، يُمكن من خلالها تحقيق العدالة للمهجرين الفلسطينيين». ويتحول رسل عن لغة التعاطف الإنساني هذه إلى اقتراح حل رآه عمليًا، حين عبر عن رغبته في طرح سؤال على الرئيس عبد الناصر حول «ما إذا كان في الإمكان اتخاذ خطوة تؤدي إلى تسوية الأمور المهمة؟». وحول «ما إذا كان من الممكن إدارة قطاع غزة بوضعه تحت مسئولية الملك حسين، بحيث يُصبح القطاع جزءًا من المملكة الأردنية؟ خاصة وأن الأغلبية من سكان الأردن هم فلسطينيون في الأصل، وأن ما يُضاف إلى الأردن من فلسطينيي قطاع غزة سيجعل من المملكة الأردنية دولة فلسطينية عربية»[2]. هنا نرصد نقطة تحول جوهرية عند رسل الذي تجاوز دائرة الفكر إلى الدخول في دائرة الفعل، ليُصبح جزءًا من المشهد، لا مُنظرًا له فقط، بل فاعلًا فيه. ولولا أنه وجد تفاعلًا من عبد الناصر لما أقدم على هذه الخطوة الجريئة.

كان رسل مدركًا لصعوبة الإجابة التي يُمكن أن يتلقاها من عبد الناصر بشأن اقتراحه حول غزة، ولذلك نراه يتدارك ذلك على الفور قائلًا: «بالطبع هذا الأمر متروك للشعوب العربية كي تقرره، ولكننا نأمل في أن يكون هذا التشكيل مكونًا حقيقيًا لدولة عربية فلسطينية في المستقبل القريب[3]، وإن ذلك سيُمكن هذه الدولة التي تحمل اسم فلسطين من أن تضع مطالبها باسمها أمام الحكومة الإسرائيلية. وإنني آمل أن يُصلح هذا الأمر الأضرار التي لحقت بالمهجرين الفلسطينيين دون حدوث صدام مسلح». كان رسل مدركًا كذلك لحساسية الموضوع، فيُشير إلى أنه يضع هذا المقترح أو التصور في إطار «أقصى درجة من السرية». وفي الختام أشار إلى أن ضم قطاع غزة إلى الأردن لابد وأن يتم «بدعم من جامعة الدول العربية، وتحت إشرافها»[4].

كانت أحداث اليمن لا تزال في خلفية الصورة عند رسل، فكتب مقالًا يعتزم نشره على نطاق واسع في الغرب، أرسل نسخة منه إلى محمد حسنين هيكل، آملًا أن ينشره في جريدة «الأهرام»، ووعد في 20 أغسطس 1964 بأن يرسل صورة منه إلى صلاح دسوقي محافظ القاهرة.[5] علم كمال رفعت[6] أمين عام الاتحاد الاشتراكي العربي بأمر المقال، الذي لم ينشره الأهرام على ما يبدو، وطلب من رسل نسخة منه، فأرسله إليه في 23 سبتمبر.[7] وبعد أسبوع أرسل نسخة أخرى من المقال نفسه إلى الرئيس عبد الناصر، مشيرًا إلى النسخة التي أرسلها إلى كمال رفعت، بناء على طلبه، لينشره في مجلة «الكاتب»[8].

1. كان ليفي أشكول L. Eshkol ذي الأصل الأوكراني هو ثالث رئيس وزراء في إسرائيل (1963-1969) مات وهو في الحكم بالسكتة القلبية.
2. Russell to Nasser, 30 June, 1964. (RPP).
3. حول موضوع تقسيم فلسطين انظر ثلاث دراسات لجمال محمود حجر: الأولى بعنوان: «أصول فكرة تقسيم فلسطين وموقف مصر منها»، في كتاب عادل حسن غنيم (محرر): **موسوعة مصر والقضية الفلسطينية**، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2013)، المجلد الثاني، ص 25-70؛ والثانية بعنوان: «تقسيم فلسطين عام 1937 وموقف مصر منه»، ص 71-116؛ والثالثة بعنوان: «تقسيم فلسطين 1947 وموقف مصر منه»، ص 117-151.
4. Russell to Nasser, 30 June, 1964. (RPP).
5. Russell to Salah Dessouki, 20 Aug., 1964.(RPP).
6. كمال الدين رفعت (1921-1977) أحد أعضاء تنظيم الضباط الأحرار، شارك في حرب فلسطين 1948، وعمل بالمخابرات الحربية بعد ثورة يوليو 1952، كان صاحب دور قومي عربي نشط طوال حياته. له دور ملحوظ في قيام الجمهورية العربية المتحدة. كان أول وزير للعمل لمدة عام واحد (1961-1962) وارتبط ذلك بصدور القرارات الاشتراكية عام 1961. تولى إنشاء المجلس الأعلى للبحث العلمي خلال فترة عمله نائبًا لرئيس الوزراء للتعليم العالي والبحث العلمي عام 1964. صاحب توجهات اشتراكية، وسعى لتأسيس المنبر الاشتراكي الناصري الذي رفضه السادات.
7. Russell to Kamal Riffat, 23 Sept., 1964.(RPP).
8. Russell to Nasser, 30 Sept., 1964.(RPP).

EMBASSY OF THE
UNITED ARAB REPUBLIC

31st March, 1964.

Dear Lord Russell,

I beg to ackrowledge receipt of your letter dated the 24th March, 1964 and the copy of your letterto President Nasser.

I wish to inform you that I have referred the matter to the competent authorities in Cairo and will not fail to contact you as soon as I receive a reply.

Yours sincerely,

M. El Kony

Ambassador

The Earl Russell, O.M., F.R.S.,
Plas Penrhyn,
Penrhyndeudraeth,
Merionethshire.

Ambassador M. El Kony to Lord Russell, 31 March 1964.(RPP).

في ضوء هذه الخطابات والحوارات المتبادلة، يظهر جليًا أن كلًا من جمال عبد الناصر وبرتراند رسل كان مهمومًا بقضية السلام، كلٌّ بطريقته، إلى أن تلاقت الأفكار وتوحدت الهموم. كان القاسم المشترك بينهما هو سعي كل منهما لرؤية السلام واقعًا ملموسًا لكل الأطراف، وفى كل مناطق الصراع المتأججة بنيران أعداء السلام.

وقد يكون من المناسب، استكمالا للصورة، أن أشير هنا إلى زيارة الفيلسوفين جان بول سارتر وسيمون دي بوفوار لمصر معًا، بدعوة من عبد الناصر في ربيع 1967 قبيل الحرب العربية الإسرائيلية، جريًا على توجهاته في توظيف القوى الناعمة في تحقيق السلام. فقد كانت مصر في ذلك الوقت في حاجة ماسة إلى أن يُساندها أولئك المثقفون الأوروبيون، وسط ركام من المعارك المباشرة السياسية والعسكرية التي كانت تخوضها. كان من الواضح فيه أن ثمة حربًا جديدة بين العرب وإسرائيل تلوح في الأفق. غير أن ذروة ذلك كله كانت، بالطبع، زيارة سارتر وسيمون إلى الرئيس عبد الناصر في بيته، حيث جرى بينهم حوار امتد لنحو ثلاث ساعات. أشار فيه عبد الناصر إلى أن قراء سارتر في العالم العربي كثيرون، يتابعون كتبه ويتأثرون بأفكاره، وأنه هو شخصيًا قرأ العديد من مؤلفاته ذات المضمون السياسي، مثنيًا على وقوف الفيلسوف إلى جانب العالم الثالث، ومثنيًا كذلك على كتابات سيمون حول المرأة والقضايا الاجتماعية .كان اللقاء طويلًا ومفيدًا. قال سارتر بعده إنه كان شديد التأثر بدفء اللقاء الذي جمعه وجمال عبد الناصر، إذ اكتشف فيه «زعيمًا فطنًا، صائبًا وبعيد النظر».

كان سارتر وسيمون نافعين لمساندة الموقف المصري، رغم أنهما كانا معروفين بمناصرتهما لإسرائيل. من هنا اعتبرت زيارتهما لمصر تاريخية. فقد عبر سارتر، بعد زيارته إسرائيل قادمًا من مصر، عن تفهمه للمواقف المصرية، وأبدى شيئًا من العتب على إسرائيل. وتجلى ذلك في عدد ضخم من مجلة «الأزمنة الحديثة»، التي تعنى بأفكارهما. ولوحظ أن ذلك العدد التاريخي جاء محايدًا على غير ما هو مألوف، وكتب فيه كثير من مؤيدي الحق العربي أكثر مما فعل مؤيدو الحق الصهيوني، من دون قيد أو شرط[1]. وكان للإسكندرية وكلية الآداب جامعة الإسكندرية حظًا من تلك الزيارة، فقد كنت طالبا بها وقتئذ، واستمعت إلى محاضرتيهما في مدرج العبادي بالكلية. ولعل تواصل عبد الناصر وسارتر يؤكد على مدى حرصهما على السلام، الذي كان متواريًا وراء توجهات ناصر الثورية والقومية، ولكنه هنا كان يشكل جوهر سياسته غير المعلنة.

1. «سارتر ودي بوفوار يلتقيان عبد الناصر في القاهرة»، **جريدة الحياة**، (14 مارس 2000)؛ انظر: إبراهيم العريس: «ذاكرة القرن العشرين»، (14 مارس 1967).



AL-AHRAM Establishment

14, NAZLOUM STREET
CAIRO. U.A.R.

TÉL. 46464
Cables: AHRAM - CAIRO

Earl Bertrand Russell
Bertrand Russell Peace Foundation
3&4 Shavers Place
Haymarket
London SW1

16 August 1965

Dear Earl Russell,

I am writing to you to confirm that the United Arab Republic has agreed definitely and wholeheartedly to the request made by your foundation for opening an office in Cairo. The U.A.R. is also willing to accord the foundation all material and moral support to carry out its great peaceful activities.

I am sorry this letter is delayed in reaching you; due to my overcrowded schedule which kept me away from Cairo several times.

I hope that you will write to me to inform me of how contacts should be made in connection with the establishing of the office in Cairo.

I also seize the opportunity to express my admiration for the constructive activity and the great efforts you are pursuing personally, and through your foundation for the cause of world peace.

With my kindest regards.

Yours sincerely,
Mohamed H. Heikal
Mohamed H. Heikal

Mohamed H. Heikal to Earl Bertrand Russell, 16 Aug. 1965.(RPP).

خاتمة

بدا رسل من خلال كتاباته شخصًا متسقًا مع نفسه، فالفلسفة تُطهر الإنسان، وتُعلي من القيم الإنسانية. ورغم ذلك عاش رسل في عالم يتسم بالمتناقضات، فبينما وجد نفسه في عالم الفكر والإبداع، وجد نفسه كذلك يعيش واقعًا لا يستطيع أن يُغيره. ومع ذلك استطاع أن يجمع في شخصه الشرق والغرب معًا، فرفض مبدأ التصنيف، وعاش مع الفلسفة والإنسان؛ حيث يكون الوطن للجميع. ولذلك رفض الحرب وسباق التسلح أو التهديد به، ورفض فكرة القومية باعتبارها شكلًا من أشكال الاستقطاب والعنصرية، وهنا اختلف مع جوهر أيديولوجية عبد الناصر. ورفض الاستعمار وسياساته، واعتبر حكومة بلاده حكومة فاسدة. وكان حريصًا على الربط بين الفكر والسياسة، ليستنير السياسيون ويصنعوا قرارات صائبة. فكانت المحصلة مزيدًا من الانتشار بين الناس في الشرق والغرب، فحصد الجوائز، واُحتفيَ به مفكرًا ومبدعًا وإنسانًا. ولكن هل استطاع رسل أن يخدم بلاده من خلال دعوته للسلام؟ وهل كان تواصل عبد الناصر معه حدثًا استثنائيًا؟

أما عبد الناصر، الذي كان حضوره ماثلًا، ووعيه مدركًا لأهمية استخدام القوة الناعمة للتأثير في الرأي العام في العالم على اتساعه شرقه وغربه، فكان يتحرك وفقًا لاستراتيجية تسعى إلى تقديم ثقافة تحمل قيم ومفاهيم الثورة والدعوة للحرية والوحدة والقومية. وكان على وعي بأن إحداث أي تغيير اجتماعي، إنما يتطلب إنتاج ثقافة بديلة، تقف في وجه القوى الاستعمارية الغربية، التي كانت تُشكّل حائط صد لكل محاولات السلام، التي لا تتناغم مع مصالحها، ثقافة تقف في وجه الهيمنة الغربية عن طريق استخدام قنوات القوى الناعمة في إحداث التأثير على الغرب بأدواته ومن داخله، من خلال مفكرين وكتاب كبار من أمثال برتراند رسل، وجان بول سارتر، وسيمون دي بوفوار؛ لخلق هيمنة ثقافية بديلة، تُرسي دعائم السلام القائم على الحرية والوحدة، لا على العبودية والانقسام. ويعكس تواصله على هذا النحو مع المفكرين الغربيين دراية عميقة بقوة المجتمعات الغربية التي تُحرك حكوماتها وتراقبها، على غير ما هو مألوف في الشرق.

كان عبد الناصر على وعي بأن الصراع المستقبلي سيكون صراع أفكار، وأن الغرب يبذر بذرة الصراع الجديد المتمثل في استخدام سلاح المفكرين في الترويج لنظام عالمي جديد، والحكم على التاريخ بنهايته على أعتاب العولمة، وهيمنة القطبية الأحادية، وربما استبق إلى المستقبل الذي لم يُدركه.

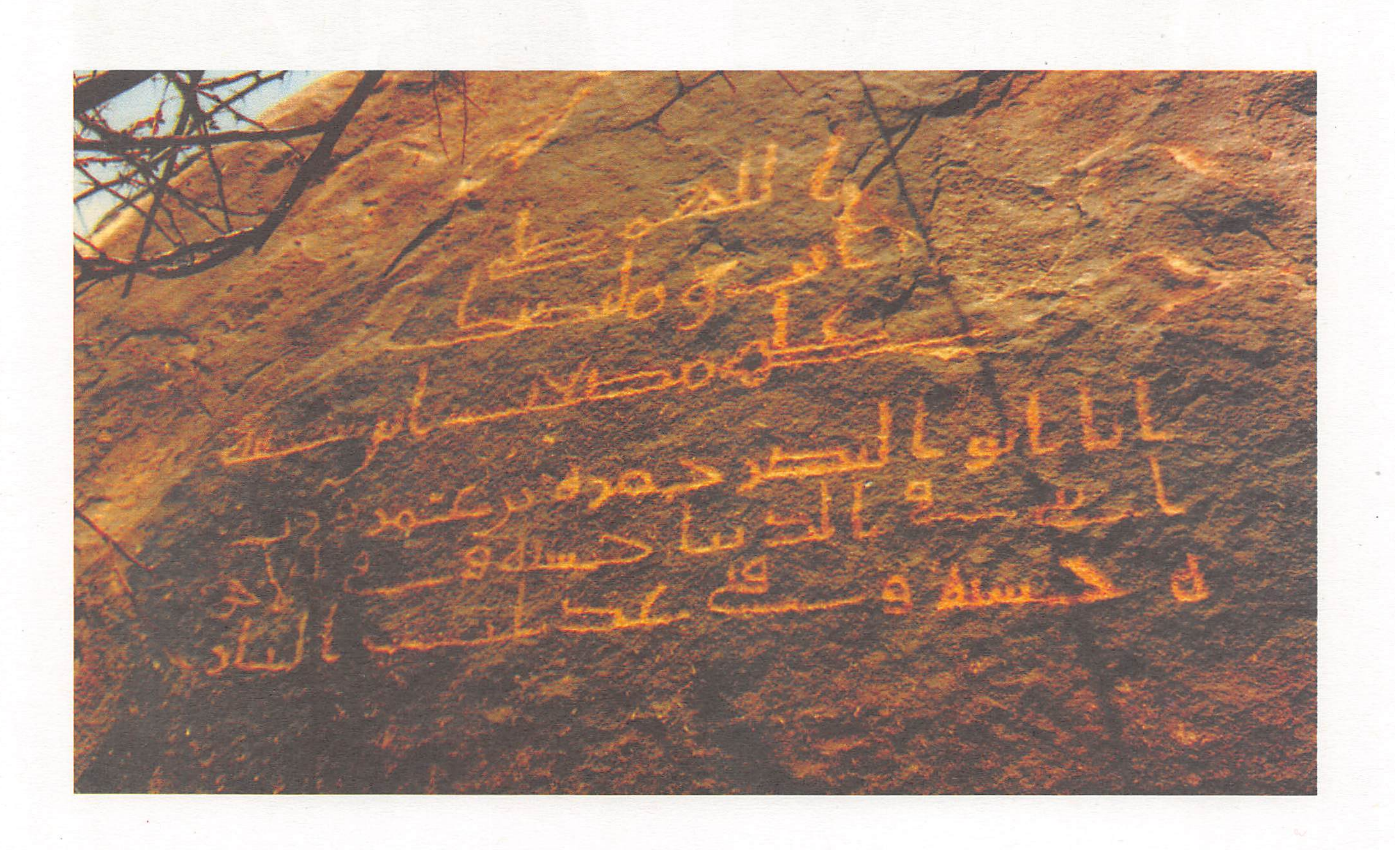
وتكشف مراسلات عبد الناصر - رسل عن كثير مما كان غير متوقع، فهي تعكس دهاءً سياسيًا لزعيم يخلق لنفسه أدوات يستخدمها في الوصول إلى أهدافه، دون أن يورط نفسه بالتدخل المباشر، أو عبر وسيط، فحفظ لنفسه هيبتها، ولم يكشف عن كل أوراقه. هذا رغم أنها ساعدتنا في التعرف على فكر زعيم سياسي، ودور مفكر فيلسوف. وتثير المراسلات الرغبة في الحصول على المزيد من الأوراق الخاصة بأطراف أخرى في المشهد السياسي، لتوضح الرؤية في النفق المظلم.

ولم يرصد الباحث أن أيًا من مساعدي عبد الناصر، الذين ورد ذكرهم هنا تحدث عن نفسه أو موقعه. وإنما تحدثوا عن مصر في ماضيها وحاضرها وحضارتها، فتناغمت روحهم الوطنية مع روح عبد الناصر، كما تناغمت مع جوهر فكر السلام عند كل من رسل وعبد الناصر.

ترى هل كان الحوار بين الرجلين عن السلام حوارًا بين فيلسوف وسياسي؟ أم أنه كان حوارًا مجردًا بين طرفين يبحثان عن السلام التائه في دهاليز الشرق الأوسط؟ أم أن الحوار كان مجرد تبادل للخبرات الفلسفية والواقعية؟. المتأمل للواقع الذي نعيشه اليوم يُدرك في يُسر أن البحث عن السلام لا يزال جاريًا من جانب السياسيين. أما الفلاسفة والمؤرخون والمنظرون فيرونه رأي العين، إذا ما أخلص السياسيون النوايا. ترى هل يُمكن أن ترى المنطقة سلامًا بعد نصف قرن من وفاة كلٍ من الفيلسوف والسياسي في عام 1970؟


جان بول سارتر


سيمون دي بوفوار



صور أدبية من خلال الشواهد الأثرية

في جزيرة العرب قبل الإسلام



أ.د. يوسف محمد عبد الله

أستاذ الآثار واللغات القديمة قسم الآثار

تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1967, وحصل على درجة الدكتوراه جامعة توبنجن بألمانيا في عام 1975، ويعمل أستاذًا للآثار والنقوش بجامعة صنعاء، وعمل رئيسًا للهيئة العامة للآثار والمتاحف والمخطوطات في عام 1995. ونشر عشرات الأبحاث العلمية، التي تتجاوز المئة باللغات العربية والإنجليزية والألمانية في المجلات العلمية العربية والدولية، ويحمل وسام المؤرخين العرب لعام 1987، وحصل على وسام العلوم والآداب من الدرجة الأولى في اليمن عام 1989، وبرز اسمه في قائمة المميزين بين علماء العالم "مجلة كوسموس" في عام 2002، وحاز على جائزة الأغا خان المعمارية الدولية في دورتها لعام 2004.

جميع الصور الواردة في هذا المقال من اختيار الكاتب

دلت الاكتشافات الأثرية الحديثة على وجود صور أدبية مدونة على الحجارة أو على الصخور أو على الخشب؛ مما يُلقي أضواء جديدة على ما عُرف بالأدب الجاهلي، لتمتد رقعته لتشمل معظم جزيرة العرب. وتتجاوز هذه الاكتشافات الأثرية الجديدة قضية الشك في الشعر الجاهلي؛ لكونه لم يصلنا مدونًا؛ فهي نصوص ماثلة أمام أعيننا على المادة التي دونت بها إلى اليوم.

قالوا قديمًا «الشعر ديوان العرب»، ويعنون بذلك الصور الأدبية التي وصلت مروية إلى عهد التدوين، على أن الاكتشافات الأثرية الحديثة دلت على أنه كانت هناك صور أدبية مدونة على الحجارة أو على الصخور أو على الخشب، مما يُلقي أضواء جديدة على ما عُرف بالأدب الجاهلي؛ لتمتد رقعته لتشمل معظم جزيرة العرب، وفترة ما قبل الشعرالجاهلي.

إن هذه الاكتشافات الأثرية الجديدة تتجاوز قضية الشك في الشعر الجاهلي؛ لكونه لم يصلنا مدونًا فالشواهد الأثرية التي عُثر عليها تدل على تدوين الأدب والشعر قديمًا؛ فهي نصوص ماثلة أمام أعيننا على المادة التي دونت بها إلى اليوم.

قبل حوالي تسعين عامًا (أي في عام 1926) أثار الدكتور طه حسين ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية والفكرية حينما قال في كتابه «في الشعر الجاهلي»[1]: «ذلك أن الكثرة المطلقة مِمَّا نُسميه شعرًا جاهليًا ليست من الجاهلية في شيء، وإنما منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام». وأن الشعر الجاهلي في مُجمله بعيد كل البعد من أن يمثل اللغة العربية في العصر، الذي يزعم الرواة أنه قيل فيه[2]. وقد شكك طه حسين في شعر شعراء مشهورين مثل: امرئ القيس، والأعشى، وزهير، وأمية بن أبي الصلت، وعبيد بن الأبرص... خاصة وأن شعرهم لم يدون كتابة؛ وإنما وصل إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي عن طريق الرواية الشفهية والحفظ.

وكان الدكتور طه حسين قد استند في رأيه هذا إلى رأي بعض المستشرقين مثل (مرجليوث) الذي كان من أوائل من أثاروا الشك في الشعر الجاهلي، وأنكروا أن يكون قد دون وحفظ بالكتابة واستبعدوا لذلك أن يكون الشعر الجاهلي قد حفظ بالرواية الشفهية، وتمّ نقله نقلًا سليمًا في ذاكرة الرواة حتى القرن الثالث الهجري.

والقول بأن الرواية الشفهية كانت الوسيلة الأساسية إن لم تكن الوحيدة التي تم بواسطتها نقل الشعر الجاهلي من الأقوال السائدة بين العلماء والرواة الذين قاموا بجمع الشعر

1. طه حسين: **في الشعر الجاهلي**، (سوسة: دار المعارف للطباعة، 1997)، ص 19.
2. **المرجع السابق**، ص 36.

وتدوينه في جمهرات، وطبقات منذ القرن الثالث الهجري. فقد أورد ابن سلام في طبقاته على سبيل المثال، قول عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه»، ثم علّق على ذلك بقوله: «فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، وَلَهَتْ عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مُدَوَّن ولا كتاب مكتوب، وألْفوا ذلك، وقد هلك من العرب مَنْ هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير».

ولكن رأي طه حسين قوبل بمعارضة شديدة في حينها، كما أنه لم يصمد في مُجمله طويلًا، إذ تكاثرت الأدلة التي تثبت صحة كثير من الشعر الجاهلي الذي وصلنا، والتي تدل على أن الرواية الشفهية لم تكن المصدر الوحيد، وإنما كانت تسير جنبًا إلى جنبٍ مع الكتابة والتدوين بحيث لا ينفي وجود أحدهما الآخر. ومن تلك الأدلة، على سبيل المثال، ما ورد عن أبي تمام (ت 231هـ/ 845م)، حينما أعاقه الثلج عن السفر، وكان في العراق فاستضافه أبو الوفاء بن سلمة، وأحضره خزانة كتبه فطالعها واشتغل بها، وصنف خمسة كُتب في الشعر منها كتاب الحماسة والوحشيات. أو قول الأصمعي (ت 216هـ/ 1831م) إنه قرأ شعر الشنفرى على الشافعي بمكة، وقرأ على أبي عمرو بن العلاء شعر النابغة الذبياني، وشعر الحطيئة. كما يذكرون أن أبا عمرو الشيباني (ت 213هـ/ 828م) كان يكتب الشعر والأخبار، ويأخذها من الكتب وغير ذلك من الأقوال التي تذكر أن أولئك العلماء والرواة قد صنعوا تلك الدواوين والمجموعات المختارة من أشعار الجاهلية استنادًا إلى دواوين كانت مكتوبة قبل عصرهم، بالإضافة إلى ما أخذوه بالرواية الشفهية.

ومع ذلك ظل باب العلم مفتوحًا، وتركت آراء طه حسين تأثيرها، إذ إن تزايد الأدلة الأدبية والتاريخية والأثرية وإن كانت قد أضعفت مُجمل آرائه إلا أنها لم تقطع بالحجة، فلا يُعلم إلى اليوم علم اليقين ما إذا كان الشعر الجاهلي كما وصلنا من الرواة جاهليًا كله، وحتى إذا ثبتت جاهليته فهل صحت نسبته أم أن فيه شعرًا منحولًا أو موضوعًا في القرون الأولى للهجرة. وقد أسهمت الاكتشافات الأثرية، وخاصة الكتابية منها، في توضيح الصورة، فأثبتت مثلًا أن دولة كندة كان لها دهران، دهرها الأول في عالية نجد في القرون الأولى للميلاد، ودهرها الثاني عندما تولت عائلة معاوية الأكرمين حكم قبائل معد في نجد كدولة ضابطة لحركات البدو في وسط الجزيرة لصالح الدولة الحميرية في القرن الخامس الميلادي والسادس[1]؛ ليكون واضحًا أن آخر حكام كندة الذي حاول استعادة الملك أو استمراره كان الشاعر الجاهلي المشهور امرأ القيس بن حجر[2]، والذي كتب شعره بلغة نجد والحجاز، اللغة العربية المحضة، لأنه عاش في نجد وبين القبائل المعدية.

أما قبيلة كندة فمعظمها بقي في أماكنها، أي بين وادي العبر ووادي دوعن في حضرموت التي استقرت فيها بعد خروجها مع قبائل مذحج من نجد في القرن الرابع الميلادي. ولم يعد منها إلى نجد إلا القليل عندما أقام الحميريون سادة كندة ملوكًا على اتحاد قبائل معد في وسط الجزيرة. وإذا صح أن امرأ القيس قد توفي في أواخر الثلث الأول من القرن السادس الميلادي، فإنه قد عاش في فترة قد تبدت فيها القبائل اليمنية في التخوم الصحراوية، ولم يعد من اللغة الحميرية إلا جيوب منتشرة في النطاق الجبلي المستقر، أو نصوص النقوش الرسمية التي استمرت باللغة الحميرية حتى منتصف القرن السادس، ومثال ذلك نقش أبرهة الذي دون عام 542 ميلادي، أي في العام الذي توفي فيه امرؤ القيس[3].

ولا أظن أن ما ذكره طه حسين صوابًا عندما قال: «وأكبر الظن أنها (أي لغة قريش) لم تكن لغة العرب في ذلك الوقت، وإنما أخذت تسود في أواسط القرن السادس للمسيح»[4].

1. يوسف محمد عبد الله: **أوراق في تاريخ اليمن وآثاره، بحوث ومقالات**، (بيروت: دار الفكر المعاصر، 1990)، ص 265.
2. عبد الرحمن الطيب الأنصاري: **قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام في المملكة العربية السعودية**، (الرياض: جامعة الملك سعود، 1982)، ص 23.
3. نقش أبرهة (CIH541).
4. طه حسين: **مرجع سابق**، ص 154.

والمقصود بلغة قريش هنا لغة نجد والحجاز، أو لغة بدو وسط جزيرة العرب. فقد انحسرت اللغة اليمنية القديمة في كثير من أطراف جنوب الجزيرة قبل ذلك بقرون طويلة. وقد دلت النقوش التي عُثر عليها في (قرية الفاو) بوادي الدواسر (حوالي: القرنين الثاني والثالث الميلاديين) على وجود لهجة خليط من كلام عرب الجنوب، وعرب الشمال. يقول الدكتور الأنصاري: «وإذا كان سكان قرية (الفاو) قد كتبوا بقلم الجنوب فإنهم لم يُعبروا عن أفكارهم بلغة الجنوب فقط، وإنما كانت لغتهم مزيجًا من لغة الشمال والجنوب»[1].

وغلبت خصائص اللغة العربية الشمالية على لغة البداوة في النقوش العربية القديمة، وهي اللغة التي زامنت اللغة اليمنية القديمة دهورًا من دون تدوين يُذكر، ثم دُونت في النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية.... وبرزت ولأول مرة وبصيغة واضحة في نقش النمارة في القرن الرابع الميلادي (لغة وخطًا).

وفي القرن السادس الميلادي ظهرت في أسواق العرب كلغة أدبية، ثم لم تلبث أن تجلّت بشكلها الراقي البديع في كتاب الله عز وجل عند بزوغ فجر الإسلام. ويُلاحظ مثل هذا الخليط اللغوي من ناحية أخرى في النقوش التي كُتبت بالقلم السرياني، أو النبطي، والتي عُثر عليها في أطراف مراكز حضارة بلاد الشام في شمال الجزيرة. وقد كانت العربية الفصحى (لغة بدو الجزيرة) موجودة منذ ما قبل الإسلام بقرون في تخوم المناطق الحضارية لبلاد اليمن وبلاد الشام وفي وسط الجزيرة. وكانت بعد ذلك لغة تكويناتهم السياسية واتحاداتهم القبلية، عُرفت بعد ذلك لدى الدولة اللخمية في أطراف العراق، ودولة الغساسنة في أطراف بلاد الشام، ودولة كندة في أطراف بلاد اليمن. وهي المراكز نفسها التي عرفت في القرن السادس الميلادي شُعراء الجاهلية المشهورين مثل: عدي بن زيد، وطرفة بن العبد، وعمرو بن كلثوم، وامرئ القيس[2].

وقد تساءل طه حسين كيف نظم الشاعر اليمني امرؤ القيس شعره في لغة أهل الحجاز، بل في لغة قريش خاصة؟ وذكر أنهم سيقولون إنه نشأ في قبائل عدن، وكان أبوه ملكًا على بني أسد، وكانت أمه من بني تغلب، وكان مهلهل خاله، فليس غريبًا أن يصطنع لغة عدنان، ويعدل عن لغة اليمن، فمهما يكن امرؤ القيس قد تأثر بلغة عدنان فكيف نستطيع أن نتصور أن لغته الأولى قد مُحيت من نفسه محوًا تامًا، ولم يظهر لها أثر ما في شعره؟ ثم يقول: «نظن أن أنصار القديم سيجدون كثيرًا من المشقة والعناء ليحلوا هذه المشكلة. ونظن أن إضافة هذا الشعر إلى امرئ القيس مستحيلة قبل أن تحل هذه المشكلة»[3]. وقد أصبح واضحًا بعد الاكتشافات الأثرية والنقشية، كما سبق القول، أنه كان لكندة ملك في نجد في القرون الأولى بعد الميلاد، وأن كنده قد هاجرت، أو هُجّرت، منذ القرن الرابع إلى مواطن كنده بين وادي العبر ووادي دوعن في حضرموت، وأن ملوك حمير ولوا على قبائل معد في القرن الخامس الميلادي عائلة معاوية الأكرمين الكندية، وأن الشاعر امرئ القيس كان آخر ملوك هذه العائلة. فقبيلة كنده يمنية، ولكنها مثل قبائل مذحج تغلب عليهم البداوة، وكانت مواطنها في نجد؛ حيث تضعف الحميرية، وإن كانت يومًا ما لغة الكتابة. وحينما استوطنت كنده أطراف حضرموت كانت تلك المناطق الواقعة في أطراف الصحراء قد تبدّت كثيرًا، وتتحدث بلغة عربية تُقارب تلك التي يتحدث بها بدو نجد الحجاز آنذاك. كما أنه لا يُمكن أن تظل أسرة معاوية الأكرمين الكندية تحكم قبائل معد في وسط الجزيرة حوالي قرن من الزمن، وتقيم في تلك المواطن دون أن تطغى لغة معد على ما بقى من كلام حمير لديها (إن بقي حقًا شيء من ذلك).

وفي القرن العاشر الميلادي/ الرابع الهجري يرسم الحسن بن أحمد الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب خارطة للغات أهل الجزيرة تعكس حالة عصره، ولكنها قد تومئ إلى ما كانت عليه الحال قبل الإسلام أيضًا، حيث يُستدل من وصف الهمداني: «أن الحضر في الجبال اليمنية كانوا يتكلمون الحميرية، وأن

1. عبد الرحمن الطيب الأنصاري: **مرجع سابق**، ص 23.
2. يوسف محمد عبد الله: **مرجع سابق**، ص 292، 293.
3. طه حسين: **مرجع سابق**، ص 155.

البدو كانوا يتكلمون العربية الصحيحة». ويقول عن حضرموت مثلًا: «حضرموت ليسوا بفصحاء، وربما كان فيهم الفصيح، وأفصحهم كنده، وهمدان، وبعض الصدف[1]»... كما يُشير إلى أن قبائل مذحج فصحاء، ولهذا فمن الممكن أن يقول بعض شعراء القبائل البدوية اليمنية شعرًا باللغة العربية المحضة في تلك الفترة فضلاً عن امرئ القيس، الذي عاش في بلاط ملك كنده في نجد، وإن كان قد تردد كثيرًا على مواطن عشيرته في دمون، وعندل بحضرموت.

ولكن يبقى السؤال: هل لدينا شواهد كتابية تدل على تدوين الشعر الجاهلي قبل الإسلام في القرن السادس الميلادي، أو بعد الإسلام في القرن السابع وأوائل الثامن أي القرن الأول الهجري، حتى نطمئن إلى أن الرواية الشفهية لم تكن وسيلة النقل الوحيدة للشعر الجاهلي الذي دون وجمع في القرن الثالث الهجري؟ وهل هناك شواهد كتابية، والمقصود بذلك آثار منقوشة، لبعض شعر أهل اليمن باللغة العربية، من الفترة نفسها؟

يُستفاد من دراسة النقوش القديمة التي عُثر عليها في الجزيرة العربية أنها قد كتبت جميعها وفق نظام الأبجدية وعدد حروفها الكاملة تسعة وعشرون حرفًا. ويُمكن أن تصنف خطوطه إلى فئتين الأولى مجموعة الخطوط التذكارية المنسقة والمحسنة، التي يُعتنى بنقشها على الحجارة والصخور أو المعادن ولا ينفذها إلا كُتاب مهرة كما يتمثل ذلك في نقوش المسند السبئية، والثانية مجموعة الخطوط التي لا يُعتنى بنقشها، وفي كتابتها خفة وتكسير، ويُمكن أن ينقشها على الحجارة والصخور كل من تعلم قدرًا من القراءة والكتابة، ودون أي إتقان، فهي أقرب ما تكون إلى «المخربشات Graffiti» أو الكتابات غير المجودة. وقد جرت العادة على تقسيم هذه الكتابات اللينة إلى ثلاث مجموعات رئيسة هي النقوش الصفوية، ومجموعة النقوش الثمودية، ومجموعة النقوش اللحيانية. وقد يُضيف بعضهم مجموعة النقوش التيمائية والديدانية والإحسائية.

وغني عن القول إن ما يُميز هذه النقوش ليس محتوى كتاباتها فحسب، وإنما اختلافات واضحة في رسم حروفها أيضًا، كما أنها في الوقت نفسه قريبة الشبه من خط المسند التذكاري، ولا تكاد تُخالفه إلا قليلًا.

وإذا كانت هذه المخربشات أو الكتابات غير المجّودة بأنواعها هي كتابات عرب شمال جزيرة العرب إجمالًا التي قد دونت بعربية قريبة الشبه بالعربية الفصحى التي تجلّت بعد ذلك في أروع صورها في لغة التنزيل، فإن النقوش التذكارية المكتوبة بخط المسند قد كتبت إجمالًا بلغة عربية عتيقة يجوز أن نُسميها باللغة السبئية.

وتُسمى في كتاب الأخبار والتاريخ بكلام حمير أو لسان حمير، وهي لغة ميتة انقطعت هي وخطها عن الاستعمال قبل الإسلام. وقد عثر على معظم هذه النقوش في اليمن، وعُثر على عدد وافر منها في حفريات قرية الفاو وفي العلا. وبلغ ما نُشر منها الآلاف، على تفاوت في الحجم، فمنها ما هو قصير لا يتجاوز بعض الكلمات، ومنها ما هو طويل قد يبلغ ألف كلمة أو أكثر. ولهذه النقوش التذكارية فضل كبير في صياغة الصورة التاريخية القديمة لبلاد اليمن خاصة والجزيرة العربية عامة.

ويُستدل مما توفر من هذه النقوش، أن أقدم هذه النقوش يعود تاريخها إلى حوالي الألف الثامن قبل الميلاد. بل إن بعض الدراسات الأحدث يرجع تاريخها إلى أقدم من ذلك، ودام استخدامها زمنًا يُقارب الخمسة عشر قرنًا، وتؤرخ أحدث تلك النقوش إلى حوالي منتصف القرن السادس الميلادي، واصطلح اليوم على تسميتها عمومًا بالنقوش السبئية.

وفي السنوات الأخيرة عُثر في اليمن على نوع جديد من الكتابات المنقوشة على عيدان الخشب أو عسب النخيل، وقليل منها على الحجر وتبين بعد حل رموزها، وبعد دراسة نماذج من محتويات هذه النقوش[2] أنها تُعنى بالدرجة الأولى

1. الحسن يعقوب الهمداني: **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع، (بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1989)، ص 277.

2. Abdullah, Y, Ryckmans, J. and Müller, W: **Texes de Yemen Antique Inscrits Sur Bois, Institute Orientalist**, (Louvain-La- Neuve, 1994), pp. 7, 8.

بالمراسلات والمعاملات اليومية، أما من حيث خطها فهي مكتوبة بخط سريع مكسر مشتق من خط المسند التذكاري وبعض حروفه تشابه بعض حروف خطوط المخربشات السالفة الذكر مما يؤكد اشتقاقها أيضًا من خط المسند.

ويُلاحظ أن بعض النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية تحوي قرائن دالة على تاريخها المتأخر بخط المسند ومنها نقش مكتوب بالخط الثمودي والخط النبطي يعود تأريخه إلى حوالي 267م.

وهناك فئة ثالثة من النقوش العربية التي عُثر عليها عمومًا في شمال الجزيرة العربية ووسطها وهي ما نسميها بالنقوش العربية، وهي مدونة بكتابة تُمثل الأصل المباشر للخط العربي المعروف. ويستبعد الباحثون الاشتقاق المباشر للخط العربي من الخط المسند، فلدى مقارنته بخط المسند المكسر المنقوش على الخشب، والذي يحمل إمكان وصل الحروف يتضح بعد الشقة بين أشكال حروف هذا الخط، وأشكال حروف النقوش العربية المبكرة، مثل خط نقش النمارة (شكل 2) ونقش أم الجمال وغيرها. وهذا لا يعني في نهاية الأمر أن المرء يستبعد الأصل المشترك للخطين في مراحل تطورات الخطوط الأولى.

إن هذه النقوش بنوعيها المجود وغير المجوّد خطها، وإن تخالف الناس عليها، تعكس إجمالًا ملامح الصورة التاريخية للحياة العربية قبل الإسلام، في إطار جزيرتهم شمالًا وجنوبًا، حياة المدر، وحياة الوبر، وحياة تقوم على الاستقرار والعمران، وحياة تقوم على التنقل بحثًا عن الماء والكلأ، رغم أنه كان هناك بين الحياتين تواصل مستديم، تربطهما طرق التجارة والواحات المنتشرة التي تتوفر فيها شروط ملائمة لإقامة بعض النشاط الزراعي، أو مياه كافية وموقع مناسب لتكون محطات على طرق القوافل، وهي تقطع القفار والنجود شمالًا وجنوبًا وشرقًا وغربًا وبالعكس، فمن خلال النقوش السبئية يستطيع الباحث أن يستنبط معالم تاريخ الحياة الحضرية في جنوب



شكل (1): نقش عنان.

شكل (2): نقش النمارة.



شكل (3): دينار الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان 77هـ.



شكل (4): نقش قرآني (القرن 1 هـ) آيات قرآنية من سورة الواقعة كتبها عثمان بن وهران - بالعسيلة.

جزيرة العرب وبدراسة النقوش اللحيانية والثمودية والصفوية وما شابهها يُمكن للمرء التعرّف على الصورة التاريخية للحياة البدوية وشبه البدوية في وسط الجزيرةوشمالها.

وقد دلت هذه النقوش إجمالًا على تلك الأقوام العريقة، التي عاشت في جزيرة العرب قبل الإسلام، فعرفنا منها الكثير، عن السبئيين والحميريين والمعينيين والقتبانيين والحضرميين، في مراكز الحضارة من جنوب الجزيرة العربية. وعرفنا أيضًا معلومات كثيرة عن عدد من الأقوام العربية الأخرى التي عاشت في وسط الجزيرة وشمالها، مثل الثموديين واللحيانيين والصفويين من خلال النقوش التي كتبوها والقرائن التاريخية المتواترة الأخرى التي دلت عليها أو عززت ما ذكرته النقوش عنهم.

المعروف أن النصوص الآثارية المكتوبة بالخط العربي في اللغة العربية الفصحى، وعثر عليها على حالتها الأولى، وكما رسمها كاتبها في القرن الأول الهجري، والتي بقيت إلى اليوم قليلة ونادرة، وقد جمعها منذ زمن العلامة جروهمان، وهي لا تزيد كثيرًا عن ثلاثين نصًا، وإن كانت قد زادت عن ذلك منذ صدور كتابه، ومن هذه النصوص ما وجد على أوراق البردي أو شواهد القبور، أو نقوش تذكارية، أو نصوص مسكوكات، ولاسيما ما كُتب على الدينار العربي الذي نقشت عليه صورة الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، والبسملة وعبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وسنة الضرب ويتراوح تأريخها بين (74 - 77هـ) (شكل 3).

ومن خلال الأبحاث والاكتشافات والمسوحات الأثرية في المملكة العربية السعودية التي أُجريت بكثافة في السنوات الأخيرة نعرف أنه عُثر على عدد لا بأس به من النقوش الصخرية المؤرخة التي يعود تاريخها إلى القرن الأول الهجري، مثل نقش زهير الذي عثر عليه الدكتور علي غبّان مؤخرًا ونصه[1]:

[بسم الله – أنا زهير كتبت زمن توفي عمر سنة أربع عشرين]

1. علي إبراهيم غبان: **مجلة أدوماتو**، العدد الأول، (2000)، ص 79.

ويروي مكتشفه أنه أقدم نقش صخري إسلامي مؤرخ حتى الآن بعد بردية إهناسيا (22 هـ).

وكذلك نقش خالد بن العاص مؤرخ سنة (40 هـ) في درب زبيدة، ونقش عبدالله بن ديرام مؤرخ (46هـ) في نجران، ونقش سد معاوية ابن أبي سفيان مؤرخ (58هـ) في الطائف، ونقش حفنة الأبيض (64هـ)، ونقوش أخرى على طريق الحج الشامي مؤرخة (80 هـ)، و(83هـ)، و(91هـ)[1].

ويُمثل اكتشاف الرقوق القرآنية صدفةً بسقف الجامع الكبير بصنعاء في خزانة بالجناح الغربي سنة (1392هـ/1972م) حدثًا هامًا وكبيرًا في مسيرة التدوين والخط العربي، وينحصر عصرها ما بين القرن الأول إلى القرن الرابع الهجري. وقد تمّت دراسة بعض منها ووجد أنها تحتوي على معلومات ذات ثراء وتنوع عن تدوين القرآن الكريم نختصرها في النقاط التالية[2]:

تتضمن أنواعًا مختلفة من الخطوط التي دونت بها المصاحف وصلت إلى عدد اثني عشر ألف قطعة رق على الأقل تمثل حوالي (800) مصحف. تظهر لنا نماذج خطية مبكرة كتبت بدون إعجام.

تتناول نماذج من الرموز القديمة المستعملة للدلالة على حركات الإعراب، أو علامات التشكيل من رفع ونصب وكسر وتنوين والمراحل المختلفة لتطور هذه الرموز والتي يروى أن واضعها أبو الأسود الدؤلي بأمر من أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب وكانت باللون الأحمر ثم تعددت ألوانها ومعانيها.

تعرض بعض مراحل ظهور التزويق والزخرفة الخاصة بالمصاحف ولهذه النصوص فائدة كُبرَى في دراسة أصول الخط العربي وتطوره فضلًا عن فائدتها في دراسة الرسم القرآني، وفي إلقاء الضوء على عدد من مسائل الخلاف التاريخية واللغوية والثقافية.

ومبلغ العلم أنه لم يُعثر بين تلك الكتابات الباقية من القرن الأول الهجري على نصوص شعرية قليلًا أو كثيرًا، والعثور على أي نصوص شعرية من القرن منقوشة على الصخر أو مكتوبة على أية مادة أخرى ستوفر مادة هامة للباحثين وستُعزز الأدلة التي تدعم صحة القول بوجود تدوين للشعر الجاهلي سبق فترة تدوينه في القرن الثالث الهجري وربما كان أساسًا اعتمد عليه العلماء والرواد بعد ذلك بقرنين.

وفي إحدى رحلاتي إلى جدة، عام 1996، أهداني الصديق الكريم الأستاذ الدكتور سعد الراشد وكيل وزارة المعارف السعودية لشؤون الآثار والحضارة كتابه الجديد بعنوان: «كتابات إسلامية من مكة المكرمة». والكتاب دراسة ونشر لمجموعة من النقوش الإسلامية المنقورة على الواجهات الصخرية في منطقة مجاورة لصعيد عرفات، وفي المعيصم بالقرب من منى[3]. ورغم أن تلك النقوش لم تكن مجهولة تمامًا لدى الأهالي وبعض المتهمين إلا أنها لم تلق العناية من الباحثين أو الرحالة، كما أنها بقيت فترة طويلة من الزمن بعيدة عن اهتمام الجهات المسؤولة عن حماية الآثار بالمملكة، ولم يسبق لها أن نُشرت نشرًا علميًا بحيث تُصبح قيد التناول، كما أشار إلى ذلك المؤلف. وبلغ عدد النقوش التي جمعها المؤلف من تلك المناطق ستين نقشًا تفاوت حجمها ما بين سطر واحد وثمانية أسطر. أما من حيث المضمون فقد تضمنت أغراضًا مختلفة، منها آيات قرآنية، ومنها أدعية لطلب الرحمة والمغفرة من الله سبحانه وتعالى، والصلاة على النبي ﷺ، ومعظمها أدعية مأثورة ومتواترة عن السلف الصالح (شكل 5) غير أن عددًا قليلًا منها، وهذا بيت القصيد تتضمن نصوصًا شعرية (شكل 6).

ومعظم هذه النقوش النثرية والشعرية نقشت بخط جميل متقن لترسم صورة صادقة للخط المكي أو الحجازي في القرن الأول للهجرة، وتمدنا بمعارف جديدة عن الناس واستيطانهم والوضع الثقافي الذي كان في منطقة مكة المكرمة ذات المكانة الدينية والعلمية في قلوب المسلمين جميعًا. وتظهر الآيات

1. Ghabban: **Arabia**, Vol. (1), pp. 293-298.

2. Frühe: **Koranfagmente aus der Grossen Moschee in Sana'a** (2003).

3. سعيد عبد العزيز الراشد: **كتابات إسلامية من مكة المكرمة**، (الرياض: جامعة الملك سعود، 1995).

القرآنية برسمها القديم دون تنقيط أو تشكيل واضحة جلية كما نقرأها اليوم في المصحف دون أدنى اختلاف.

ولا شك أن تلك النصوص الشعرية القليلة تعكس أيضًا صورة صادقة وأصلية دون نقل أو نسخ لحالتها الأولى كما دونها كاتبها، علمًا بأن الكاتب لم يكن هو القائل كما يُستفاد من قوله في آخر النص (وكتبه) وليس ما قاله أو ما أشبه ذلك، وليس بين كتابها من اشتهر شعره في المصادر.

وفيما يلي نقشان من أربعة نقوش شعرية نشرها المؤلف:
النقش الشعري الأول مؤرخ بين أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني وأرخه المؤلف بالقرينة، ورقمه (28) خاصة وأن معظم النقوش المنشورة مؤرخة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالقرنين الأول والثاني الهجريين، وسبعة منها مؤرخة بوضوح في الربع الأخير من القرن الأول الهجري[1]:

النقش (28) كُتب على واجهة صخرية وبمساحة (94×22 سم) ويتضمن نص بيت شعر يرد ذكره كثيرًا في المصادر، وينسب إلى الشاعر الجاهلي عبيد بن الأبرص، بل البيت على الأرجح من قصيدته المشهورة التي عدّها بعضهم من المعلقات، والتي نظمها من مخلع البسيط ومطلعها:

أَقْفَر من أهله ملحوب فالقُطَبيّات فالذنوب

والبيت المنقوش هو (شكل 6):

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

وإذا كان ابن سلام قد شك في شعر عبيد لقلته واضطرابه فإن «مرجليوث» قد اتخذ من البيت المذكور دليلًا على أن ما نسميه الشعر الجاهلي هو في الواقع شعر إسلامي، لأن البيت يدل على أن قائل الشعر كان يخشى ما يُغضب الله من الذنوب.

كما أن طه حسين يرى أن قصيدة عبيد هذه منتحلة لا أصل لها[2]. ومع ذلك فإن هذا البيت مُدوّن من حوالي القرن الأول للهجرة، ولا يُمكن أن يكون قد وضعه أحد الرواة المتهمين بالوضع في القرن الثاني أو الثالث الهجري مثل حماد الراوية. ولعبيد اليوم ديوان منشور.

النقش الشعري الثاني رقمه في المجموعة (17) (شكل 5)، وقد نقش على كتلة صخرية في منطقة الحرمان عل مساحة (112×52سم) ويتضمن بيتين معروفين من الشعر، واسم كاتبهما وتاريخ الكتابة:

أفنا[3] الجديد تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تمسي
وطلوعها بيضاء صافية وغروبها صفراء كالورس

ويذكر المؤلف[4] أن الجاحظ أورد هذين البيتين في كتاب الحيوان ضمن مقطوعة من ثلاثة أبيات، ونسبها إلى أسقف نجران. و البيت الثالث هو:

اليوم أعلم ما يجيء به ومضى بفصل قضائه أمس

مع اختلاف في الرواية، (منع البقاء) بدلًا من (أفنا الجديد)، و(تصرف الشمس) بدلًا من (تقلب الشمس)...

وفي رواية للقالي في أماليه أن عبد الملك بن مروان قال لجلسائه: أنشدوني أكرم أبيات قالتها العرب، فقال روح بن زنباع هذه الأبيات على اختلاف في الترتيب. فقال له: أحسنت.

وقد أورد نشوان بن سعيد الحميري في شرح قصيدته 14 بيتًا منسوبة إلى تبع الأكبر[5] من شعر طويل على نفس البحر والروي، وتبدأ بالبيتين المنقوشين مع اختلاف في قوله «منع البقاء» بدلًا من «أفنى الجديد». والقصيدة في كتاب التيجان

1. Frühe: **OP. Cit.,**

2. طه حسين: **مرجع سابق،** ص 152.
3. هكذا وليس (أفنى).
4. سعد عبد العزيز الراشد: **مرجع سابق،** ص 63، 64.
5. نشوان بن سعيد الحميري: **ملوك حمير وأقيال اليمن، القصيدة الحميرية**، تحقيق إسماعيل الحرافي وعلي المؤيد، (بيروت: دار العودة؛ صنعاء، دار الكلمة، 1978)، ص 116.

في ملوك حمير[1]، في (22) بيتًا، ومنسوبة لذي القرنين الصعب بن الحارث الرأش. وهي هنا تسعة أبيات :

منع البقاء تقلب الشمس ... وطلوعها من حيث لا تمسي
وطلوعها بيضاء صافية ... وغروبها صفراء كالورس
تجري على كبد السماء ... كما يجري حمام الموت للنفس
اليوم أعلم ما يجيء به ... ومضى بفصل قضائه أمس
وتشتت الأهواء يخالجني ... والغزو نحو مطالع الشمس
وأنا الهمام الحميري على ... نجم السعود ولدت لا النحس
أيقنت أني سوف أحصل في ... من قد مضى ويضمني رمسي
ولسوف يفنى الناس كلهم ... طرًا وما في الأرض من جنس
وأعوذ بالملك المهيمن من ... ما غال بالبأساء والرجس

والأرجح أن الأشعار المنسوبة إلى تبع الأكبر، أو إلى أسعد الكامل، وهي كثيرة، لا يُمكن أن تكون لهما لأن تبع الأكبر، وأسعد قد عاشا في فترة القرنين الرابع والخامس الميلاديين[2]، وفي فترة ازدهار اللغة السبئية (الحميرية).

ويُستدل من لغة هذه الأشعار الملحمية، والتي تتناول في الغالب ذكريات مجد بنفس ملحمي، وفي إطار موضوع المصير، وتعاقب الليل والنهار، والبقاء والفناء، أنها قيلت في القرن الأول الهجري من شعراء اليمن، أو في أحسن الأحوال قبل الإسلام بزمن يسير. وكان بدو اليمن حينها يتحدثون بلغة نجد والحجاز، كما أسلفنا. وقد يكون من أشهر هؤلاء الشعراء وأحدثهم علقمة بن ذي جدن، وابن مفرغ الحميري (ت 69هـ/ 688م)، وأخيرًا أعشى همدان (ت 83هـ/ 702م)، وبعضهم عاش في المدنية. وقد قيلت وفق أساليب النظم التي عرفها العرب قبل الإسلام وبعده.

وذكروا أن عبيد بن شريه الجرهمي المصدر الرئيس لأخبار اليمن كان يُحدث في مجلس معاوية بن أبي سفيان. ويُروى أن معاوية كان يأمر أهل ديوانه وكتابه أن يوقعوا أحاديث عبيد بن شريه، ويدونوها في الكتب وينسبوها إلى عبيد[3]. وكان في أحاديث عبيد تلك كثير من الشعر الجاهلي بعضه صحيح منسوب إلى شعراء معروفين، ولكن بعضه الآخر منحول مثل الشعر الذي نسبه إلى يعرب بن قحطان، وإلى عاد وثمود.

وكان علماء اللغة يُهملون هذا الشعر ولا يستشهدون به إلا قليلًا، حتى أتى الحسن بن أحمد الهمداني في القرن الرابع الهجري، وضمنه مؤلفاته مثل الإكليل والصفة والدامغة، وتلاه نشوان بن سعيد الحميري في القرن السادس الهجري، الذي يكثر من الاستشهاد بشعر أهل اليمن الملحمي في معجمه شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم[4].

وإذا ما وضع المرء اختلاف المصادر في نسبة الأبيات إلى قائلها جانبًا، وكذلك اختلافهم في بعض ألفاظها، فإنه يجد أمامه شعرًا قديمًا مدونًا على حالته الأولى كما فرغ من كتابته الكاتب عام (98 هـ/ 716م) أي في فترة حكم الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك.

والأبيات مما دونه الرواة في القرن الثالث الهجري بعد ذلك، وهي مما تنطبق على مبناه حدود الشعر، وأعاريض الخليل بن أحمد، ومعاني الشعر الحكمي عند العرب. ومما يلفت النظر انتهاء النقش بعبارة «وكتب أبو جعفر بن حسن الهاشمي»، وهو خلافًا لما هو معهود «رواه فلان».

على أن ما يُميز مجموعة سعد الراشد عن غيرها من نقوش القرن الأول الهجري، بالإضافة إلى كونها نقوشًا هامة تأتينا من محيط أم القرى، هو وجود نصوص شعرية فيها، ومبلغ العلم أن نصوص القرن الأول الهجري الباقية على أصلها خالية من الشعر، ولهذا ربما كانت نقوش مكة هذه أقدم تدوين يصلنا بعجره وبجره للشعر العربي قبل الإسلام وبعده،

1. وهب بن منبه: **التيجان في ملوك حمير**، (صنعاء: مركز الدراسات، 1347هـ)، ص 101، 102؛ عبيد بن شريه الجرهمي: **في أخبار اليمن وأسفارها وأنسابها، أخبار عبيد بن شريه منسوبة إلى تبع الأقرن**، (صنعاء: مركز الدراسات، د. ت.)، ص 449، 450.
2. تاريخ أسعد الكامل معروف من النقوش، ولم يكن التبابعة يتكلمون بالعربية الفصيحة (لغة نجد والحجاز)، وإنما يتكلمون الحميرية ويدونون بها.
3. عبيد بن شريه: **مصدر سابق**، ص 325-328.
4. نشوان بن سعيد الحميري: **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم**، (13 جزء) تحقيق حسين العمري، مطهر الارياني، يوسف محمد عبدالله، (دمشق: دار الفكر،1999).

وبلغة القرآن الكريم وبالرسم العربي المكي، وبالصيغة التي أوصلها لنا بعد ذلك رواة الشعر وجامعوه ومدونوه في القرن الثالث الهجري. أي أن هذه الأبيات الشعرية المدونة على صخور ضواحي مكة المكرمة على قلتها دليل قاطع ظاهر للعيان على أن تدوين الشعر كان قائمًا قبل القرن الثالث الهجري. وهو دليل مادي يُضاف إلى غيره من الأدلة النقلية والعقلية التي ترد على القائلين بأن الشعر العربي القديم نقل بالرواية الشفهية فقط، واعتبروا ذلك سببًا يدعو إلى الشك في صحته. وإذا علم المرء أن الأبيات التي وردت في نقوش مكة تُمثل على الأرجح شعرًا جاهليًا فلا بُد له أن يتذكر معركة طه حسين وشكه في الشعر الجاهلي قبل ثمانين عامًا.

هل يا ترى مثل هذه النصوص على قلتها يُمكن أن تسد ثغرة نفذ منها أديب كبير مثل طه حسين؟ وأقام الدنيا وأقعدها وملأ ضجيج شكه آذان الدنيا وشغل الناس؟ وهل تقدم الدليل القاطع على صحة الشعر الجاهلي ما دام قد ثبت تدوين بعضه؟

في عام 1977م عثرت على نص منقوش على صخرة لأول مرة في إحدى رحلاتي الأثرية في وادي قانية بناحية السوادية باليمن. ويشاء الله أن يكون هذا النص اكتشافًا عجيبًا لم يعثر على شيء مثله، في اليمن والجزيرة العربية. وقد تبينت أهمية النص في اللحظة التي شاهدته فيها أول مرة، ولكن النص جابهني بمشكلتين كبيرتين:

الأولى تمثلت في صعوبة قراءة بداية الجانب الأيمن من النقش الذي كان مُشوهًا، ولا يكاد المرء يتبين حروفه، وقد اختلط حفر النقش على الصخرة بالخدش المتعمد الذي لحقه حتى لم يتبق سليمًا إلا الجانب الأيسر منه، والذي تبدى لي وكأن حروفه ممكنة القراءة. و هكذا حكم على قارئ النص منذ البداية أن يقتصر على قراءة حروف النصف الأول إن هو قدر على ذلك. ولكن هيهات أن يتسنى له حتى مثل ذلك، مادام النص يجابهه بمشكلة كبيرة أخرى لا تقل عقدتها عن سابقتها، وهي أن لغة النص تكاد تكون لأول وهلة غير مفهومة وربما غير معلومة، إذ لا يكفي القارئ المختص في المادة عادة أن يكون النص أمامه مكتوبًا بخط المسند فيقرأه، فما بالك بنقش لم يعثر من قبل على ما يشبهه مبنى، أو ما يشاكله معنى. وفيما يلي نقل لمبنى النقش ومحاولة لنقل المعنى:

نقل المبنى:

نشترن / خير /كمهذ / هقحك
بصيد / خنون / مأت / نسحك
وقرنو / شعب / ذقسد / قسحك
ولب / علهن / ذيحر / فقحك
وعليت / أأدب / صلع / فذحك
وعين / مشقر / هنبحر / وصحك
ومن / ضرم / وتدأ / هسلحك
ومهسع / يخن / أحجي / كشحك
ونوي / تفض / ذكن / ربحك
وصرف / ألغذ / دأم / ذوضحك
وجهنللت / هنصنق / فتحك
وذي / تصخب / هعسمك / برحك
وين /مزر / كن / كشقحك
ورسل / لثم / ورم / فسحك
وسن / صحح / دأم / هصححك
وكل / يرس / عرب / فشحك
وكل / أخوت / ذ قسد /هبصحك
ووليت / شظم / دأم / تصبحك
وكل / عدو / عب / نوحك
وكل / هنحظي / أملك / ربحك
وأك / ذتعكد / أرأ / كفقحك
ومن / شعيب / عرأن / هلجحك
وجب / يذكر / كلن / ميحك
حمدان / خير / عسيك / توحك
هنشمك / هندأم / وأك / صلحك
هردأكن / شمس / وأك / تنضحك
تبهل / عد أيسي / مشحك

نقل المعنى:

نستجير بك يا خير فكل ما يحدث هو مما صنعت

بموسم صيد خنوان مائة أضحية سفحت

ورأس قبيلة ذي قسد رفعت

وصدر علهان ذي يحير شرحت

والفقراء في المآدب خبزًا أطعمت

والعين من أعلى الوادي أجريت

وفي الحرب والشدة قويت

ومن يحكم بالباطل محقت

وغدير « تفيض» لما نقص زيدت

ولبان « العز» دائمًا ما بيضت

وسحر اللات إن اشتد ظلامه بلجت

ومن يجأر ذاكرًا نعمك رزقت

والكرم صار خمرًا لما أن سطعت

وللإبل المراعي الوافرة وسعت

والشرع القويم صحيحًا أبقيت

وكل من يحفظ العهد أسعدت

وكل أحلاف ذي قسد أبرمت

والليالي الغدر بالإصباح جليت

وكل من اعتدى علينا أهلكت

وكل من يطلب الحظ مالا كسبت

ورضي من تعثر حظه بما قسمت

وفي « الشعيب» الخصب أزجيت

وبئر « يذكر» حتى الجمام ملأت

الحمد يا خير على نعمائك التي قدرت

وعدك الذي وعدت به أصلحت

أعنتِنا يا شمس إن أنت أمطرت

نتضرع إليك فحتى بالناس ضحيت

وبدا لي أنه ربما كان موضوع الترتيلة اليمنية القديمة التي يتضمنها نقش «ضاحية الجذمة» في وادي قانية، هو الموضوع نفسه الذي يحتويه نقش عنان (شكل 1)، أي دعاء استسقاء كما سبق أن ألمحت إليه. ففي نقش زيد عنان يتوجه أصحاب النقش بالدعاء إلى الإله «كهل» طلبًا للماء بعد اشتداد أزمة القحط، حيث شحت الأمطار، ولسان حالهم: الغيث، يارب ! لقد حبست عنا القطر وشحت الأرض، وبلغ بالناس والحيوان مبلغًا عظيمًا فامنن بفك الأزمة والخلاص.

إن نصًا مثل هذا بمعناه ينبغي أن يُمثل نمطًا من «الأدب الديني» الذي يتوقع إبداعه في بلد كاليمن، يعتمد كثيرًا على الأمطار الموسمية، وإذا ما تلكأ تـنـزّل الغيث عن موسمه زمنًا، يلجأ الناس إلى الاستسقاء. وقد يستسقون بأمور كثير. وهي سنة حسنة، وعادة معلومة بين الناس، وربما كانت قديمة قدم الإنسان نفسه في أرضه، وصلاة الاستسقاء مندوبة في الإسلام، ودعاء الاستسقاء متواتر ومعروف.

وفي بعض القرى اليمنية يشمل شعائر الاستسقاء بقايا عادات متواترة كتقديم الأضاحي في بعض الجبال، حيث مساقط المطر أو الأماكن التي تشتد فيها الأمطار عادة وتكثر السيول فيها أن يكتبوا سورة من القرآن مثل (سورة الواقعة) على ثمرة اليقطين الجافة ثم يعلقوها في مكان عال حتى يتـنّزل الغيث.

وإذا كان بالإمكان أن يكون مضمون هذا النص اليمني القديم هو دعاء استسقاء فما هو شكله؟ وأي نوع من أنواع الكتابة والإنشاء؟ أو قل هل يندرج النص ضمن أي نوع من أنواع الأدب نثرًا كان أم شعرًا؟

إن أبرز ما في هذا النقش هو خاتمة كل سطر فيه، حيث يتكرر حرفان هما الحاء والكاف في كل سطر، وإن عدد حروف كل سطر تتراوح بين ثلاثة عشر حرفًا وسبعة عشر حرفًا والغالب هو ستة عشر. ورغم أن انعدام أصوات اللين والحركات «يقتل» أية محاولة مثمرة لدراسة التفعيلة إن وجدت، إلا أن لزوم الحاء والكاف في آخر كل سطر سبعًا وعشرين مرة متتالية يغري باعتبار ذلك قافية ممكنة.

وتبين لي أن الكلمة الأخيرة في كل سطر ينبغي أن تكون فعلًا، وأن الكاف حينئذ لا بد وأن تكون ضميرًا متصلا. ونحن نعلم أن الكاف ضمير متصل في اللغة الحبشية واللغة الأكدية، وأنه الأصل في ضمير الرفع في اللغات القديمة (السامية)، ويقابل ذلك التاء في العربية، كقولك قمتُ (للمتكلم) وقمتَ (للمُخاطب).

وكان ضمير الرفع هذا غير معروف لدى دارسي النقوش اليمنية القديمة حتى عهد قريب. وإن كنا نجد باقيًا متواترًا في بعض لهجات اليمن اليوم، كما دلّ على ذلك أطلس (بينشتدت)[1]. ويُشير هذا الأطلس إلى أن انتشار الكاف بدلًا من التاء كان موجودًا في مناطق كثيرة من اليمن تمتد مابين جبل صبر جنوبًا وباقم شمالًا مرورًا بالعدين وإب وريمة وبعض شهارة وحيدان وغيرهما.

وحاولت أن أطبق على النص أوزان العرب، وقارنته بالأشعار الشعبية اليمنية، وأشعار لهجات المهرة وسقطرة وبعض المنظومات من البلاد الإفريقية المجاورة فبدا لي أن هذا الضرب من الكلام ربما كان قائمًا على نقش شعري قديم يعتمد على استغلال النبرة كعنصر موحد، وينتظم كل سطر عددًا معين من النبرات، وتكون القافية آخر موضوع للنبر فيه. وهذا يُخالف الفن الشعري العربي الذي يعتمد أوزانًا كمية يحكمها عدد المقاطع كوزن بحر الطويل: فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن[2]، ولكن ليس لدينا دليل يهدينا إلى موضع النبر في لغتنا العربية كما كان ينطق بها في العصور الإسلامية الأولى؛ إذ لم يتعرض له أحد من المؤلفين. ومواضيع النبر في اللهجات قديمة أو حديثة قد تحكمها عوامل مختلفة، مما يجعل الحديث عن الكيفية التي كان أهل اليمن القدماء في أرض مراد مثلًا ينطقون مثلًا هذا الضرب من الكلام أمرًا مُتعذرًا. على أن ذلك لا يكون في الغالب حكمًا نهائيًا، وإنما يُمكن لمحاولات عدة إعادة بناء ما يُمكن أن يشبه ذلك النسق الشعري.

وكان أهم إله يُعبد في هذه المنطقة هو إله الشمس[3]، بخلاف كثير من مناطق اليمن حينذاك، وللشمس معبد كبير في جبل شحرار المذكور، وكانوا يلقبونها «عالية»، وهو لقب معروف عند غيرهم أيضًا. ولها معبد آخر عثرت عليها في «سوق الليل» الشرقي قرية الخرابة الواقعة بين الأغوال وردمان، وهو معبد مستطيل حوالي (25X30) مترًا ولا تزال صفوف من حجارته المهندمة باقية. وشاهدنا بعض المواطنين يقومون بتكسير تلك الأحجار وبتهديم آثار ذلك المعبد القصي، والذي يُمثل بناء بديعيًا كما تُنبئ عنه آثاره.

على أن ما يُمكن الإشارة إليه هو أن هذا النمط من النصوص مألوف في الشرق القديم عمومًا، ومع ذلك نص جديد ومثير بالنسبة لليمن القديم، ويعكس شيئًا من ثقافة عرب اليمن قديمًا. كما أنه يخرج عن إطار ما تألفه في أشكال آلاف النقوش اليمنية ومضامينها، والتي وصلتنا إلى اليوم. وربما كان «نقش عنان» السابق ذكره هو أقرب نصوص النقوش اليمنية القديمة إليه. فهو مثله يعتمد القافية، ويتضمن نشيدًا يتقرب به إلى الإله. والإله هنا هو الشمس، وهي إله المطر عندهم كما تبين نقوش أخرى، فالنص لا يخلو بالفعل من موضوع الابتهال والاستسقاء وكأنه «أنشودة المطر» أو «ترنيمة الشمس» حقًا.

وفي العدد الأول من مجلة ريدان الصادر في عام 1987م؛ قرأت فيما قرأت فيه إعادة نشر بعض نقوش الأستاذ زيد عنان، التي كان قد نشرها ضمن كتابه «تاريخ حضارة

1. بيتربيننشتيت: **أطلس اللهجات اليمنية**، (فيسبادن: 1985)، ص 116.
2. راجع بهذا الخصوص مقالة كارل بيتراتشك «الأنساق الشعرية في اليمن وأهميتها في دراسة الأنساق الحبشية»، في كتاب **المؤتمر الثالث للدراسات الأثيوبية بأديس أبابا 1966، الجزء الثاني**، (أديس أبابا: جامعة هيلاسلاسى، 1970). ص 295 وما بعدها، و(بالألمانية).
3. لم يرد أي شاهد يُمثل إله الشمس حتى الآن ما عدا لوح من الرخام عُثر عليه في الإطار المكاني نفسه الذي وجدت فيه القصيدة الحميرية (ترنيمة الشمس). وهو من مجموعة المتحف الحربي بصنعاء يحمل الرقم (MSM213) يظهر عليه تجسيد لمشهد ميثولوجي جسد الفنان بكل براعة وإتقان رجل مجنح في مشهد أسطوري يُحتمل أن يكون إله الشمس؟ أبعاد هذا اللوح الرخامي (H.12.5cm)،(w11،th6cm)..مكتوب في أعلاه: (شرح / شمس/ بعل / س..) راجع بهذا الخصوص ماهر عبد الله الوجيه: **الأسلحة في اليمن القديم**، رسالة ماجستير غير منشورة، (صنعاء: قسم الآثار جامعة صنعاء، 2012)، ص 228، 346.

اليمن القديم»، والذي صدر في عام 1976م. وهو الذي رافق المكتشف الأمريكي ويندل فيليبس في مأرب عام 1952/1951م، ونقل بعض نقوش محرم بلقيس. وقد شدّ اهتمامي في تلك النقوش، النقش رقم (2). وكان زيد عنان قد شرحه في كتابه بإيجاز شديد. وذكر «أن في النقش كلمات غير معروفة وهو يحتاج إلى دراسة أكثر فلعل هناك عبارات سامية قديمة».

أجل!! يُصادف المرء كلامًا جديدًا في نقش زيد عنان، هذا لم يعهد من قبل في النقوش اليمنية القديمة بل إنه يتعذر على القارئ إدراك المعنى بيسر إن هو وفق في آخر الأمر إلى شيء من ذلك. إن كتابة النقوش تهمل أصوات اللين، وعلامات الإعراب والوصل والمد والتشديد، ونحن نجهل حقًا كيف كان يتكلم بلغة النقوش قديمًا، وإنما نجتهد في ذلك مقارنة باللغة العربية المحضة أو بما قاربها من اللغات واللهجات السامية. إن قراءة النص هذا تعترضه أيضًا مصاعب كبيرة، حتى وإن ظهر في مبناه ما يُشبه الشعر الموزون المقفى.

كما أن وجود «الفاصل» بين الكلمات في النقش يُثير الشك في صحة الشكل الشعري، ولا ندري إن كانت الفواصل قد أهملت في الأصل في نهاية كل سطر أم لا، والعادة أن تكون مهملة. ونحن مقيدون على كل حال بنص زيد عنان كما أهمل هو في رسمه التقيد بحدود الأسطر الأصلية كما سلف الذكر، وهو في حقيقة الأمر نص من دون صورة فوتوغرافية توثق له. وأورد هنا طرفًا من نص نقش عنان كما نشره «بافقيه وربان» في مجلة ريدان ووفق ترتيبهما:

10- وكـل اضررن حسل
11- همـسك مرأن بلل
12- كـل ذ علي وس ( ) ل
13- كـهل بحت ذوهن ذرح
14- هـردأ ذو ملوب رزح

ولكن يبدو أن تفسيرًا كهذا، بلغته هذه التي تُغاير اللغة «الرسمية»، المعهودة في النقوش أمر غير يسير، في هذه المرحلة من تاريخ علم النقوش اليمنية القديمة، إذ إننا بحاجة إلى عدد كاف من النصوص الموثقة بصورها الفوتوغرافية، وسليمة في مجملها، دون تشويه وانطماس، بحيث نتمكن من القيام بدراسة أصيلة يُبنى عليها حكم مفيد، يُسهم في تمهيد الطريق أمام مجال أدب اليمن القديم، الذي لا نزال نأمل أن يبرز يومًا من خلال النقوش التي تعتبر مصدرًا رئيسًا لتلك الفترة. وكان مما لفت نظري في النص المذكور السطور (10، 11، 12، 13، 14) وقد حاولت أن أعيد قراءتها وتفسيرها إلى العربية المحضة، فكان ما يلي:

10- وكـل الأعـداء أذل
11- أمسـكت يا مولانا البلل
12- في كـل ما علا وسفل
13- بها كهل خلص وكل ذي ضعف
14- وأعن كل ذي (رزح) كل من أصابه الظمأ

وينبغي حينئذ أن تفسر الفقرات تفسيرًا قد لا يتفق مع ما أورده «بافقيه وربان» إلا في بعضها. ففي الفقرة الأولى: همسك الهاء حرف تعدية في اللهجة السبئية، وأمسك بمعنى حبس. وقد أدغم الكاف ضمير الرفع في اللغة اليمنية القديمة، وهو بدل من التاء في العربية، وبالتالي ينبغي أن يقرأ الفعل الماضي بتشديد الكاف همسكّ. ويُلاحظ أن النص مقفى في الأصل الحميري بقافية اللام ومقطع جاء بقافية الحاء، وربما مقطع ثالث بقافية الميم، فيما ضربنا عنه صفحًا لشدة اضطراب النص.

مرأن تعني سيدنا أو مولانا، وفي لغة النقوش «مرأهمو» تعني سيدهم وهي كثيرة، والنون هي الضمير المتصل (نا) وياء النداء تحذف في العادة. بلل: والبلل هو الندى. والبلال كالبِلّة هو الماء، و البلة تعني أيضًا الخير والرزق، البـلّ يعنى أيضًا الشفاء أو المباح. وفي « اللسان» أيضًا: البل هو المباح يمانية حميرية[1]. وفي الفقرة الثانية السافل هو نقيض

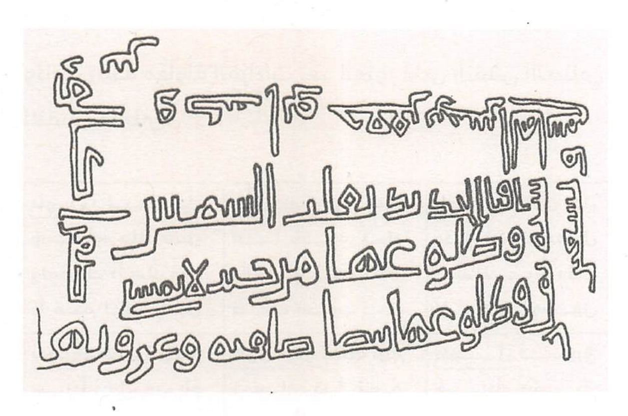
1. ابن منظور: **لسان العرب**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1999)، الجزء الأول، مادة بلل، ص 489.

العالي، وأرجح مع «بافقيه وربان» أن خطأ كان في النقل، فهي سفل وليس سقل. وقد استخدمت العبارتان كناية عن لفظي الأرض والسماء.

وفي عام 2004 وخلال تنقيبات البعثة الأمريكية لدراسة الإنسان في محرم بلقيس أعيد اكتشاف نقش (عنان رقم 1)، في مدخل محرم بلقيس مُلقى على الأرض، وأخذت له صور للمرة الأولى، وهو ما مكنني من قراءة النص بصيغته الأصلية. ومن خلال الصورة يتبين أن النقش يكاد يكون كاملًا، وبالإمكان قراءة الأحرف المفقودة في نص زيد عنان، بل إن السطر الرابع والخامس يدل بوضوح على أن النقش كان ترنيمة دينية، وذلك من خلال كلمة (س م د ت ن = السمودة)، وفي اللغة العربية سمد يعنى غنى كما هي في المعاجم العربية. وقد وردت اللفظة في معجم شمس العلوم في مادة (سمد)[1] السمود اللهو والغناء، ويُقال سمدت القينة إذا غنت بلغة حمير. وفي القرآن الكريم إشارة إلى ذلك في قوله عز وجل «وأنتم سامدون» (سورة النجم، أية 61)، أي لاهون. فُسر باللهو وفُسر بالغناء[2].

والمعلوم أن سمد وسمدتن فعلًا واسمًا وردت في النقوش اليمنية القديمة (C289-12) ويُعادل (GL267) علمًا بأن المعجم السبئي لم يُشر إليها، وكذلك لم يُشر إلى اللفظة مطهر الأرياني في المعجم اليمني ولا(Moshe Piamenta) في معجمه «Dictionary of Post- Classical Yemeni Arabic» وإن كانت هذه اللفظة قد وردت قبل ذلك في نقش لم ينتبه إلى أهميته ورمزه (VL24=J2353) وهذا هو نصه بالحرف اللاتيني ولا تُعرف له صوره، وغالب الظن أن النص عبارة عن ترنيمة أيضًا كما يدل على ذلك القافية التي ترد في نهاية كل سطر(ر).

وكان قد جاء في المعجم القتباني تفسير للفظة (س م د ت ن) بمعنى (Dignitaries) أي كبار الشخصيات[3]، وهو تفسير يبعد كثيرًا عن المعنى الأصلي أنشودة قصيدة ترنيمة كلها شيء تعنى الشيء نفسه.



شكل (5): نقش في الشعر الحكمي (مؤرخ 98 هـ).



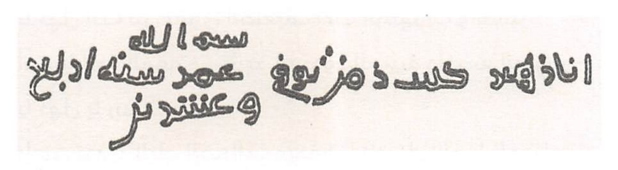
شكل (6): بيت شعر في الشعر الحكمي (القرن 1-2 هـ).



شكل (7): نقش الزبور طحمت.



شكل (8): نقش زبور حموت.



شكل (9): نقش زهير 1

1. نشوان بن سعيد الحميري: **معجم شمس العلوم**، مادة سمد.
2. ابن منظور: **لسان العرب**، ج 6، مادة سمد، ص 356.
3. CF.perhaps Ar samada: "to belofty, elevated" S3MD subst.pl.S3md 687/9;S3mdt Q 687/1. Dignitarie, Ricks, **Lexicon of Inscriptional Qatabanian**, Roma (1989)

وكانت نتيجة محاولة القراءات بعد العثور على النقش الأصلي للنقش ما يلي:

<table>
<tr>
<td>بكهل ذ لب صلل
وسط أوم هلك عضل
ولمحرمك دأ سك مثل
ذأ قدم لك فعل</td>
<td>بكهل كبهي أل ذ ذ ب ك
لجبأ شرق لك
وأل أل أخذ يدك
ضرك تعرب لك</td>
<td>بكهل كبلو ثون كهل
وكل أضررك حسل
خمسك مرأن جلل
كل ذ علي وسفل</td>
</tr>
<tr>
<td>بكهل بحت ذ وهن ذرح
هردأ ذ ملوب رزح
ألمقه ذ هسكر أرمح
تحزك أخمس رضح</td>
<td>بكهل كبمو ملكك تريم
خمسك جبأ لنعم
وهن اضررتحتك هلجم
أيم ثون قدم</td>
<td>بكهل كبرق
هرداه بشرق
ألق ذ لوب رفق
وهن أضرر تحزك أفق</td>
</tr>
</table>

رباعيات (Quatrains) الأنشودة

رناعم ساكني مدينة مأرب يتقربون إلى معبودهم ألمقه ثوان بعل أوام بتمثالي ثور وتمثالي وعل من البرونز وبترنيمة، وهذه محاولة لترجمة مجمل المحتوى:

يا كهل الحكمة القوية في معبد آوام
أنت هنا الحاضر بقوتك
وليس هناك شبيه لمعبدك العظيم
ولم يكن هناك شبيه له قبله
يا كهل هناك أولئك الذين يُمجدونك
ويقدمون لك الإتاوات
وكل الآلهة يقدمون لك الولاء
وكل الأعداء يخضعون لك
يا كهل أنت المتكلم
وكل الأعداء يخشونك
أنت يا سيدنا عظيم في السماء والأرض
يا كهل أنت من يقوي الضعيف أغث الملهوف والفقير
أنت يا آلهة ألمقه من شيد السدود المتينة وأخضع الجيوش
يا كهل يا رب الأرباب
يا من تجيء إليك الضرائب ويدفعها لك كل الأعداء /وسلطتك أبدية/
يا كهل يا إله البرق أغث أرض ألمقه فهي تحتاج إلى المطر

وأبعد عنها كل الكوارث
الختام
صلوات...

ومما يُذكر بهذا السياق ما عُثر عليه قبل سنين في وادي شرجان في محافظة شبوة نقش لم تتيسر لنا صورته، وعرف بنقش (VL 24=J 2353) وفيه ورد أن هذا النقش هو سمودة سعدم يهسكر ين هصبح، وهذا هو رسمها بالخط اللاتيني ويُلاحظ أن الأسطر جميعها تنتهي بحرف واحد وهو الراء (ر) مما يدل على أنها أنشودة مقفاة تحكي في الغالب هواجس وأخبار صاحبها.

نقش السمودة - نقش من وادي شرجان

VL 24=J 2353

1. śmdt s ʿdm yhskr bn hṣbḥ
2.šmk-ʾn b-ẓnt swr
3.w-br ʾk-h ʾn ḏ-tnsr
4.w-nqb hsgf b-mṯbr
5. w-bqlk n ʿ mn b- ʾmšr
6. w-ṯwbk ʾ rḥb b-mḥrr
7. w-yšgb l-ystq b-t ʾḫr
8. wḥd mqḥn w-zbr
9. śmd hwyḫr ḏ-mġbr
10. ḏ-hṣbḥ b-gr°y°mt w-šnr
11.bn ʾmʾgl msqt lḏ[.]
12. ṯw-šqr l-śwʿt ḏ-qʿrr
13. ṯw-y f°m° ḏ-hḏḏ°n° w-hrn
14. w-ḥwf m ʾ°g°l°-k ʾ ṣfr
15. ṯw-y ʿn b-knf gwly ḥṣdnn
16. dnḫk° zm ʾsrb w- ʾṯwr
17. ywnbr dnm ʿl°b°ḏr ʾ°ḫ°yr
18. w-mgṣt w- ʾzmt ...
19. kʾyk fʿlk bn ʾ [...]

كما كان اكتشاف النقوش اليمنية الخشبية بخط الزبور إضافة هامة إلى معارفنا عن حضارة اليمن القديم. فمنذ بدأ بعض علماء النقوش اليمنية منذ حوالي عشرين سنة ينشرون بعضًا من تلك النقوش، التي يُغاير خطها الممشوق خط المُسند الجليل اتسعت تدريجيًا مجالات الحديث عن الوثائق المكتوبة وتعددت أغراضها، إذ لم يعد الدارسون يعتمدون على المعلومات القاصرة التي يستمدونها من نقوش المسند ذات الطابع التذكاري، وإنما انفتح أمامهم باب جديد ينفذون منه إلى أمور تفصيلية تتعلق بالحياة اليومية، ومعاملات الناس وأخبارهم، وعلاقتهم الشخصية، مثل العقود الخاصة، والصكوك المالية، والمراسلات الشخصية وغيرها.

ويبدو من خلال الاطلاع على عدد وافر من تلك النقوش الخشبية التي عُثر عليها بوادي الجوف أحد مراكز الحضارة اليمنية القديمة، أن جزءًا هامًا منها مصادر أرشيف أو أرشيفات خاصة كانت تُحفظ بعناية إلى حين الحاجة، لكونها تُمثل وثائق سارية المفعول تنظم معاملات يترتب على أصحابها حقوق وواجبات. وفي حال الخلاف هناك مرجعية قانونية أو عرفية تقضي بين الناس استنادًا إلى تلك الوثائق. وكثير من المراسلات التي تظهر ضمن هذه النقوش تُعنَى أيضًا بضرب من المعاملات، حيث تحتوي على حوالة مالية أو طلب بإرسال مواد غذائية وبضائع متعددة، إلا أن بين هذه المراسلات ما يخلو من أغراض مادية ذات شأن، وإنما أشبه ما تكون بالمكاتبات «الإخوانية» بين الأهل والأصدقاء، وجل ما تحتويه أخبار عن الأحوال، والسؤال عن انقطاع المراسلة والدعاء والتمنيات. وقد يعجب لوجود هذا النوع من المكاتبات «الإخوانية» ضمن أرشيف له صفة التوثيق. ولكن مثل هذه الرسائل عثر عليها بين الرقم الطينية في العراق أو كتابات البردي في مصر، وإن كانت المكاتبات «الإخوانية» الصرفة قليلة إذا ما أخذ بعين الاعتبار الكم الهائل من الوثائق المتنوعة التي عُثر عليها في الشرق القديم على وجه العموم.

ولهذه الرسائل الخاصة عبارات متميزة، تبدأ بالقول: «لفلان بن فلان» وهي عبارة شبيهة بما يرد في أساليب الكتابة عند العرب إذ يقال: «لفلان من فلان» أو «إلى فلان من فلان» كما يقال: «من فلان إلى فلان». ويتلو ذلك الدعاء أو التحية، كأن يقال في عبارات الدعاء ما مؤداه: «وعثتر وألمقه فليصلحا لكم الحال» أو عبارة «الإله الراعي يُبارككم» أو ما معناه في هذا النقش قيد الدراسة:

«فلتسمع لكما (ذات حميم) دعاء (المرسل) لكما بدوام النعمة». أما عبارات التحية فترد بالمعنى التالي: «السلام عليكم» أو «تحية منه إليكم». و قد تضاف عبارات الحمد، كأن يُقال ما معناه: «حمدًا كثيرًا» أو «احمدوا كثيرًا» وتتكرر عبارات الدعاء والتحية في النص نفسه.

وتنفرد هذه الرسالة بين ما اطلعت عليه منها، وهي عدد غير قليل، بكونها غير ذات موضوع يُعنى بمصلحة معلومة، كالأمر بإيجاز عمل، أو الطلب بإرسال بضاعة، أو الأخبار بشروط ونحو ذلك، وإنما تحمل ما يُشبه العتاب على انقطاع المراسلة، وترجو أن يكون المانع خيرًا وتطلب دوام المراسلة، وتُخبر عن حال المراسلة وشفائها من مرض ألم بها، مشفوعة بالدعاء للصديقتين أو الأختين بأن تحفظهما الآلهة من كل شر، وأن تُديم عليهما النعمة، كما أن الرسالة تخلو من التحية المعتادة وتقتصر على الدعاء.

ورغم أن هذا النقش الجديد يُشكِّل في إطاره العام إحدى تلك الرسائل؛ مما يقضي بأن تُدرج ضمن النسق المعهود للمكاتبات المتكرر مبنى، والمتعدد معنى، وكاتبها مُنشئ محترف يُعبر بأسلوب مُتعارف عليه، إلا أن موضوعها الشخصي البحت الذي تحمله عبارات موجزة ومترابطة يوحي للقارئ بأنه أمام رسالة عاطفية تعبر عن علاقات حميمية، قد تعكس أسلوبًا أدبيًا يتمتع به كاتبها يتجاوز الأسلوب النمطي الذي يهدف بالدرجة الأولى إلى التوثيق وحفظ المصالح والحقوق بين الناس. ولا أظن القارئ يمر مرور الكرام على ذلك التعبير الجزْل، والدآل في هذه الرسالة، وهو:

«وهنحرت / لالببكمي» (والذي يصعب نقله تمامًا إلى لغة أخرى) دون أن يحس بقوة التعبير وبلاغته، فقد يكون من ظلال معانيه: وهي تصلي عليكما أو لكما، أو هي مشتاقة إليكما، أو هي قلقة على أحوالكما، وما شابه ذلك.

وفيما يلي وصف وتفسير لهذا النقش الجديد المكتوب بخط الزبور، وقد كتبته امرأة وأرسلته إلى امرأتين أخريين.

النص :

طبيتم / لخنم / وطمحتم / عمن / حموت/ وذت / حميم لتسمعنكمي / بعبرن هـ / نعمتم / حدث / وبذت / أل رأيت / عمنكمي / سطرم / وهنحرت / لألببكمي / وأ تمي / صطرن / لهـ / وهأ / رسعت / مرضتم / بن / عينهـ / ولكمـ ي / نعمتم / حدث /..

المعنى:

خبر إلى خنم وطحمة من حموت. فلتسمع لكما ذات حميم «الدعاء» منها بدوام النعمة. أما بعد، فهي لم تر منكما مكتوبًا، وتوجهت بالدعاء «بالصلاة» من أجل صدوركما. وأنتما اكتبا لها. وهي قد تداوت من المرض الذي أصاب عينيها، والدعاء لكم بدوام النعمة.

معنى النص:

إذا ما تجاوز المرء حرفية النقل، ما يلي:

هذا خبر (أو رسالة) مكتوب للسيدتين خنم وطمحة مرسل من السيدة حموت. فلتستجب الآلهة شمس ذات حميم دعاءها (أي المرسلة) لكما بدوام النعمة.

أما بعد، فهي لم تستلم منكما أية رسالة. وقد توجهت بالدعاء «صلّت» من أجل أن يحفظ صدوركما «أي تشرح» مماقد يمسهما أو يُصيبهما من مكروه. والمراد أن تبعثا لها رسالة. وهي تُخبركم أنها قد شُفيت من المرض الذي كان بعينها، وتدعو لكما بدوام النعمة.

وبعد، فهل كان هناك تدوين أدبي (وفي هذه الحال شعري) قبل الإسلام وفي القرن الأول الهجري؟ الجواب نعم!! بدليل أن القرآن الكريم الذي أنزل على سيدنا محمد كان قد دون خير تدوين بما لا يدع مجالًا لأي شك في القرن الأول الهجري.

وقد دلّت الشواهد النقشية المبكرة مثل نقوش مكة المكرمة، والتي نشرها سعد الراشد في عام 1995. وكذلك الرقوق القرآنية المبكرة التي عُثر عليها في سقف الجامع الكبير بصنعاء على أن التدوين في القرن الأول الهجري كان قائمًا فعلًا. وبما أن تلك النقوش والرقوق قد دونت على الصخور والرقوق بخط واضح وجميل، ولم نجد فيها ما يُشير من قريب أو بعيد إلى أي تغير في النص؛ فإن ذلك يؤكد التدوين في القرن الأول الهجري كان هامًا صاغ لغة التراث الشعري والأدبي للأمة الإسلامية والعربية إلى اليوم.

إن الأبيات الشعرية التي عُثر عليها في محيط مكة المكرمة منقوشة على الصخر ومؤرخة من القرن الأول الهجري تدل بوضوح على أن الشعر كان يُدون في تلك الفترة بل ربما قبل ذلك بكثير، خاصة وأن تلك الأبيات قد وردت في المصادر الأدبية، وصنفت ضمن ديوان الشعر الجاهلي.

وفي بعض النقوش التي عُثر عليها في اليمن في السنوات الأخيرة، ومكتوبة على عسب النخل وغيرها من الخشب بخط الزبور اليماني ما يُشبه الرسائل والمكاتبات الإخوانية. وفي بعض النقوش العربية مما دون قبل الإسلام بخط قريب الشبه بالخط العربي مثل النمارة (شكل 2) أو مما يدون بخط المسند، مثل نقوش الفاو عبارات أدبية دالة على النمط الصارم والمكرر وللأسلوب الأدبي والديني المألوف.

وعرفنا أنه قد عُثر بخط المسند على نقوش تُمثل شواهد شعرية مُقفاة مثل نقش زيد عنان السبئي، ونقش ضاحية الجذمة (القصيدة الحميرية أو ترنيمة الشمس اكتشاف صاحب البحث (1977م). ومهما أختلف الناس حول النقش المذكور

إلا أن فيه تكتمل خصائص العمل الأدبي الشعري من صورة ولفظ وقافية، وتناغم بين الشكل والمضمون، وتبلغ القصيدة في النقش (27) بيتًا، وتؤرخ بالقرن الأول قبل الميلاد، وقد قيل إنها أقدم شعر ذي قافية في التاريخ.

كان التدوين للشعر معروفًا قبل الإسلام، وهو أمر ليس بالجديد، والجديد أننا نرى الوثائق اليوم من خلال الشواهد الأثرية كما فرغ أصحابها منها بالأمس.

ويدخل في هذا السياق نقش عين عبدات الذي نشره لأول مرة أبراهام نجف عام 1986، ونشره مرة أخرى جيمس بالامي عام 1990، وممن عُني بالنقش سرجيو نويا في عام 1989، وما نفرد كروب في عام 1994، والبروفيسور بيستون.

ويتألف النقش من ستة أسطر منقوش بالحرف النبطي واللغة النبطية، ويُقدّر تاريخه بالقرن الثاني الميلادي، وهو نقش نبطي عادي لولا العبارات الواردة في السطرين الرابع والخامس، والتي استحقت الاهتمام من الدارسين لظنهم أنها عبارات غير رسمية، وإنما صيغت بأسلوب أدبي وقد يكون شعرًا كقوله:

فيفعل لا فدا ولا اترا فكن هنا يبعنا الموتو ولا
ابغه فكن هنا ادد جرح لا يددنا
فمن الممكن قراءة العبارة في السطر الرابع وهكذا:

«لا فدى ولا وترا» أي مات دون أن يكون شهيدًا أو قتيل ثأر، أي كما يُقال في لغة القبائل في اليمن:

«مات لا قضاء ولا سلف» أي مات موتة عادية، لم يكن موته في حرب ولا في ثأر، و العادة أن لا يموت العرب في جاهليتهم حتف أنفسهم ولا يموتون كما يموت البعير.

وإذا صح ما رواه صاحب التيجان من أن أخبار عبيد بن شريه كانت تدون في مجلس معاوية فإن أقدم تدوين معروف لأبيات تبع الأكبر المذكور، كان في حوالي منتصف القرن الأول الهجري، أي قبل وفاة معاوية في عام 60هـ/ 680م، أي قبل تدوين البيتين على صخور مكة بخط أبي جعفر بن حسن الهاشمي، سنة 98هـ/ 716م بحوالي نصف قرن.

وإذا ما افترض المرء أن عبيد بن شرية راويها في مجلس معاوية لم يكن واضعًا لتلك الأبيات وإنما رواها مما حفظه، وقد كان مُعمرًا، فإنه من الممكن أيضًا أن يفترض المرء أن تلك الأبيات كانت متداولة بين الرواة ضمن أحاديث العرب وأنسابهم وأخبارهم وشعرهم على الأقل في النصف الأول للقرن الأول الهجري، أي عند ظهور الإسلام.

أليس من الممكن أن تكون الأشعار الموجودة في أخبار عبيد بن شريه، هي الأشعار نفسها التي ربما نظمها يزيد بن مفرغ؟ ومهما كان الأمر فإن موضوعات هذه الأشعار كذكر تعاقب الليل والنهار، والمصير والمنية، والأوصاف الحربية لإشارات دالة على أن فيها من الجاهلية شيئًا كثيرًا[1].

وقد قيلت قبل الإسلام، أو قبل انتشار الإسلام، وهي أشعار مجهول قائلها ومنتحل نسبتها، ولكنها لا يُمكن أن تكون مما قد انتحله الرواة في القرنين الثاني والثالث الهجريين، أو صنعوها لأسباب مختلفة تستدعي نحل رواة مثل: حماد الراوية، وخلف الأحمر، بدليل أننا عثرنا على بعض هذا الشعر مدونًا على الصخر في القرن الأول الهجري، كما أنه كان يُروى في مجالس معاوية بن أبي سفيان في مطالع عهد الخلافة الأموية.

1. ميخائيل بتروفسكي: **ملحمة أسعد الكامل**، ترجمة شاهر أغا، (صنعاء: مشروع الكتاب،1984).



معتقل دار بريشة

العنف السياسي بالمغرب غداة الاستقلال

(1956-1961)



د. جلال زين العابدين

أستاذ التاريخ المعاصر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك

جامعة الحسن الثاني- الدار البيضاء

حاصل على الدكتوراه في التاريخ المعاصر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية- سايس فاس، له عدد من المقالات العلمية المنشورة في مجلات محكمة مغربية ودولية، شارك في ندوات داخل المغرب وخارجه، منها المؤتمر العالمي الثاني للدراسات التاريخية "مئة عام على الحرب العالمية الأولى: مقاربات عربية" الذي عقده المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في بيروت، فبراير 2015.

جميع الصور الواردة في هذا المقال من اختيار الكاتب

يتناول البحث الاغتيالات السياسية التي باشرتها مؤسسات تابعة للدولة بشكل علني أو سري في سياق التحول الذي عرفه النظام السياسي المغربي، بتمركز كل السلطات في مؤسسة واحدة، وعلى هذا تتبلور إشكالية الدراسة في تحليل أبعاد هذه الظاهرة في مغرب ما بعد الاستقلال، من خلال رصد أشكال هذا العنف، وتحديد القوى التي مارسته، وما هي دوافعها ومراميها.

مقدمة

تميزت السنوات الأولى لاستقلال المغرب باضطرابات سياسية وأمنية عنيفة، وباحتدام الصراع بين مختلف الفرقاء السياسيين حول السلطة وشكل المغرب المستقل، لكل منهم مصالحه وبرنامجه للحفاظ عليها، وتصوره الخاص لمستقبل البلاد. فخيمت الضبابية على الأجواء السياسية بالمغرب وانعدمت الرؤية، وخنقت حرية التعبير والرأي، واتسمت بالفوضى والتسيب، وسادت بينهم لغة العنف والقوة.

وفي خضم التنافس والصراع حول الانفراد بالسلطة، والاستحواذ على مكتسبات الاستقلال استعملت وسائل غير مشروعة من بينها اللجوء إلى استخدام العنف للتخلص من الخصوم، فاشتركت منظمات تابعة للدولة وللأحزاب في عمليات القمع والتصفية الجسدية لقيادات ورموز سياسية ونقابية وقادة المقاومة وجيش التحرير. وقد شكل الاغتيال السياسي أداة لبناء وإعادة بناء التحالفات ومراكز القوى داخل المجتمع الجديد، كما وظفت في إطار الصراع السياسي مجموعة من المعتقلات لتصفية وإرهاب الخصوم والمعارضين.

وإذا كان اللجوء إلى العنف لحسم الصراع يُعدّ من أهم مظاهر الاحتقان السياسي في المغرب خلال تلك الفترة، فإن أبرز ما أجج هذه الفترة هي التداعيات التي انعكست في صورة انفجار عام للوضع السائد كنتاج للعامل الأول المتمثل في السخط والغضب وخيبة الآمال، خاصة مع بداية «مأسسة» الاغتيال السياسي والتصفيات الجسدية والاختطافات بخلق كتائب خاصة اقترنت أساسا بالآلة الحزبية المستبدة، وهو ما جعل المغرب يعيش فترة قاتمة بكل المقاييس. ومن بين هذه التداعيات اندلاع تمرد عدي وبيهي، وانتفاضة أو ثورة الريف اللتان تُعتبران من أبرز الأحداث والوقائع التي شهدها المغرب خلال هذه الفترة، وذلك بالنظر لكونهما حدثين سياسيين اتسما بالقوة في ظل ظرفية تُعدّ من أهم الفترات الحاسمة في تاريخ المغرب المعاصر، ولما طبعها من رهانات وحسابات من استخدام للعنف بشكل كبير خاصة بالنسبة لانتفاضة الريف.

إن أهمية هذه الدراسة تكمن في كونها تُعالج موضوعًا شائكًا وحيويًا يُمثل فترة عصيبة من تاريخ المغرب المعاصر، وهو العنف السياسي بالمغرب غداة الاستقلال . وقد كان اختيارنا للحدين الزمنيين 1956-1961 نابعًا من ضرورات كرونولوجية ومنهجية. فمثلما كانت سنة 1956 سنة حاسمة في تاريخ المغرب، لأنها شكّلت سنة الاستقلال و نهاية حقبة الاحتلال، فإنها دشنت كذلك لمرحلة من أحلك فترات المغرب المستقل لما شهدته من اضطرابات ومواجهات بين رفاق الأمس في النضال ضد الاستعمار حول طريقة بناء الدولة الوطنية. أما الحد الثاني، أي سنة 1961 فيرمز إلى سنة وفاة عدي وبيهي المتمرد الذي كاد أن يُحطم بتمرده أركان الدولة الفتية، وأيضًا إلى سنة وفاة محمد الخامس الملك الذي عاش مرحلة صعبة تخللتها أحداث عديدة كان نظامه فاعلًا في جزء كبير منها، وطوى معه المغرب الصفحة الأولى في استقلاله، ليفتح صفحة جديدة تميزت بعنف الدولة الخالص. ونتناول هنا الاغتيالات السياسية التي باشرتها مؤسسات تابعة للدولة بشكلٍ علني أو سري في سياق التحول الذي عرفه النظام السياسي المغربي، بتمركز كل السلطات في مؤسسة واحدة، وهو الزمن الذي أطلقت عليه هيئة الإنصاف والمصالحة في تقريرها لسنة 2006 اسم زمن الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان.



الملك محمد الخامس، ملك المغرب (1927 - 1961)

تتبلور إشكالية هذه الدراسة في تحليل أبعاد ظاهرة العنف السياسي في مغرب ما بعد الاستقلال (1956-1961)، ورصده سواء أكان ذلك العنف الذي تعرض له المقاومون الذين لعبوا دورًا كبيرًا في الحصول على الاستقلال، واتخذ شكل اغتيالات وتصفيات جسدية، أم العنف الذي اندلع في إطار الصراعات داخل النُخبة الحزبية من أجل الانفراد بالسلطة والتسيير، والعنف الذي مارسه النظام لإخماد بعض التمردات، أو ما يُسمى بعنف الدولة. وفي هذا الإطار تسعى الدراسة إلى:

- رصد وتحديد بعض أشكال العنف السياسي في المغرب غداة الاستقلال.

- رصد وتحديد القوى السياسية والاجتماعية التي مارست العنف السياسي بالمغرب خلال فترة الدراسة.
- تحديد المرامي والدوافع التي كانت تقف وراء استفحال ظاهرة العنف السياسي بالمغرب خلال تلك المرحلة.

وارتباطًا بهذه القضايا المطروحة، كان من الضروري طرق الموضوع باعتماد منهج شُمولي يُعالج الظاهرة في شُموليتها على اعتبار أن العنف ظاهرة معقدة يتداخل فيها السياسي بالاجتماعي والاقتصادي والقانوني والثقافي، كما أنه يحظى باهتمام مجموعة من العلوم الاجتماعية من الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي وغيرها.

وتعتمد هذه الدراسة على منهجية قوامها الوصف وتحليل الأحداث، ثم رصد ومعرفة ماهية القوى السياسية والاجتماعية التي مارست العنف السياسي، وكذلك تحديد اتجاهات عملية تحريك العنف السياسي. وفي إطار تفسير هذه الظاهرة لجأت الدراسة إلى قياس معاملات الارتباط بين العنف السياسي وعدد من المُتغيرات الأخرى كالنزعة العرقية، والتنمية الاقتصادية والتعبئة الاجتماعية.

ولا ندعي أننا في هذه الدراسة قمنا بتغطية كل أشكال العنف السياسي بالمغرب خلال هذه الفترة. فطبقًا للتعريف الإجرائي الذي يطرحه المفهوم، سنركز على أربعة أشكال تُعبر في مجملها عن الظاهرة المعنية وعن المكونات والأبعاد الأساسية للمفهوم المركزي (العنف السياسي).

مفهوم العنف السياسي

يعتبر العنف ظاهرة مركبة لها جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية، وهو ظاهرة عامة عرفتها كل المجتمعات البشرية بدرجات متفاوتة، وبصور وأشكال مختلفة، ولأسباب متنوعة ومتداخلة، تختلف باختلاف المجتمعات والثقافات والمراحل التاريخية. وفي هذا الإطار، فإن العنف قد يُمارسه الفرد ضد نفسه أو ضد الآخرين، وقد تقوم به جماعة ما ضد جماعات أخرى في المجتمع، وقد تُمارسه الدولة على المستوى الداخلي أو الخارجي.

وبالرغم من الخسائر المادية والمعنوية التي قد تنتج عن ممارسة العنف، إلا أنه لا يُمكن التسليم دائمًا بأن كل أشكال العنف ظواهر مرضية أو سلبية. فالعنف السياسي قد يكون حتمية وضرورة تاريخية في بعض الحالات. وفي هذا الصدد يُمكن فهم بعض التحولات الكبرى في العالم، التي لم تكن لتحدث لولا درجة من العنف. ولذلك يظل العنف أحيانًا أحد الوسائل، بل ربما الطريقة الوحيدة لتحقيق التغيير السياسي والاجتماعي، وخصوصًا عندما تغيب المسالك والوسائل اللازمة لتحقيق التغيير السياسي والاجتماعي أو عندما تتقلص[1].

ومن البديهي أن يُمثل العنف السياسي جانبًا مهمًا لظاهرة العنف بمعناها المجتمعي الشامل، ذلك أن التطرق لموضوع العنف السياسي ليس في جوهره إلا طرحًا لطبيعة السلطة والدولة في المجتمع، والارتباط الوثيق بين السياسة والعنف. فالسياسة حسب تعبير بيير فيو لا تقوم دونما عنف، وإن كانت لا تقتصر عليه[2].

وقد تعددت وتنوعت التعاريف المتعلقة بمفهوم العنف السياسي، ويوجد شبه اتفاق بين أغلب الدارسين لظاهرة العنف السياسي، على أن العنف يُصبح سياسيًا عندما تكون أهدافه أو دوافعه سياسة، رغم الاختلاف بينهم في تحديد طبيعة ونوعية هذه الأهداف وطبيعة القوى المرتبطة بها. ولذلك فإن أغلب الباحثين والدارسين يُعرفون العنف السياسي بأنه «استخدام القوة المادية أو التهديد باستخدامها لتحقيق أهداف سياسية»[3]. ويُعرفه تيد هندريش بقوله: «العنف السياسي هو الاستخدام الفعلي للقوة، أو التهديد باستخدامها؛ لتحقيق أهداف اجتماعية لها دلالات وأبعاد سياسية بشكل يأخذ الفردي أو الجماعي، السري أو العلني،

1. حسنين توفيق إبراهيم: **ظاهرة العنف السياسي في النظم العربية**، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، 1992)، ص 3.
2. بيير فيو: «العنف والوضع الإنساني»، ضمن كتاب **المجتمع والعنف**، ترجمة إلياس زحلاوي، (بيروت: المؤسسة الجامعية للنشر ، 1985)، ص129.
3. حسنين توفيق إبراهيم: **مرجع سابق**، ص 27.

المنظم أو غير المنظم»[1]. وعرفه لينبورج بأنه «كل عمل من أعمال الخروج عن النظام أو التدمير أو الإصابة تكون آثاره ومحله واختيار أهداف ضحاياه وظروف تنفيذه ذات مدلول سياسي، والمدلول السياسي يعني أن الفعل يرمي إلى تغيير سلوك الآخرين في وضع من أوضاع المساومة له تأثيره على النظام الاجتماعي»[2]، ونفس المعنى نجده كذلك عند بول ويلكنسون الذي يحدده في «استخدام القوة أو التهديد باستخدامها لإلحاق الأذى والضرر بالآخرين لتحقيق أهداف سياسية»[3].

وتتعدد القوى التي تُمارس العنف السياسي، كما تتباين بالطبع الأهداف السياسية التي ترمي إلى تحقيقها. فقد يتّم ممارسة العنف من طرف النظام ضد المواطنين أو ضد قطاع أو ضد فئة معينة منهم؛ بهدف الاستمرار في السلطة وتقليص دور القوى المعارضة والمناوئة له[4]. وقد يُمارس العنف من جانب المواطنين ضد النظام السياسي أو بعض رموزه، ويتخذ العنف في هذه الحالة شكل التظاهرات، والإضرابات، والاغتيالات، والانقلابات، ثم هناك عنف قد يوجه من بعض عناصر أو أجنحة النخبة الحاكمة إلى بعض عناصرها أو أجنحتها الأخرى، ويندرج هذا العنف في إطار الصراعات داخل النُخبة، ويتخذ أشكالًا عديدة منها: التصفيات الجسدية والاعتقالات، وقد يصل إلى حد الصدامات المسلحة بين العناصر والقوى الموالية للأجنحة المتصارعة داخل النخبة الحاكمة. وقد يوظف الجيش والشرطة وبعض القوى المدنية في هذه الصراعات[5]. ثم هناك عنف قد يوجه من بعض القوى أو الجماعات ضد جماعات وأطراف أخرى في المجتمع، نتيجة دوافع سياسية أو اقتصادية، أو اجتماعية أو دينية، وقد يتدخل النظام لتصفية مثل هذه الصراعات أو ليُلقي بثقله إلى جانب أحد الأطراف[6].

يُمكن القول، إن العنف السياسي ظاهرة عالمية، عرفتها وتعرفها المجتمعات البشرية كافة بصور وبدرجات مختلفة، وأشكال متعددة. ويكمن الاختلاف في أسباب ودواعي العنف، وفي مدى تطوير مؤسسات وآليات فعّالة للتعاطي معه، بحيث يتم تقليص حجمها والتقليل من مخاطرها وتداعياتها، وبالتالي فهو ليس سمة لصيقة بمجتمع معين من دون غيره أو شعب من دون سواه[7].

فما هي تمظهرات وتجليات العنف السياسي بالمغرب خلال مرحلة ما بعد الاستقلال (1956-1961)؟

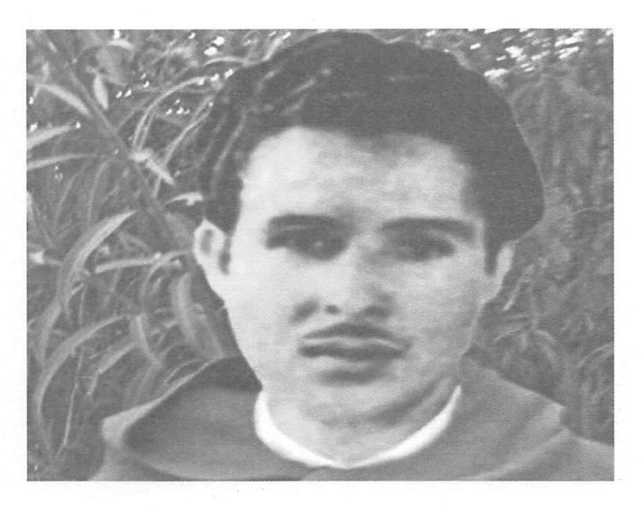
الاغتيالات السياسية بالمغرب غداة الاستقلال

شهد المغرب غداة الاستقلال صراعًا حول الزعامة والاستئثار بالسلطة، لم يقتصر فقط على التدافع السياسي بين المكونات الفاعلة في المشهد المغربي، بل تعداه إلى استعمال العنف والتصفية الجسدية للتخلص من الخصوم، فشهدت هذه المرحلة أحداثًا أليمة تمثّلت في الاغتيالات التي استهدفت مجموعة من المقاومين الذين لعبوا دورًا محوريًا وكبيرًا في المقاومة المسلحة ضد الاستعمار الفرنسي. وما يُضفي على عمليات الاغتيال طابع المرارة هو أنها تمّت على يد مقاومين اشتركوا معهم في مسيرة حصول المغرب على استقلاله. ومن أهم هذه الشخصيات إبراهيم الروداني، عباس المساعدي، عبد الله الحداوي، وعبد الكريم بنعبد الله.

لفهم خيوط الموضوع ينبغي طرح بعض من الأسئلة الشائكة، والتي سيظل بعضها بدون جواب: ما الذي يجمع بين الشخصيات المغتالة؟ ومن كانت له المصلحة في اغتيال هؤلاء المقاومين؟

تجمع بين الشخصيات سالفة الذكر مجموعة من القواسم المشتركة، أولها انتماؤها إلى أسرة المقاومة وجيش التحرير،

1. تيد هندريش: **العنف السياسي: فلسفته -أصوله- أبعاده**، ترجمة عيسى طنوس وآخرين، (بيروت: دار المسيرة، 1986)، ص 32.
2. آدم قبي: «رؤية نظرية حول العنف السياسي»، **مجلة الباحث**، العدد الأول (2001)، ص 140-105.
3. حسنين توفيق إبراهيم: **مرجع سابق**، ص 27.
4. آدم قبي: **مرجع سابق**، ص 106.
5. حسنين توفيق إبراهيم: **مرجع سابق**، ص 28.
6. **المرجع السابق**، ص 28.
7. **المرجع نفسه**، ص 4.


عباس المساعدي


علال الفاسي زعيم حزب الاستقلال

ثانيها تعرضها للقتل على يد «رفاق الدرب»، أما ثالثها فهو استمرار الغموض والالتباس حول دواعي وأهداف التصفية التي ذهب ضحيتها كل منهم.

إبراهيم الروداني، رجل أعمال، وعنصر نشيط في صفوف حزب الاستقلال، إذ أصبح في وقت وجيز أحد أعمدته، و أحد الوجوه التاريخية على مستوى العمل النقابي، إذ كان أحد مؤسسي الاتحاد المغربي للشغل[1]، في مارس 1955، إلى جانب المحجوب بن الصديق[2]، والطيب بن بوعزة[3].، وغيرهم مستفيدًا من تجربته النقابية بفرنسا(الكنفدرالية العامة للشغل بفرنسا). إذ موّل العمل الوطني ورعى مجموعات من المناضلين، وخلال عقد من الزمن أصبح الرابط العضوي بين السياسيين والنقابيين والمقاومين، وذهب الروداني الذي كان يُعتبر الأب الروحي للمقاومة، ضحية مجهوداته الجبارة لتوحيد صفوف المقاومين وحقن دمائهم[4] ، وتبنيه لحساسية الرفض تجاه بعض نزوعات الإقصاء للعالم القروي من القيادة وصنع القرارات كما قال عنه الفقيه البصري[5].

عبد الكريم بنعبد الله، مهندس، خريج مدرسة المعادن بباريس، يُعَدّ مع عبد الله العياشي ضمن الرعيل الشيوعي المغربي الذي انخرط في المقاومة المسلحة بعد أن أغلقت سلطات الحماية الحقل السياسي وفضاءات الاحتجاج المدني، وتُشكّل سنة 1953 منعطفًا حاسمًا في الحياة النضالية له، حيث شارك في القيادة السرية للحزب الشيوعي المغربي، إلى جانب عبد السلام بورقية[6] وإدمون عمران المالح[7]، داعيًا بمعيتهما

1. الاتحاد المغربي للشغل: أول منظمة نقابية تأسست في المغرب (1955)، لعبت دورًا كبيرًا في النضال التحرري والنقابي للمغرب.
2. المحجوب بن الصديق: أحد الوجوه البارزة للعمل النقابي في المغرب، أمين عام نقابة الاتحاد المغربي للشغل مند تأسيسها في مارس 1955 إلى يوم وفاته في 17شتنبر 2010.
3. الطيب بن بوعزة: أحد مؤسسي نقابة الاتحاد المغربي للشغل سنة 1955، قبل أن يُطاح به سريعًا على أيدي رجال السياسة داخل النقابة، كان مقتنعًا بدور الصراع الاجتماعي في مجال الكفاح الوطني،تعرض للاعتقال في سنوات 1945 و1948 و1952، وافته المنية يوم 19 يناير 2015.
4. محمد لخواجة، عباس المساعدي: **الشجرة التي تخفي غابة جيش التحرير**، (الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر ، 2011)، ص 222.
5. محمد الفقيه البصري: **العبرة والوفاء، حوار- سيرة ذاتية مع حسن نجمي**، (الدار البيضاء: مؤسسة الزرقطوني للثقافة والأبحاث، 2002)، ص 81.
6. عبد السلام بورقية: من مواليد سنة 1917، كان من الرعيل الأول للحركة الوطنية، ومن مؤسسي الحزب الشيوعي المغربي في بداية الأربعينيات، كرس حياته للنضال من أجل التحرر والاستقلال، ومن أجل بناء المغرب الديمقراطي وتحقيق العدالة الاجتماعية، اعتقل عدة مرات خلال فترة الاستقلال، ووافته المنية في 26 أبريل 2003.
7. إدمون عمران المالح: صحفي، كاتب ومفكر مغربي يهودي الديانة، ولد في 30 مارس 1917، رفض فكرة الهجرة إلى إسرائيل، انضمّ إلى الحزب الشيوعي المغربي، ولعب دورًا متميزًا في الكفاح من أجل استقلال المغرب، وتوفي في 15 نونبر 2010.

إلى النضال المسلح، ورابطًا الاتصال بقدامى منظمة «اليد السوداء»، من أجل إنشاء مجموعة «الهلال الأسود»، التي قامت بعمليات عدة في الدار البيضاء استهدفت تصفية متعاونين مع الاستعمار وإلقاء قنابل بالأحياء الأوروبية[1].

عبد الله الحداوي، شخصية فريدة،من مواليد 1939، ترك مقاعد الدراسة مبكرًا وانخرط في المقاومة المسلحة بالبيضاء وعمره لا يتجاوز الخامسة عشر. انفجرت كفاءته التنظيمية قبل أن تُبهر عملياته الفدائية رجال الاستعمار، وينال تقدير رفاقه المقاومين، وبعد فترة وجيزة يصبح خبيرًا في القنابل والسلاح الخفيف، وكذلك العقل المدبر للعمليات، والقائد الميداني المنفذ للمخططات. ويجد نفسه بشكل طبيعي على رأس إحدى منظمات المقاومة المسلحة «الهلال الأسود»[2]. ليكتسب من زعامته لها، نفوذًا مهمًا معترفًا به من قبل حلفائه، ومن قبل خصومه على حد سواء. وحاول بعناد كبير مواجهة التيار الراديكالي داخل حزب الاستقلال. ولم يكن في وسعه في نظر الكثيرين إلا الانضمام لهذا الحزب، ومع ذلك حاول مواجهة هذه القوة السياسية الأولى[3].

عباس المساعدي، أحد الشُّبان الذي رعاهم إبراهيم الروداني، فضلًا عن أنه مُنحدر من نفس المنطقة أي ناحية تارودانت[4]، شغل في أحد مصانع إبراهيم الروداني «معمل جافيل» مهام المحاسبة والإشراف على التوزيع. ونشط في العمل الوطني إلى جانب الروداني والطيب بن بوعزة، وتعرف على وطنيين ومقاومين ونقابيين. وانكشف أمره، وهو يُسهم في تشكيل شبكة الخلايا السرية التي ستدعم انطلاق «جيش التحرير المغربي»، وستضطر المنظمة السرية للمقاومة إلى نقله إلى منطقة النفوذ الأسباني حتى لا يتعرض للاعتقال. وتلحقه قيادة جيش التحرير بمعسكرات الناظور، وهناك التقى بالمقاوم المغربي عبد الله الصنهاجي[5] والمقاومين الجزائريين محمد بوضياف[6] والعربي بالمهيدي[7]. وتتحول مسيرة عباس المساعدي، في أقل من 15 شهرًا، ليُصبح أحد قادة جيش التحرير الميدانيين المتفاعل مع جبهة التحرير الجزائرية[8] ومع الضباط الأحرار[9] المصريين[10].

هذه المقدمة التعريفية ضرورة لفهم السياقات التاريخية لاغتيال هؤلاء المقاومين الذين اخترناهم فقط كنموذج، حيث تعرضوا للتصفية الجسدية خلال الشهور الأولى للاستقلال من طرف «رفاق الأمس». فعبد الكريم بنعبد الله فارق الحياة يوم 31 مارس 1956، وعباس المساعدي يوم 27 يونيو 1956، وإبراهيم الروداني يوم 5 يوليو 1956، وعبد الله الحداوي يوم 28 يوليو 1956.

هل يُمكن القول إن هذه الاغتيالات كانت مرتبطة بأشخاص أكثر من أنها مرتبطة بأحداث أم يتداخل فيها البُعدان؟

1. المصطفى بوعزيز: «عندما تأكل المقاومة أبناءها»، **مجلة زمان**، العدد السابع، (15 أبريل/ 15 ماي 2014) ، ص 39.
2. Nadir Bouzar: "L'Armée de libération nationale marocaine:1955-1956: Retour sans visa", **Journal d'un résistant maghrébin,** (Paris: Edition Publisub,2002), p.325.
3. محمد وحيد: **شهداء وجلادون بحث في ذاكرة المقاومة والاضطهاد الحزبي في المغرب**، (الدار البيضاء: مطبعة سوماكرام، 2006)، ص 95-97.
4. تارودانت: مدينة تقع بمنطقة سوس في الجنوب الغربي للمغرب تبعد عن العاصمة الرباط بحوالي 560 كيلومترًا.
5. عبد الله الصنهاجي: أحد مؤسسي جيش التحرير المغربي في بداية الخمسينيات.
6. محمد بوضياف: أحد كبار رموز وقادة حركة التحرير الجزائرية، أصبح رئيسًا للجزائر في يناير 1992، اغتيل بمدينة عنابة في 29 يونيو 1992.
7. العربي بالمهيدي: مناضل جزائري شارك في الثورة الجزائرية، اعتقلته القوات الفرنسية في نهاية فبراير 1957، وقتل تحت التعذيب في 4مارس 1957 بعد أن أعطى درسًا في البطولة والصبر لجلاديه.
8. جبهة التحرير الجزائرية: حزب سياسي في الجزائر ظهر سنة 1954، تبنى العمل المسلح ولعب دورًا كبيرًا في ثورة التحرير الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي التي استشهد فيها أكثر من مليون ونصف مليون شهيد.
9. الضباط الأحرار المصريون: تنظيم أسسه بعض ضباط الجيش المصري بزعامة اللواء محمد نجيب وقيادة البكباشي جمال عبد الناصر، قاد ثورة ضد النظام الملكي في 23 يوليو 1952، نجح في إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية في 18 يونيو 1953.
10. المصطفى بوعزيز: **مرجع سابق**، ص 39.

لا يُمكن القول إن الاغتيال السياسي يستهدف شخصًا بعينه، فالمعلن في كل عملية اغتيال سياسي هو الشخص المُستهدف الذي تتم تصفيته، لكن المُضمر هو تصفية الحركة التي يرتبط بها الشخص والمشروع الذي يتبناه. وفي هذا السياق، يُحاول المؤرخون والباحثون في العلوم السياسية أن يدققوا في تفاصيل كل اغتيال، واجتهادات بعضهم منشورة، إلا أن الغالب حتى هذه الساعة هو شهادات بعض الذين عاشوا أحداث تلك المرحلة، وهي في مُجملها متضاربة، وكُتبت عمومًا بعد الأحداث بعقود، وغالبًا ما تُستعمل لتصفية حسابات سياسية راهنة. فالمحجوبي أحرضان[1] على سبيل المثال، يُقلل من أهمية الأحداث الدرامية ويعتبرها تعبيرًا عن اندفاع بعض المقاومين وحماسهم الزائد، بدليل أن نزع فتيلها كان سهلًا، وليس لها تداعيات على العلاقات الشخصية، ولا على اللعبة السياسية، ولم يحدث في نظره قلْبٌ للموازين جراءها. ثم إن أغلب عمليات الاغتيال خلال السنة الأولى طالت أفرادًا معزولين أغلبهم من المخزن القديم، وكثير منها يُحسب على تصفية الحسابات الشخصية ولا مضمون سياسيًا له. وهو نفس التفسير الذي أعطاه حسن بلمودن[2] أحد وجوه المقاومة بالبيضاء عندما سُئل عن السبب في عدم تعرضه للتصفية الجسدية فأجاب «كل الاغتيالات التي وقعت بين أفراد المقاومة كانت لدوافع شخصية فقط، فكل جماعة تنتقم من الجماعة التي تعتبرها عدوة لها باسم الحزبية»[3].

ويعزي الوادي اليماني[4] اغتيال العديد من المقاومين إلى رفضهم سياسة الخنوع والاحتواء، وإلى أن المقاومة كانت مستهدفة، وبكل المقاييس من أطراف متعددة بما فيها الهيئات السياسية والحكام بكل أصنافهم، وأصحاب المصالح الذاتية، والوصوليين والانتهازيين والسماسرة. فكل هذه الأطراف عامة، والمستفيدين من الاستقلال بخاصة كانوا يعتبرون أن تواجد «مقاومين حقيقيين طاهرين» موحدي الصفوف والكلمة بالنسبة لهم قوة بذاتها تُشكّل خطرًا دائمًا، ولا سيما أنها (المقاومة) طالبت في بداية الاستقلال بمحاكمة كل من تعاون مع الاستعمار ضد مصالح البلاد، ولهذا باتوا يسعون إلى تدمير تلك المقاومة، وبالتالي التخلص منها بصفة نهائية[5].

في المقابل يُعطي الفقيه البصري[6] أبعادًا أخرى لعمليات الاغتيال والعنف السياسي، إذ يراها من صميم العلاقات المضطربة بين القيادة السياسية والزعامات الميدانية التي أخذت على عاتقها القيام بعمليات المقاومة، وعرّضت نفسها للملاحقات القضائية، وقضّى بعضها فعلًا من أجل القضية إما انتحارًا (الزرقطوني[7]) أو إعدامًا. ويُبيّن الأستاذ محمد حاتمي[8] أن أصل الخلل في البدايات حين سعت الأطر الوطنية، وهي في نظره من أبناء العائلات الكبيرة المستقرة في الحواضر الكبرى، والتي تلقّت تعليمًا في المدارس العصرية، إلى الهيمنة على أفاقين قدموا إلى المدن لكسب

1. Mahjoubi Aherdan: **Memoires,1942-1961,** Tome 1, (Rubat:Editions du Regard, 2013), p.341.
2. حسن بلمودن: لقب أيضًا بحسن السائق، وهو أحد رجالات المقاومة وجيش التحرير، نشر في سنة 1996 أولى مذكراته التي تتطرق إلى نشأة وتطور جيش التحرير، ثم مراحل التصفية والصراعات التي انفجرت في فجر الاستقلال بين رفاق التحرير.
3. محمد لخواجة: **مرجع سابق** ص 216.
4. الوادي اليماني: عضو في منظمة الهلال الأسود التي تأسست في بداية الخمسينات، وشاهد على العنف السياسي الذي اندلع بين مجموعة من التيارات السياسية عقب الاستقلال.
5. الوادي اليماني: **الحقائق المغيبة في تاريخ المقاومة**، (البيضاء :مطبعة الثقة، ، 2006)، ص 190.
6. محمد الفقيه البصري: **مرجع سابق**، ص 74-76.
7. محمد الزرقطوني: ولد بالدار البيضاء سنة 1925، مقاوم، استطاع تكوين شعبة صغيرة من الفدائيين، وقام بتدريبهم وإمدادهم بالسلاح، وذلك سنة 1950. وقد كان أول عمل قام به هو ورفاقه هو نسف القطار الرابط بين الجزائر والدار البيضاء. تمكنت القوات الفرنسية من اعتقاله في منزله بالدار البيضاء في 18 يونيو 1954. ولقناعته بمحدودية قدرة الإنسان على تحمل التعذيب، كان يحمل هو ورفاقه حبوبًا من السم يتناولونها في حالة القبض على أي منهم، وذلك حفاظا على تنظيمهم الجهادي السري. ابتلع الزرقطوني حبة السم التي كان يحملها، وما إن وصل إلى مركز الشرطة حتى كان جثة هامدة، وصار هذا اليوم تاريخًا للذكرى ويومًا وطنيًا للمقاومة في المغرب.
8. محمد حاتمي: «وظلم الرفاق أشد مضاضة»، **مجلة زمان**، العدد 14، (دجنبر 2014)، ص 48.

قوت عيشهم، واكتشفوا العمل الوطني فانخرطوا فيه عفويًا على اعتباره خيارًا إجباريًا لتخليص البلد من الاستعمار. ولكن هؤلاء كانوا «أميين» أو في أقصى الحالات تلقوا تعليمًا تقليديًا، لم يكن في وسعهم ولا في مقدورهم تفهم حسابات السياسيين العارفين بموازين القوى. ونظروا إلى الأمور في غاية البساطة، فمن لم يكن يُشاطرهم طروحاتهم اعتبروه من وطنية أدنى، وظنوه مستعدًا للمساومة والتفريط والمهادنة، ومن ثم صنفوهم في خانة «الخونة» وفق منطق «من ليس معنا فهو ضدنا». وأوضح حاتمي أن دوائر المقاومة عرفت جدلًا ساخنًا في موضوع ما يستوجب القيام به ضد رفاق الأمس الذين وضعوا حدًا لأنشطتهم بدعوى أن الحصول على الاستقلال هو المُبتغى، وكل نشاط بعده من قبيل الإضرار بالدولة الفتية. ووجب على «العقلاء» ضبط النفس، وإقناع المتحمسين بأن استهداف بعضهم البعض منزلق لا تُحمد عقباه. ويورد محمد حاتمي نموذج إبراهيم الروداني، وهو من ضحايا الاستقلال. فقد كانت للرجل قناعات طبقية اكتسبها بعد مقامه في الدار البيضاء، رفعت من درجة «نقمته» ضد من كان يعتبرهم «البرجوازية»، وأطرت التصور عن الطرق الكفيلة على المدى المتوسط، بتقليص الفروقات، والدفع بأبناء الشعب ليكونوا في مقدمة من آل إليهم الشأن العام. لم يكن الروداني متطرفًا، ولكن الرفاق لم يستحسنوا طروحاته فخونوه وقرروا تصفيته[1].

العنف السياسي بين الأحزاب المغربية

مع بداية إعلان الاستقلال بدأت تطفو على سطح المسرح السياسي بالمغرب الصراعات والتطاحنات الحزبية، وذلك من أجل الحصول على المناصب وكراسي السلطة، ومن ثم الاستحواذ على مكتسبات الاستقلال التي نُزعت من بين مخالب الاستعمار بالدماء والتضحية[2]. وهكذا، لم يكد خبر عودة السلطان محمد بن يوسف[3]، من المنفى في خريف 1955 يتأكد حتى لاحت في الأفق ملامح صراع سياسي عنيف بين شركاء النضال من أجل دحر المستعمر. ذهب ضحيته فاعلون سياسيون مختلفو الانتماءات ومتعددو درجات المسؤولية. وقد اتخذ العنف السياسي أشكالًا مختلفة: من اختطاف واحتجاز، وتصفية جسدية في الشوارع العمومية بواسطة الأسلحة النارية أو في مراكز الاحتجاز نتيجة التعذيب.

وقد اشتد الصراع وبحدة في المغرب المستقل بين ثلاثة أحزاب منها حزبان كبيران هما حزب الاستقلال بزعامة علال الفاسي[4] وحزب الشورى والاستقلال بزعامة محمد بن الحسن الوزاني[5]، إضافة إلى الحزب الشيوعي المغربي بقيادة علي يعتة[6]، الذي رغم تواجده في الساحة السياسية فإن نشاطه السياسي كان جد محدود. ويعود الصراع الحزبي الذي انفجر، وبكيفية مهولة بين حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال إلى رغبة كل طرف في فرض ذاته

1. محمد حاتمي: **مرجع سابق**، ص 48.
2. الوادي اليماني: **مرجع سابق**، ص 142.
3. محمد بن يوسف: هو محمد الخامس سلطان المغرب (1927-1957) (قضى منها في المنفى 1953-1955)، وأصبح ملكًا على المغرب (1957-1961) بعد أن استبدل لقب السلطان بلقب الملك.
4. علال الفاسي: وُلد بمدينة فاس سنة 1910، هو مؤسس حزب الاستقلال، وزعيم الحركة الوطنية المغربية، وأحد أعلام الحركة الإسلامية الحديثة التي ظهرت في القرن العشرين التي دعت إلى نوع من السلفية التجديدية، لعب دورًا كبيرًا في مقارعة الاستعمار الفرنسي ومحاربته بكل الوسائل، وأهمها نشر التعليم وتنظيم قطاعات الأمة للعمل الجماعي، وخوض المعارك السياسية والتصدي لكل مخططات الاستعمار. توفي في 20 مايو 1974 في العاصمة الرومانية بوخارست، وهو في مهمة دبلوماسية على رأس وفد من حزب الاستقلال.
5. محمد بن الحسن الوزاني: من مواليد مدينة فاس سنة 1910، سياسي مغربي، أحد رموز الحركة الوطنية المغربية، ومؤسس حزب الشورى والاستقلال،كان يمثل نقيض الزعيم علال الفاسي من حيث التكوين الثقافي والرؤية السياسية، فالأخير أحد خريجي جامع القرويين بينما كان الوزاني ذا خلفية قانونية مشبعة بقيم الثقافة الغربية الفرانكفونية، حيث درس في الجامعات الفرنسية وأتقن لغة أهلها، وصار يكتب بها في الصحافة، وقد كان الصراع بين الزعيمين حادًا ومؤثرًا على مسار الحركة الوطنية.
6. علي يعتة: من مواليد عام 1920، مناضل يساري مغربي التحق بالحزب الشيوعي المغربي سنة 1943، وأصبح أحد أبرز قادته. توفي يوم 13 غشت / أغسطس 1997 في حادثة سير بمدينة الدار البيضاء.

وبقوة من أجل الحصول على كراسي الحكم والسلطة، ومن أجل الوصول إلى هذه الغايات والأهداف بدأت حرب التسابق من أجل احتلال المواقع والمراكز الهامة في الدولة. فحزب الاستقلال، الحزب القوي في المغرب أنذاك، والذي كان يملك قاعدة جماهيرية كبيرة، كان يرفض وبشكلٍ قطعي تواجد أحزاب أخرى بجانبه في الحياة السياسية، لذلك كان يسعى وبشتى الطرق والوسائل لفرض نظام استراتيجي يتمثل في إقامة حزب واحد[1]، على اعتبار أنه «الحزب الذي كافح وحده في سبيل الاستقلال وعودة الملك»[2]، فأصبح يتصرف وكأنه الحاكم الفعلي للبلاد بعد خروج الفرنسيين، ولا يقبل أي منافس له، وكان يُعدّ نفسه أقوى من المؤسسة الملكية نفسها، خاصة بعدما أشرف مسؤولو الحزب على الجانب الأمني بعد عودة الملك محمد الخامس من المنفى، حيث تكلف بحراسة الموكب الملكي من المطار إلى القصر الملكي، قبل أن تؤسس القوات المسلحة الملكية، وبالتالي فقد رأى في منافسيه السياسيين خاصة من حزب الشورى والاستقلال، ندًا مُزعجًا ينبغي التخلص منه. ورأى أحقيته في احتكار التحدث باسم الوطنية، لتعزيز قوته التفاوضية، في علاقته بالقصر، لتدبير مرحلة ما بعد إلغاء معاهدة الحماية[3] .

يتفق جميع من كتبوا عن تلك الفترة على أن المغرب كان قاب قوسين أو أدنى من الحرب الأهلية، بسبب الصراعات الدموية التي شهدتها المرحلة، خاصة تلك التي وقعت بين حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال. فبعد شهرين وبضعة أيام من إعلان الاستقلال (23 يناير 1956) حدثت مواجهات دموية بسوق أربعاء الغرب[4] بين أعضاء من الحزبين كانت حصيلتها أربعة قتلى و30 جريحًا من مختلف الأعمار، تبعتها أحداث دامية أخرى بالعرائش[5]، ذهب ضحيتها عددٌ من المواطنين، تمّ تعذيبهم وشنقهم والتمثيل بجثثهم. وسرعان ما انطلقت حملة الاختطافات والتصفيات التي ذهب ضحيتها عشرات الأشخاص[6]. يقول عبد الهادي بوطالب، الذي كان واحدًا من الشوريين في ذلك الوقت، عن تلك المجزرة: «وكان أغرب من ذلك كله أن يقع هذا وعلى رأس إدارة الأمن الوطني مكافح وطني من حزب الاستقلال هو المرحوم محمد الغزاوي»[7].

ويذكر بنعبد الله الوكوتي أن الصراع على السلطة[8] في المغرب، في مرحلة ما بعد زوال الاستعمار الفرنسي، خلّف جوًا من الفوضى العامة والشطط في ممارسة السلطة، خاصة من قبل حزب الاستقلال الذي وضع أعضاءه والموالين له على رأس جميع العمالات والأقاليم، لهم الحرية المطلقة في القيام بكل شيء من دون حسيب أو رقيب، بالتعاون مع بعض المنتمين إلى جيش التحرير، سواء بتصفية معارضي الحزب، من الشوريين أو المنتمين إلى الحركة الشعبية، أو بجمع الأموال من خلال ابتزاز المواطنين[9]. وفي السياق

1. الوادي اليماني: **مرجع سابق**، ص 143.
2. علال الفاسي: **الديمقراطية وكفاح الشعب المغربي من أجلها**، (الرباط: مطبعة الرسالة، 1990)، ص 58.
3. Jean et Simone Lacouture: **Le Maroc à l'épreuve,** (Paris: Edition du seuil,1958), p.140.
4. سوق أربعاء الغرب: مدينة تقع في شمال غرب المغرب تبعد عن العاصمة الرباط بحوالي 110 كيلومترًا.
5. العرائش: مدينة مغربية تقع على ساحل المحيط الأطلسي تبعد عن العاصمة الرباط بحوالي 170 كيلومترًا.
6. **التقرير الختامي لهيئة الإنصاف والمصالحة**، الكتاب الثاني، الفصل الرابع، (نتائج وخلاصات التحريات حول مجهولي المصير وحالات خاصة)، (الرباط: منشورات المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، 2005)، ص 51.
7. محمد الغزاوي: أول مدير عام للأمن الوطني بالمغرب خلال الاستقلال من سنة 1956 إلى سنة 1960؛ عبد الهادي بوطالب: **نصف قرن في السياسة**، (الرباط: منشورات الزمن، 2001)، ص 74.
8. يعطي المهدي التجكاني أبعادا أخرى للصراع الحزبي، حيث يعتبر أن الشوريين لم يكونوا يتطاحنون مع الاستقلاليين من أجل الدفاع عن أفكارهم وحقهم في العمل السياسي فقط، بل كانت تمتلكهم الرغبة في الحصول على الأرزاق ونيل نصيبهم في الامتيازات. ففي رسالة إلى الملك اشتكى الوزاني من «احتكار الوظيفة العمومية ورخص الاستيراد والتصدير، وإخضاع توزيع الحبوب والوقود والسلف الفلاحي والعقاري لاعتبارات حزبية». المهدي التجكاني: **دار بريشة أو قصة مختطف**، مراجعة وتقديم أحمد معنينو، (البيضاء: طبعة النجاح الجديدة، 1987)، ص 79.
9. بنعبد الله الوكوتي: **ذكريات مقاوم: معركة التحرير 1953-1956 مخلفات الاستعمار في عهد الاستقلال**، (الرباط: مطبعة التوفيق، 1996)، ص 42-43.

نفسه يُضيف الوادي اليماني أن حزب الاستقلال «كان مُصممًا العزم وبقوة على تطبيق منهجية البقاء للأقوى، ومن أجل العمل على تكريس هذه المنهجية المبنية على أساليب استعمال القوة والعنف ضد كل المناوئين والمعارضين لطُغيان الحزب الوحيد وإجبارهم على الخضوع للأمر الواقع، ولأجل الوصول إلى هذه الأهداف عمل الحزب على خلق العديد من المراكز في جُلّ المدن المغربية؛ حيث خصصت لممارسة الإرهاب السياسي»[1].

لقد شهدت السنوات الأربع الأولى للاستقلال حركة متنامية لتوظيف عدد غير محدود من المعتقلات السرية، كما تحول عدد من دور السُكنى، ومحلات تدريب المقاومين إلى فضاءات احتجاز وتعذيب؛ وتصفية عدد من الخصوم السياسيين. ومن بين أهم المعتقلات التي وشمت ذاكرة عدد مهم من الوطنيين المغاربة الذين عانوا من ظلم القربى وزنازينهم نذكر المقاطعة السابعة بالبيضاء أو الساتيام ودار بريشة.

المقاطعة السابعة بالبيضاء أو الساتيام

يوجد مركز الشرطة المعروف بالساتيام أو المقاطعة السابعة بحي البلدية بمدينة الدار البيضاء، اتخذ هذا المركز كقاعدة أولى للشرطة، وذلك بالنظر إلى أن المقر المركزي الموجود بحي المعاريف كان في يد الفرنسيين، واستقبل هذا المركز الأفواج الأولى من طالبي الالتحاق بالعمل في صفوف الشرطة، وكان أغلبهم من الشباب الذين أسهموا في أعمال المقاومة قبيل الاستقلال بقليل. ويجب الإشارة إلى أن عددًا من الأشخاص النافذين بالمركز في فترة انطلاق العمل به، لم يكونوا رجال شرطة بالمعنى الكامل،أي برواتبهم ورتبهم في السلم الإداري، بل كانوا في أغلبهم ينتمون إلى قادة المقاومة، وظلوا يحتفظون بسلطة معنوية في هذا الجهاز الناشئ. ويبدو أن الخلافات التي طرأت مباشرة بعد الاستقلال، قد جعلت من مركز شرطة الساتيام أداة في هذا الصراع، أدى ثمنه فاعلون سياسيون معارضون أغلبهم من حزب الشورى والاستقلال[2].

يروي عبد الله الرداد، الذي عاش التعذيب إلى جانب الشوريين في معتقل الساتيام السري بالدار البيضاء «والمشهور في هذا الصدد أنه عقد اجتماع موسع بمنزل أحدهم، حضره 26 شخصًا، منهم ممن كان في سجن القنيطرة وشملهم العفو الملكي، كما حضره بصفة استثنائية كل من إبراهيم الروداني، ومحمد الزيراوي، وفي هذا الاجتماع تقرر جعل الساتيام معتقلًا خاصًا بالكافرين بمبادئ الحزب العتيد، ووكرًا من أوكار التعذيب والتنكيل وإزهاق أرواح الأبرياء من الشوريين والهلاليين وحتى المواطنين العاديين»[3]. يتحدث هذا المناضل الشوري الذي خبر محنة الساتيام عن «ضيوف» هذا الفضاء بالقول «هم في الحقيقة مواطنون شوريون وهلاليون جيء بهم من كل جهات المغرب وذنبهم الوحيد أنهم لا يؤمنون بأفكار «الحزب العتيد». جميعًا يئنون من الألم ومشوهون من كثرة الجلد والضرب القاسي، فنجد اثنين أو ثلاثة يحملون واحدًا منتفخ الرجلين، ولا يمكن أن ترى وجهه من الانتفاخ الذي يحيط به وكأنه مقنع»[4]. ويُضيف موضحًا حجم المعاناة: «لقد قُدّر لمن عاش وعرف جو الساتيام أن يرى أسوأ ما يُمكن: الصراخ، العويل المرعب، الخوف... ولا أعتقد أن مكاره الحياة كلها تعادل قضاء ليلة واحدة في دهاليز الحزب العتيد بالساتيام. ومهما وصفت أو صورت فسأكون مقصرًا في نقل الواقع الذي كان قائمًا. كلما تذكرت تلك الأيام السوداء يعتريني شعور غريب كله تدمر وسخط على جرثومة الحزبية المتعفنة، التي أساءت كثيرًا إلى المغرب والمغاربة بتصرفاتها الخرقاء ضد كل من خالفها في الرأي، ولعلها فاقت كل ما قرأت في كتب التاريخ عن النازية والفاشستية وعن محاكم التفتيش الأسبانية»[5].

1. الوادي اليماني: **مرجع سابق**، ص.146.
2. التقرير الختامي لهيئة الإنصاف والمصالحة: **مرجع سابق**، ص 55-56.
3. عبد الله الرداد: **من مظاهر التعديب الحزبي أو دار بريشة الثانية**، تقديم وتحقيق أحمد معنينو، (سلا: 1990)، ص.34.
4. **المرجع السابق**: ص 49.
5. عبد الله الرداد: **مرجع السابق**، ص 52-53.

ارتبط اسم هذا المركز بشخص أحمد الطويل[1]، إذ يقول عنه محمد وحيد : «لكن أحمد الطويل فاق جميع أفراد الساتيام شهرة لتعدد عمليات الاغتيال والاختطاف التي تورط فيها، وكانت جماعة أحمد الطويل تبتز رجال المخزن القديم، باشواتًا وقُوَّادًا، وشيوخًا الذين تعاونوا مع سلطات الحماية، ولأجل ذلك كان أحمد الطويل كثير التنقل بين مختلف مناطق المغرب، مما جعل أفرادًا من المنظمة السرية يُقدمون على إحالة عدد من المختطفين على المحاكمة ثم الإيداع بالسجن المركزي ببور ليوطي، وقد بلغ عددهم تقريبًا مائتين، ومنهم عدد هام من منظمة الهلال الأسود. وقد تعرض أحمد الطويل- الذي لا ماضي له في المقاومة- للاغتيال يوم 25 أكتوبر 1956، بعد أن أنجز كل «المهام» التي كُلف بتنفيذها»[2]. غير أن وفاة أحمد الطويل لم تكن لتعني نهاية هذا المسلسل المؤلم من تصفية الحسابات، فمنطق الثأر والصراع بين مختلف مكونات الصف الوطني ظل الطابع المُهيمن لهذه المرحلة من فجر الاستقلال. وتنوعت عمليات الاختطاف والاغتيال، وتعددت مراكز الاستنطاق والتعذيب، والسجون العلنية منها والسرية[3].

دار بريشة

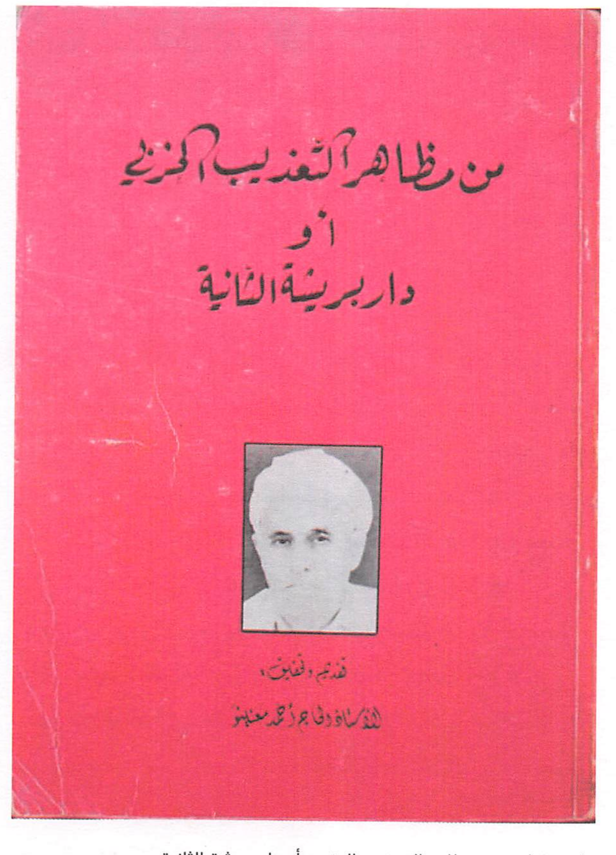
تقع دار بريشة جنوب مدينة تطوان، وهي تطل على وادي المحنش فضلًا عن القبو الذي شهد أفظع مراسيم التعذيب. يُفيد تقرير هيئة الإنصاف والمصالحة أن الأشخاص الذين تمَّ احتجازهم وسط جنان أو عرصة تعرف بالاسم نفسه (بريشة)، تتكون من طابق سفلي وطابقين علويين فضلاً عن القبو الذي شهد أفظع مراسيم التعذيب، كانوا يعملون في أسلاك التعليم أو يشتغلون بالكتابة والفكر والسياسة والثقافة والدين، أو مقاومين، أو أعضاء ضمن جيش التحرير، أو عناصر من الحزب الشيوعي المغربي وحزب الشورى والاستقلال، والأحرار المستقلين، ومنظمة الهلال الأسود، أو مواطنين بدون انتماء سياسي ثابت[4].

لم تكن دار بريشة كمركز للاحتجاز، سوى نهاية بئيسة لصراع حول المواقع بعد حصول المغرب على الاستقلال، وكانت مدينة تطوان التي عاشت فترات من العنف والمواجهة بين أنصار الحزبين الكبيرين بالمنطقة الخليفية؛ حزب الإصلاح الوطني وحزب الوحدة المغربية بين سنتي 1937 و 1940، قُدر لها أن تستضيف مركزًا لاحتجاز ضحايا المواجهة بين أحزاب وتنظيمات المنطقة السلطانية، خاصة بعد أن أدمج حزب الاستقلال حزب الإصلاح الوطني في صفوفه مباشرة بعد حصول المغرب على استقلاله، رأى أن من كان يختلف معهم طيلة فترة المواجهة مع المستعمر عليهم أن يمتثلوا لتوجهاته، وإلا فعليهم تحمُّل تبعات اختياراتهم، لا سيما أن قادته لم يكونوا يتوانون في التصريح بأنهم القوة الوحيدة الموجودة بالبلاد إلى جانب المؤسسة الملكية[5]. يقول المهدي التجكاني عن هذا الموضوع: «لقد دخلت دار بريشة التاريخ من زاوية ما عُرف بين الشوريين والاستقلاليين من خلاف حزبي حسبناه حسب طويتنا السليمة ومواجهتنا جميعًا للاستعمار خلافًا لا يعدو أن يكون مجرد اختلاف في الوسائل والطرق. أما الهدف، أما الغاية، فشيء واحد وقضية موحدة، ولكن سرعان ما تبددت أحلامنا، واستيقظنا غداة حصول المغرب على الاستقلال على عهد جديد حسبناه وضاءً كما كنا نترقبه، مشرقًا وجميلًا كما كنا نتمناه... دخلت دار بريشة التاريخ من هذه الزاوية بالذات، وتحولت بعد أن كانت والعرصة المحيطة بها دار فرجة وروض أنس بالنسبة لصاحبها وخلفه من بعده إلى معتقل حزبي رهيب

1. أحمد الطويل: من مواليد 1925، توطدت علاقاته في بداية الخمسينات مع المقاومة، حيث كان يمدّها بالسلاح. عُيّن بعد الحصول على الاستقلال رئيسًا لمقاطعة الشرطة السابعة المعروفة بالساتيام سنة 1956، كما ارتبط اسمه بالجرائم والتصفيات التي نفّذها رجاله في صفوف المقاومين والمعارضين للاحتواء الحزبي، أُغتيل في 25 أكتوبر 1956 .
2. محمد وحيد: **مرجع سابق،** ص 200.
3. الطيب بياض: «الساتيام ودار بريشة للاعتقال والتعذيب»، **مجلة زمان،** العدد 14، (دجنبر / ديسمبر 2014)، ص 61.
4. التقرير الختامي لهيئة الإنصاف والمصالحة: **مرجع سابق،** ص 53.
5. الطيب بياض: **مرجع سابق،** ص 61.

صبّ فيه ألوان العذاب على الأبرياء من خيرة أبناء هذا الوطن»[1].

تعرّض المحتجزون بدار بريشة لأنواع مختلفة من التعذيب، ومن مظاهرها حسب أحد أقرباء محتجز سابق بهذه الدار، أن يُساق الوافد الجديد إلى مكان كان يستعمله صاحب الدار إسطبلا، واصطلح عليه المحتجزون اسم «الكورنة» أي المسلخة للتعبير عن حجم التعذيب داخله. إذ يجرد المحتجز من ملابسه ويمدد على كرسي طويل من الخشب، ويوثق رباطه إلى هذا الكرسي بحبل يمنعه من الحركة ليتلقى أنواعًا من التعذيب والإهانات والرفس والضرب المبرح بالحبال المنقوعة في الماء المالح، ثم يُعلق بعد ذلك مربوطًا من رجليه ويُدلى نصف جسمه الأعلى حتى حزامه في برميل يحتوي سوائل نتنة ، وكذا تمرير التيار الكهربائي على المناطق الحساسة من أجساد المحتجزين خاصة تحت الإبطين والأعضاء التناسلية[2].



واجهة كتاب من مظاهر التعذيب الحزبي أو دار بريشة الثانية.

عنف الأفراد تجاه النظام: تمرد وبيهي أنموذجًا

شكل تمرد عدي وبيهي حدثًا سياسيًا وتاريخيًا عرفه المغرب بعد حصوله على الاستقلال، وتجليًا واضحًا لعنف سياسي تجاه النظام، قام به شخص مدني وليس عسكري، وكاد أن يُحطم أركان الدولة الفتية. تعود حيثيات العنف السياسي الذي مارسه عدي وبيهي إلى مطلع سنة 1957، ذلك أنه بعد الظروف الصعبة التي عرفتها سنة 1956، قرر الملك محمد الخامس أن يقوم بزيارة لإيطاليا لأخذ قسط من الراحة، تاركًا لابنه الأمير المولى الحسن التكفل بصلاحيات السلطة الملكية[3]. ولم يكن يدور بذهن محمد الخامس أنه وهو يغادر المغرب ستعرف البلاد أكبر أزمة غداة الاستقلال، والتي تناسلت حولها التعابير، من انتفاضة تافيلالت، إلى تمرد عامل قصر السوق، إلى «القضية البربرية»، ذلك أنه بعد يومين من زيارة الملك لإيطاليا، أي في 18 يناير 1957 أعلن

1. المهدي التجكاني: **مرجع سابق**، ص 26-27.
2. مجموعة من المؤلفين: **الاعتقال والتقاسم الفضاءات والذاكرة**، (الدار البيضاء: منشورات المجلس الوطني لحقوق الإنسان، 2011)، ص 210.
3. عبد اللطيف جبرو: **حكاية عصيان تافيلالت**، (الرباط: مطبعة القادري، 2001)، ص 31.

عدي وبيهي عامل إقليم تافيلالت[1] انشقاقه وتمرده على السلطة المركزية مُلوحًا باستعمال قوة السلاح[2].

كان الرجل ينتمي حسب تعبير عبد الهادي بوطالب إلى «النزعة القبلية والعالم القروي قبل كل شيء ولم تكن له ثقافة»[3]، ولم يكن يبدو عليه أنه متمرد، بل يظهر عليه الكثير من الفطرة مع ميل إلى الإقدام إلى حد التهور. لذلك كان فعله مفاجئًا وغريبًا. فالعملية كانت أعمق وأعقد من أن يكون مدبرها رجلًا شجاعًا، ولكنه لم يكن على اطلاع بما يجري على الساحة الداخلية، ولا على المستوى الخارجي. أقدم عدي وبيهي على احتلال مركز البريد والمواصلات بميدلت[4]، وحظر على جميع أعضاء حزب الاستقلال الإقامة في منطقته، كما منع جميع الأنشطة التي لها علاقة بالحزب، وعهد إلى مساعده موحى أوهيرا[5] الذي كان يشغل منصب قائد ممتاز لدائرة ميدلت، وكان قبلها ضابطًا في الجيش الفرنسي، والذي اضطلع بدور محوري في عملية التحضير للعملية، بتدبير الأزمة على مستوى ميدلت، التي كانت بمثابة القاعدة العسكرية للتمرد، تحصن العامل المنشق والمتمرد في قصبته بكراندو في مفترق الطرق بين ميدلت وقصر السوق[6].

غداة هذا التمرد أصدر الديوان الملكي في 21 يناير 1957 بلاغًا أعلن فيه إقالة العامل وتعويضه بعامل جديد، وأوضح البلاغ أن هذا الإجراء اتخذ ضد عدي وبيهي لأسباب خطيرة لها علاقة بعدم الانضباط والطاعة[7]، ومما جاء فيه «عدي وبيهي لا يطيع أوامر ملكه، وهناك أياد أجنبية تمده بالمساعدة اللازمة وتجعل منه أداة تحركها على هواها»[8].

رفض العامل المخلوع الانصياع لقرار العزل، وتمادى في تمرده، وهدد بعرقلة كل تحرك للجيش. وصدرت الأوامر للجيش بالتحرك من مكناس في اتجاه قصر السوق، ثم أيضًا من ورزازات[9]، فيما وقفت ميليشيات عدي وبيهي بقيادة موحى أوهيرا بالقرب من ميدلت، وأضرمت النار في العجلات المطاطية، وهددت بإطلاق النار إن تقدمت قوات الجيش. وكان ضروريًا تجنب الاصطدام، خاصة وأن قوات عدي وبيهي كانت مدججة بأكثر من 6000 قطعة من البنادق والرشاشات الأتوماتيكية[10]. بعث الأمير الحسن (ولي العهد آنذاك) كلا من بلعربي العلوي[11] المنحدر من المنطقة، ولَحْسن اليوسي[12] وكلاهما عضوًا في مجلس التاج لمفاوضة عدي وبيهي. ويُشير عبد اللطيف جبرو إلى أن اللقاء الذي جمع الطرفين كان عنيفًا،

1. تافيلالت: منطقة تاريخية في الجنوب الشرقي للمغرب تدخل حاليًا في النفوذ الترابي لإقليم الرشيدية.
2. حسن أوريد: «تمرد عدي وبيهي»، **مجلة زمان**، (العدد 14، دجنبر 2014)، ص 55.
3. عبد الهادي بوطالب: **مرجع سابق**، ص 88.
4. ميدلت: مدينة مغربية تقع بين ثنايا جبال الأطلس المتوسط بمحاذاة جبل العياشي، مشهورة بإنتاج التفاح، تبعد عن العاصمة الرباط بحوالي 330 كيلومترًا.
5. موحى أوهيرا: مساعد عدي وبيهي، كانت له رتبة قائد في الجيش الفرنسي اكتسبها في صف المشاة المغاربة، عين بعد الاستقلال قائدًا لدائرة ميدلت. اعتقل بعد تمرد عدي وبيهي في يناير 1957، و نُفِّذ فيه حكم الإعدام صباح 30 أكتوبر 1961.
6. حسن أوريد: **مرجع سابق**، ص 55.
7. عبد اللطيف جبرو: **مرجع سابق**، ص 31.
8. موريس بوتان: **الحسن الثاني.. ديغول بن بركة ما أعرفه عنهم**، ترجمة رشيد برهونس، مراجعة عثمان بناني،(الدار البيضاء: دفاتر وجهة نظر، 2014)، ص 61.
9. ورزازات: مدينة تقع في الجنوب الشرقي للمغرب، تبعد عن العاصمة الرباط بحوالي 520 كيلومترًا.
10. حسن أوريد: **مرجع سابق**، ص 56.
11. بلعربي العلوي: يُسمى أيضا بشيخ الإسلام، من مواليد سنة 1884م، هو فقيه مغربي يُعتبر مؤسس السلفية الوطنية في المغرب، حيث جمع بين الدعوة إلى السلف ومقارعة الاستعمار، وأعطى روحًا.جديدة للسلفية التي لا تهتم فقط بتصحيح العقيدة بل تُولي أيضًا اهتمامًا بمصير المغرب ومتطلبات مستقبله. من أبرز تلامذته: علال الفاسي، ومحمد المختار السوسي. توفي سنة 1964.
12. لَحْسن اليوسي: من مواليد سنة 1903، شخصية وطنية، كان قائدًا على منطقة صفرو إبّان الاستعمار، رفض التوقيع على خلع السلطان محمد الخامس فأُلقي القبض عليه وسُجن في مدينة بنسليمان، ومن هناك تمّ ترحيله إلى الصويرة التي سُجن بها لمدة عامين (1953-1955). بعد عودة محمد الخامس من المنفى نُودي عليه ليُصبح أول وزير داخلية في عهد الاستقلال (ديسمبر 1955 - مايو 1956)، أُختير في أواخر 1956 ليكون عضوًا في مجلس التاج. تُوفي سنة 1971.

وكاد أن يؤدي إلى ما لا تُحمد عقباه، ثم عاد الوفد إلى الرباط من دون أن يحقق نجاحًا في مهمته[1]. ثم بعده أرسل ولي العهد كلًا من الجنرال الكتاني ومحمد عواد من الديوان الملكي من أجل التفاوض مُجددًا مع العامل المتمرد في مهمة محددة تتمثل في إقناع عدي وبيهي بالاستسلام مقابل حصوله على الأمان الذي يضمن له عفو الملك[2].

قبل عدي وبيهي وضع السلاح مقابل تمتعه بالأمان، أو العفو، وقد انتقل بناء على الوعد إلى مقر إقامة ولي العهد بتاريخ 26 يناير، حيث وضع في الإقامة الجبرية، وبذلك تمكن النظام من إعادة الأمور إلى مجاريها. يقول المهدي بن بركة[3] عن هذا التمرد «عشنا لحظات صعبة بسبب عصيان عدي وبيهي. كنا أمام امتحان قوة للسلطة المركزية. وقد أفلح صاحب السمو الأمير مولاي الحسن وحكومة جلالته في فرض سلطة الدولة أمام مزاعم موظف بسيط تجاوزه الزمان»[4].

أحيل عدي وبيهي إلى المحاكمة وكل العناصر الضالعة في التمرد[5]. ورغم أن المحاكمة كانت علنية وحظيت بتغطية واسعة من الصحافة، فإنها لم تُسفر عن إماطة اللثام عن ملابسات قضية التمرد. فكثير ممن عايشوا الأحداث ماتوا، ومنهم الصحافي الصقلي، الذي توفي في حادثة سير سنة 1960، أو بحكم مناصبهم كان محكومًا عليهم بواجب التحفظ[6].

من المؤكد أن ما يُسمى بالتمرد، دعا إليه وغذاه القائدان العسكريان الفرنسيان، قائد القوات العسكرية المرابطة بمكناس الجنرال دوفاري، والقائد العام بالرباط الجنرال كوني، وكان عدد القوات العسكرية في ذلك الوقت يناهز 100 ألف جندي. كان السبب الرئيس الذي دفع العسكريين الفرنسيين إلى تأليب العنصر الأمازيغي، هو الأحداث المأساوية التي شهدتها مدينة مكناس، التي خلفت مقتل 28 فرنسيًا في ظروف بشعة، وقد ربطت القيادة العسكرية الفرنسية ما بين الأحداث والخطاب الوطني للاستقلال وانصياعه لحركة تمرد جبهة التحرير الوطنية، ضد «الجزائر الفرنسية». لقد تحول عدي وبيهي، الذي حارب الفرنسيين بعد قصف عين الشعير[7]، في يونيو 1956 من عدو إلى حليف[8]. فكيف حدث هذا التحول؟

لقد ربطت القوى الفرنسية الاتصال بلَحْسن اليوسي، والذي بعد إزاحته من منصب وزارة الداخلية وتعيينه في منصب شرفي، وزيرًا للتاج، كان يُضمر العداء لعناصر حزب الاستقلال التي كان يعتبرها وراء هذه الإزاحة. فتمّ توظيف عدي وبيهي من قبل لَحْسن اليوسي، ومن قبل القيادة العسكرية الفرنسية. اعترف عدي وبيهي أمام المحكمة بالمنسوب له، وقدم معطيات مهمة، ومنها الترتيبات الأولية للتمرد التي كان قطب رحاها لَحْسن اليوسي. وانعقد أول اجتماع بمنطقة تونفيت[9] في أكتوبر 1956، تحت رئاسة لَحْسن اليوسي، وتكاثفت وثيرة الاجتماعات، ومنها اجتماع انعقد بسلا في بيت لَحْسن اليوسي حضره كل من الجنرال دوفاري والجنرال كوني، مع القائد الممتاز لميدلت موحى أوهيرا الذي كان ظاهريًا يقوم بالترجمة، بحكم أنه، كماسبقت الإشارة، كان ضابطًا فرنسيًا في الجيش الفرنسي. وقد طمأن لَحْسن

1. عبد اللطيف جبرو: **مرجع سابق**، ص 39.
2. موريس بوتان: **مرجع سابق**، ص 61.
3. المهدي بنبركة: من مواليد يناير 1920 بالرباط، هو سياسي مغربي يساري، انتسب إلى حزب الاستقلال، وظل عضوًا فيه إلى غاية سنة 1959 تاريخ تأسيسه رفقة يساريين آخرين لحزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، كان من أشدّ معارضي الملك الحسن الثاني. أختطف واغتيل بفرنسا عام 1965 .
4. **جريدة العلم**، العدد 26، (فبراير 1957).
5. يشير المحامي الفرنسي موريس بوتان أن لائحة المتابعين لم تضم المتآمرين الحقيقيين، وهم في رأيه مولاي الحسن، لَحْسن اليوسي، والجنرال كوني. موريس بوتان: **مرجع سابق**،ص 64.
6. عبد اللطيف جبرو: **مرجع سابق**، ص 38.
7. عين الشعير: واحة تقع في الجنوب الشرقي من المغرب على الحدود مع الجزائر، بين واحة فكيك شرقًا وواحة بوعنان غربًا، تبعد عن العاصمة الرباط بحوالي 795 كيلومترًا.
8. حسن أوريد: **مرجع سابق**، ص 57.
9. تونفيت: منطقة تقع وسط الأطلس المتوسط، تنتمي حاليًا لإقليم ميدلت.

اليوسي عدي وبيهي حين التقى لأول مرة بالضابطين الفرنسيين بالقول، مثلما ورد في شهادته أمام المحكمة: إنهما بجانبنا، هما من سيمدونك بالسلاح[1]. أما دور أوهيرا فلم يقتصر على الترجمة، بل كان ذي وعي سياسي يؤهله لإدراك أبعاد العملية، ومن خلال ما أدلى به أثناء المحاكمة يُعبر عن تصور للمغرب، مغاير لذلك الذي كانت تفرضه العناصر الحضرية، رغم أنه أثناء المحاكمة اختزل دوره في الترجمة وحدها. وقد أمد القائدان العسكريان عدي وبيهي بالسلاح، ولا تزال تحتفظ الذاكرة المحلية بالإمدادات التي تمّت عبر بشار من التراب الجزائري، وهو أمر لا يمكن أن يتّم دون إذن من السلطات الفرنسية بالجزائر[2].

استغل لَحْسن اليوسي سفر الملك ليُعلن أن العرش مُهدد، وأن البلاد في خطر، وكان مخططه مثلما أعلن أوهيرا أن ينتقل التمرد بعد أن تندلع شرارته من تافيلالت إلى خنيفرة[3]، ومريرت[4] وأزرو[5] بل وإلى الريف. وحسب المحامي بوتان[6]، والذي تتبع سير المحاكمة، وكانت تربطه علاقة بأوهيرا، فإن هذا الأخير كان يتستر على ملابسات القضية، التي كانت أضخم من أن يقوم بها عامل، له وسائل الإدارة، ولكن ليس له وعي سياسي، وشخصية نافذة. لقد طلب بوتان من أوهيرا أن يقول كل ما يعرف ونصحه خاصة بتدوينها خدمة للتاريخ، ولكنه رفض، لأنه توصل بوعود الإفراج عنه إن هو تستر على الأشياء التي يعرفها[7].أما لَحْسن اليوسي فقد استغل الوضع المتأجج، وبعد قرار عزله من منصب وزير التاج، فر إلى أسبانيا عبر مليلية.

أثناء المحاكمة أدلى الجنرال الكتاني بتصريح مهم جاء فيه، أنه خلال المفاوضات التي أجراها مع عدي وبيهي يعترف بأنه ليس خائنًا ، ويُكن الاحترام للقوات المسلحة الملكية لأنها تُجسد سلطة الملك، وأنه كان حريصًا على حقن الدماء. وأضاف الجنرال الكتاني، أنه أخبر عدي وبيهي أن ولي العهد يطلبه، وقد التمس مدة يومين أو ثلاثة للإستجابة لطلب ولي العهد. وعن السؤال الذي طرحته المحكمة فيما إذا كان عدي وبيهي صادقًا أجاب الجنرال الكتاني بالإيجاب. وانتقلت المحكمة تسأل عن ظروف تمتع عدي وبيهي بالأمان، وكان مما ورد في شهادة الجنرال الكتاني، أن عدي وبيهي طلب الأمان ليُسلم نفسه، وقد أعطاه الجنرال الأمان، بعد ما تبين صدقه ، وبدا أنه اقتنع بأنه ليس من الممكن تطويق التمرد دون إراقة للدماء، مما سيُعرض البلاد للخطر[8].

لم تأخذ المحكمة بعين الاعتبار الأمان الذي منحه الجنرال الكتاني لعدي وبيهي معتبرة أنه لا يوجد أساس قانوني له، رغم أنه يدخل ضمن الأعراف الجارية المعمول بها، بل والمقدسة، وله أساس في المذهب المالكي. وحكمت المحكمة على موحى أوهيرا بالإعدام[9]. وينقل المحامي موريس بوتان أنه اتصل بالمحجوبي أحرضان[10]. من أجل أن

1. موريس بوتان: **مرجع سابق**، ص 76-77.
2. حسن أوريد: **مرجع سابق**، ص 57.
3. خنيفرة: حاضرة إقليم يحمل اسمها، تقع بين جبال الأطلس المتوسط، تبعد عن العاصمة الرباط بحوالي 270 كيلومترًا.
4. مريرت: تقع في قلب جبال الأطلس المتوسط ، تبعد عن مدينة خنيفرة بحوالي ثلاثين كيلومترًا، وعن العاصمة الرباط بحوالي 240 كيلومترًا.
5. أزرو: تقع بين جبال الأطلس المتوسط تبعد عن العاصمة الرباط بحوالي 209 كيلومترًا .
6. بوتان: هو موريس بوتان، محام فرنسي من مواليد سنة 1928، عاش مدة طويلة بالمغرب، وكان من المناهضين للحماية الفرنسية، قبل أن تصير قضية اختطاف واغتيال المهدي بن بركة ملتصقة باسمه بعدما اختار الترافع عنها لعقود من الزمن، وهي القضية ذاتها التي دفعته إلى كتابة مُؤلف «الحسن الثاني..ديغول بن بركة ما أعرفه عنهم،»في مدة زمنية وصلت إلى عشر سنوات..
7. موريس بوتان: **مرجع سابق**، ص 79-89.
8. **المرجع السابق**، ص 76.
9. حسن أوريد: **مرجع سابق**، ص 58.
10. المحجوبي أحرضان: زعيم سياسي مغربي أمازيغي من مواليد سنة 1924، عاصر فترة الحماية الفرنسية على المغرب، كما عاصر الاستقلال، تقلد وظائف حكومية عديدة، وارتبط بحزب الحركة الشعبية الذي كان مؤسسه بعد الاستقلال.

يجنب واحدًا من إخوانه الأمازيغ الموت، ورد الأخير: «هذا أمر حزين جدًا. ولكنني مع الأسف الشديد لا أستطيع فعل شيء. ولكن ثق بي لن أغمض عيني طوال هذه الليلة»[1].

نُفذ حكم الإعدام في أوهيرا الذي كان على علم بملابسات القضية، ومثلما يقول بوتان، «إن الشاهد الوحيد الذي تابع من موقع المترجم ليس إلا، الأحاديث التي دارت ما بين مولاي الحسن، وكوني و لَحْسن اليوسي وعدي وبيهي، بالعربية والأمازيغية والفرنسية سيوارى الثرى حاملا معه سره»[2]. أما عدي وبيهي فقد صدر في حقه كذلك حكم الإعدام بتاريخ 30 يناير 1959، ولظروف غامضة أحيل على مستشفى ابن سينا، وترددت إشاعات عن الإفراج عنه بمناسبة عيد العرش 18 نوفمبر 1960. وقامت جريدة العلم بحملة تندد بالإشاعات، معتبرة العفو عن متمرد خطير مسبة في حق الشعب المغربي. وقد بدا أن الحملة حققت مُبتغاها ، إذ لم يُفرج عن عدي وبيهي الذي ظل قابعًا في المستشفى. وفوجئ الرأي العام بخبر وفاته في 30 يناير 1961، أي سنتين بالضبط من حكم المحكمة عليه، فالتمرد كان في يناير 1957، والحكم بالإعدام صدر في 30 يناير 1957، والوفاة تمّت يوم 30 يناير 1961[3]. هل هذا مجرد صدفة؟ هل مات الرجل ميتة طبيعية؟!

يبدو من خلال شهادات من زاروا وبيهي في المستشفى أنه كان في حالة صحية لا تبعث على القلق، قوي البنية. وقد راجت إشاعات مفادها أن عدي وبيهي ربما مات مسمومًا، أجري تشريح لجثة الرجل، وشكك الصحافي عبد اللطيف جبرو في نتائج التشريح، وفي نزاهة الطبيب الذي تولى تشريح الجثة[4]، والمثير في الأمر هو إقامة جنازة كبيرة لعدي وبيهي في قصبته بكراندو حضرها عامل إقليم الرباط ممثلًا عن العاهل المغربي، وكان من بين الحاضِرين المحجوبي أحرضان، ويُقال إنه ألقى كلمة مؤثرة بالمناسبة، لم يتردد في القول فيها: «إذا كان عدي وبيهي قد مات، فكلنا عدي وبيهي»[5].

بعد وفاة وبيهي صدر عفو شامل عن كل المتابعين، وسُمح للَحْسن اليوسي بالعودة إلى المغرب. أما الشخصان اللذان كانا يعرفان ملابسات القضية وهما عدي وبيهي وموحا أوهيرا فقد صحبا سرهما إلى القبر. لكن القضية لم تمنع من ظهور ارتدادات متتالية. فالمحامي بوتان يرى أن من أسباب تمرد الجيش على الملك ومحاولة انقلابه سنة 1971 تداعيات قضية عدي وبيهي[6]. يصعب الجزم بذلك، ولكن من المؤكد أنها خلفت استياءً لدى الجنرال الكتاني الذي امتهن شرفه العسكري، إذ لم يؤخذ بعين الاعتبار بالأمان الذي منحه لعدي وبيهي من أجل حقن الدماء.

العنف والعنف المضاد: انتفاضة الريف

ما إن حصل المغرب على استقلاله سنة 1956، حتى انفجرت الخلافات العميقة بين القوى السياسية المغربية حول السلطة، و طبيعة وشكل المغرب المستقل، كان القصر وحزب الاستقلال طرفي هذا الصراع الرئيسين، قبل أن تميل الكفة تدريجيًا لصالح المؤسسة الملكية التي استطاعت أن تستحوذ على جميع مقاليد السلطة، حتى قبل انتقال العرش إلى ملك جديد سنة 1961. وفي حمأة هذا الصراع المشحون، اندلعت أحداث الريف في الأشهر الأخيرة من سنة 1958 والأشهر الأولى من سنة 1959.

تُجسد انتفاضة الريف، أو ثورة الريف، تجليًا واضحًا للعنف السياسي بمغرب ما بعد الاستقلال، والذي تجلى في شكلين رئيسين: عنف شعبي أو غير رسمي موجه من سكان المنطقة إلى النظام وبعض رموزه، يتخذ في البداية شكل تظاهرات وعصيان مدني وإضرابات ثم تطور إلى عنف مسلح. وعنف رسمي أو دولتي موجه من النظام تجاه سكان منطقة الريف، ومارس فيه النظام العنف بشكل رهيب وبأسلحة ثقيلة

1. موريس بوتان: مرجع سابق، ص 79.
2. موريس بوتان: مرجع سابق، ص 80.
3. عبد اللطيف جبرو: مرجع سابق، ص 199.
4. المرجع السابق، ص 200.
5. موريس بوتان: مرجع سابق، ص 78.
6. المرجع السابق، ص 272.

من خلال أجهزته القهرية وخصوصًا الجيش بهدف استتباب الأمن والقضاء على القوى المعارضة والمناوئة له.

تعود حيثيات هذه الانتفاضة إلى تاريخ 2 أكتوبر 1958 عندما بادر قادة الحركة الشعبية بنقل رفات عباس المساعدي من فاس وإعادوا دفنه في أجدير في تظاهرة حاشدة حضرها أكثر من 5000 شخصٍ، وهو التاريخ الذي تزامن مع الذكرى الثالثة لتأسيس جيش التحرير[1]. وقد تطورت الأحداث بعد ذلك، ففي اليوم التالي اعتقل زعيما الحركة الشعبية المحجوبي أحرضان وعبد الكريم الخطيب. فاندلعت تمردات مسلحة في منطقة الأطلس المتوسط قادها مقربون من الحزب، لكن سرعان ما نجح الجيش في إخمادها[2].

اندلعت في الريف بالتزامن مع هذه التمردات، انتفاضة أشد ضراوة تحولت إلى معارك دامية مع قوات الجيش. ويصعب إيجاد علاقة مباشرة بين أحداث الريف وما وقع في الأطلس المتوسط أو ربطها بحزب الحركة الشعبية، الذي يبرئ قادته أنفسهم مما جرى في الريف. إذ يقول الخطيب: «رجع الهدوء إلى جميع المناطق ما عدا منطقة الريف، خاصة قبيلة بني ورياغل التي تطور فيها التمرد إلى معارك دامية مع القوات المسلحة الملكية، لم يكن للحركة الشعبية أي دور فيها»[3]. أما أحرضان فيقول: «اشتعل الريف بدوره تحت تأثير بعض العناصر التي انتهزت الفرصة للحديث عن الجمهورية الريفية. كان ذلك غير مقبول لنا جميعًا»[4].

جاءت أحداث الريف، إذن في إطار الزخم الذي تسببت فيه تمردات الأطلس المتوسط،رغم أن دوافعها مختلفة شيئًا ما. وقد لخصها دافيد مونغومري هارت في عدم رضا الريفيين عن زمن الاستقلال، بعد أن خاب ظنهم في الأحزاب السياسية، وفي الحكومة المغربية التي لم يسند لهم فيها أي منصب وزاري، بل ولم يسند لهم ولو منصب واحد من مناصب عمال الأقاليم[5]. وفي السياق نفسه يقول سعيد العمراني: «أما بالنسبة للإدارة، فقد تمّ تعويض الموظفين الأسبان بموظفين مغاربة متفرنسين، في الوقت الذي كانت شريحة واسعة من الريفيين يتواصلون فقط باللغة الأمازيغية الريفية والأسبانية، فأرغموا على التحدث باللغتين العربية والفرنسية والتعامل بها رسميًا في الإدارات، بل الوقوف أمام المحاكم وأمام قياد المخزن بدون مُترجم ولا وسيط»[6].

وبصفة عامة تعود الأسباب إلى الوضعية الاجتماعية والاقتصادية المتأزمة التي عاشتها المنطقة الشمالية خاصة خلال السنوات الأولى من الاستقلال. حيث عانى سكان الريف من البطالة، والحيف الجبائي، وضعف الإدارة وتجاوزات موظفيها، وقلة المستشفيات والطرق والمدارس، وتداعيات إغلاق الحدود مع الجزائر، وتوالي سنوات الجفاف الحاد، وضآلة القروض الفلاحية، وبطء الإدارة[7]. ولم تُفلح حملات توزيع المساعدات الغذائية في خريفي 1956-1957 في التخفيف من الأزمة، إذ كان أهل الريف يرون أن الاستقلال لم يعُد عليهم بالمنافع التي كانوا يرجونها[8]. يقول سعيد العمراني: «فيما عدا عودة الملك محمد الخامس إلى الحكم، لم يتغير أي شيء، وكان يبدو أن المغرب لم يستقل فعلًا»[9].

1. Douglas Elliott Ashford: **Political change in Morocco,** (Princeton, N.J: Princeton University Press, 1961), p.212.
2. باستثناء ثورة محند أوحدو في بني ورياين التي استمرت حتى عام 1959؛
خالد الغالي: «الريف ضحية حرب الإخوة الأعداء»، **مجلة زمان**، العدد 14، (دجنبر 2014)، ص 50.
3. حميد خباش: **عبد الكريم الخطيب مسار حياة**، تقديم نيلسون مانديلا، (الرباط: 1997)، ص 77.
4. Mahjoubi Aherdan: **op.cit,** p.378.
5. David Montgomery Hart: **The Aith Waryaghar of the Moroccan Rif: An Ethnography and History,** (Wenner-Gren Foundation for Anthropological Research, 1976), p.428-432.
6. سعيد العمراني: **انتفاضة 59/1958 بالريف كما رواها لي أبي**، (طنجة: مطبعة سليكي أخوين، 2014)، ص.27.
7. جون واتربوري: **الملكية والنخبة السياسية في المغرب**، ترجمة عبد الغني أبو العزم وعبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، (الرباط: مؤسسة الغني للنشر، 2013)، ص 322.
8. خالد الغالي: **مرجع سابق**، ص 52.
9. سعيد العمراني: **مرجع سابق**، ص 26.

صب الريفيون جام غضبهم على حزب الاستقلال الذي كان الطرف الرئيس في حكومات المغرب المستقل، وحملوه مسؤولية الوضعية الصعبة التي يعيشونها. فتكونت في الريف حالة شبه عدائية كامنة تجاه حزب الاستقلال، زاد من وطأتها تجاوزات الإداريين المحسوبين على الحزب الذين تم تعيينهم في منطقة الريف. أما المتسيسون من أهل الريف فكانوا يحملون على حزب الاستقلال سعيه الحثيث للاستحواذ على السلطة، ولو كان الثمن تصفية خصومه السياسيين. وإذا كانت الدولة قد نجحت بسرعة في احتواء تمردات الأطلس، فإنها وجدت صعوبة كبيرة، وتطلب ذلك وقتًا طويلًا، حيث استمر الغليان خاصة في محيط قبيلتي اكزناية[1] مثوى عباس المساعدي الأخير، وبني ورياغل[2] قبيلة محمد بن عبد الكريم الخطابي، اللتين صنفتا كمركز رئيس للاضطرابات[3]. فقد تعرضت مكاتب حزب الاستقلال في الريف للإغلاق وأحرق بعضها، وقطعت الطرق والمواصلات، وهجرت القرى والأسواق، وامتنع الناس عن الحرث وأداء الضرائب، وتحصن بعضهم في الجبال، وأعلن العصيان المدني احتجاجًا على ظلم السلطات الجديدة وممارستها[4].

بدأت انتفاضة الريف بحمل مطالب مشروعة وبسيطة ذات صبغة اجتماعية، مصحوبة بالتظلمات من ممارسات حزب الاستقلال، قبل أن تتحول إلى رفع شعارات سياسية. يقول العياشي أحمد العمراني الذي كان ضمن ثوار قبيلة آيت يطفت[5] بالحسيمة في شهادته التي رواها لابنه: «عند انطلاق الانتفاضة كان الناس يرددون شعار: يسقط حزب الاستقلال، عاش الملك. ليتحول هذا الشعار فيما بعد إلى: يسقط حزب الاستقلال، يسقط الملك، خاصة بعد أن اشتد القمع مع استمرار الانتفاضة وعدم استجابة القصر ولو لمطلب واحد من المطالب البسيطة والمشروعة للسكان»[6]. أما المطالب السياسية كما أوردها دافيد هارت[7] فتمثلت في جلاء القوات الأجنبية عن المغرب، وحل الأحزاب، وتشكيل حكومة وحدة وطنية، وعودة محمد بن عبد الكريم الخطابي[8]، وتمثيل الريف في الحكومة، وإطلاق سراح المعتقلين، وإقامة نظام ديموقراطي يُحقق رغبات الشعب، وغير ذلك من المطالب التي رأى سعيد العمراني أنها «تنأى عن كل مزاعم التمرد من أجل الانفصال التي ألصقها أعوان النظام بالريفيين ليُمارسوا عليهم ما شاءوا من تعذيب وإقصاء وتهميش»[9].

ورغم المحاولات التي بُذلت لتطويق الأزمة مثل تشكيل لجنة

1. اكزناية: قبيلة ريفية تقع مناطقها في شمال مدينة تازة تُشكّل مقدمة تمهيدية لسلسلة جبال الريف العميق، وتتكون أساسًا من ثلاثة مناطق تابعة إداريا لتازة، وهي أكنول، تيزي وسلي، بورد. أطلق عليها الفرنسيون مُثلث الموت لأن المناطق الثلاث تُشكل مثلثًا جغرافيًا تتوسطها جبال شامخة وهضاب وعرة، شكلت عاملًا مساعدًا على تكبيد الجيوش الفرنسية خسائر جسيمة خلال مرحلة الاستعمار، كما كانت المنطقة من أبرز معاقل جيش التحرير بقيادة عباس المساعدي إبان الخمسينات من القرن الماضي.
2. بني ورياغل: آيت ورياغل حسب التسمية الأمازيغية، أو آيت ورياغر، باللهجة الريفية؛ هي قبيلة ريفية تقع مناطقها في شمال المغرب قرب مدينة الحسيمة، ارتبط اسمها في التاريخ المعاصر بدورها الكبير خلال حرب الريف، حيث كانت إحدى دعائم المقاومة الريفية ضد الاستعمار الأسباني، وبانتساب محمد بن عبد الكريم الخطابي إليها.
3. خالد الغالي: **مرجع سابق،** ص 52.
4. سعيد العمراني: **مرجع سابق،** ص 28.
5. آيت يطفت: قبيلة ريفية تقع مناطقها في شمال المغرب و تُطل على البحر المتوسط، تشتهر بقصباتها التاريخية التي تدل على كفاحها العريق وحراستها لجبال الريف ضد الاحتلال الأوروبي. عرفت نزوحًا كبيرًا لسكانها جراء القمع الذي تعرضوا له عقب انتفاضة 1958-1959.
6. سعيد العمراني: **مرجع سابق،** ص 29.
7. David Montgomery Hart: **op.cit,** p.432.
8. محمد بن عبد الكريم الخطابي: زعيم سياسي وقائد عسكري، ولد في أجدير بالريف سنة 1883، تزعم المقاومة ضد الأسبان وهزمهم في معركة أنوال سنة 1921، واستسلم بعد معارك ضد الأسبان والفرنسيين سنة 1926، ونفي إلى جزيرة لارينيون، وبعد ذلك لجأ إلى مصر، وتوفي فيها سنة 1962.
9. سعيد العمراني: **مرجع سابق،** ص 30.

لتقصي الحقائق وتوجيه محمد الخامس نداء بالأمازيغية يدعو في القبائل الثائرة إلى الهدوء وحفظ النظام، واستقباله في 11 نوفمبر 1958 لوفد ممثلي الريف للنظر في المطالب سالفة الذكر، فإنها لم تستطع إنهاء التمرد، ولم تؤد سوى إلى هدوء نسبي سُرعان ما تمّ خرقه. وفي خضم هذه الظروف تمّت إقالة حكومة أحمد بلافريج[1] الاستقلالية، وتشكيل حكومة جديدة برئاسة عبد الله إبراهيم[2] التي ضمّت وزيرًا من الريف هو محمد المدبوح، فيما يُعتبر استجابة لأحد مطالب سكان الشمال بتمثيل الريف في الحكومة الجديدة. ورغم الآمال التي عُلّقت على هذه الحكومة وقدرتها على احتواء وتهدئة غضب الريفيين، إلا أنها ما لبثت أن تبخرت. حيث اندلعت ثورة أكثر تنظيمًا في معقل قبيلة بني ورياغل قادها شاب في الثلاثينيات من عمره هو محمد سلام أمزيان، والتحق به مسعود أقجوج[3] متزعمًا قبيلة كزناية وعبد الله الصنهاجي في ناحية الناظور[4].

أدرك القصر في ظل التطورات الجديدة أن التعامل بنوع من الليونة مع ثورة محمد سلام أمزيان المنظمة أمر ينطوي على خطرٍ كبيرٍ. لذلك لم يجد وسيلة لإخماد تمرد منطقة الريف غير تدخل الجيش، لا سيما بعد أن بدأ الثوار عملياتهم في بداية شهر يناير 1959 بغرض الاستيلاء على ميناء الحسيمة[5]. وصل ولي العهد الأمير مولاي الحسن القائد العام للقوات المسلحة الملكية إلى مدينة تطوان في 3 يناير 1959 رافقتة أركان الحرب الموالين له، ومنها قاد العمليات العسكرية ضد قوات سلام أمزيان. وقبل بدء العمليات وجه الملك محمد الخامس خطاب الفرصة الأخيرة إلى الريفيين منحهم فيه مهلة مدتها 48 ساعة فقط لتسليم أسلحتهم والعودة إلى الهدوء. لكن الثوار تجاهلوا الخطاب واستمروا في المقاومة مما فتح باب المواجهة الحتمية مع الجيش[6]. وبحلول 7 يناير انطلقت العمليات على الساعة الثانية عشرة ضد الثوار التي شارك فيها قرابة 20 ألف جندي، وقاوم سلام أمزيان ورجاله الذين كان يتراوح عددهم بين 2000 و3000 رجلاً بشراسة في البداية، وألحقوا هزائم بالجيش النظامي في بعض المواقع، إلا أنه لم يستطع الصمود إلى النهاية أمام هول العنف المُفرط الذي عوملوا به[7]، حيث استعملت حسب موريس بوتان قنابل «النابالم» وأحرقت القرى، واستعملت المدفعية الثقيلة والضربات الجوية[8]. وبعد ستة أيام من العمليات الضاربة سحقت خلالها الثورة المسلحة، نجحت قوات الجيش في بسط سيطرتها على المنطقة، ودخل ولي العهد مصحوبًا برئيس الحكومة عبد الله إبراهيم مدينة الحسيمة

1. أحمد بلافريج: ولد بالرباط سنة 1908، هو سياسي من زعماء الحركة الوطنية المغربية، عُين وزيرًا للخارجية في حكومة مبارك البكاي الثانية ، وترأّس ثالث حكومة في المغرب بعد استقلاله كما تولى وزارة الخارجية في نفس الحكومة، والمُمثل الشخصي للحسن الثاني، ووزير الخارجية في الحكومة الثامنة التي ترأس مجلسها الملك، وتُوفي في أبريل 1990.
2. عبد الله إبراهيم: ولد سنة 1918، مفكر وسياسي ورئيس أول حكومة في المغرب بعد الاستقلال بين 1958 و 1960، ورئيس حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية (المنشق عن حزب الاستقلال)، عرف بالرزانة السياسية والحنكة والنبوغ الفكري والإنتاج الفلسفي، واعتبر من ذاكرة الفكر السياسي المغربي، وتوفي في سبتمبر 2005.
3. مسعود أقجوج: ولد سنة 1916، مقاوم وقائد جيش التحرير بمنطقة أكنول، اعتقل خلال انتفاضة الريف، وأطلق سراحه فيما بعد،توفي في 11 يناير 1977..
4. الناظور: مدينة ساحلية تقع في منطقة الريف شمال شرق المغرب، تُطل على البحر المتوسط. تبعد عن العاصمة الرباط بحوالي 500 كيلومترًا؛ وانظر
خالد الغالي: **مرجع سابق،** ص 53.
5. الحسيمة: مدينة ساحلية، تحيط بها تضاريس جبلية، تقع في منتصف الشريط الساحلي المتوسطي المغربي، وتُعدّ من أهم حواضر منطقة الريف الكبرى. تبعد عن العاصمة الرباط بحوالي 490 كيلومترًا؛ وانظر
خالد الغالي: **مرجع سابق،** ص 53.
6. جون واتربوري: **مرجع سابق،** ص 324.
7. خالد الغالي: **مرجع سابق،** ص 53.
8. موريس بوتان: **مرجع سابق،** ص 73.

في 16 يناير. أما الثوار فتمّ تشتيتهم، وألقي القبض على عدد من قادتهم، فيما نجح سلام أمزيان قائد الانتفاضة في الفرار إلى أسبانيا، وعاد الهدوء في نهاية يناير، ويصعب إعطاء رقم دقيق عن عدد الضحايا، لكن بعض الذين شاركوا في الأحداث اعترفوا بأن القمع كان أكثر عنف[1]. وفي هذا الصدد تندرج الشهادة التي رواها العياشي أحمد العمراني[2] الذي كان ضمن ثوار قبيلة آيت يطفت بالحسيمة لابنه، أنه بعد استسلام قبيلته: «تمّ اعتقال جميع الذكور في المنطقة، الرجال والأطفال الذين يتجاوز عمرهم تسع سنوات، كما تمّت إهانة النساء، وخربت ممتلكات ومصالح الناس، حيث تعمد الجيش إفراغ الكازوال في الطحين والسكر في المحلات التجارية وقصف براميل الزيت والكازوال بالرصاص، بل حسب مصادر أخرى تبول العساكر على المواد الغذائية لتجويع الناس والانتقام منهم»[3].

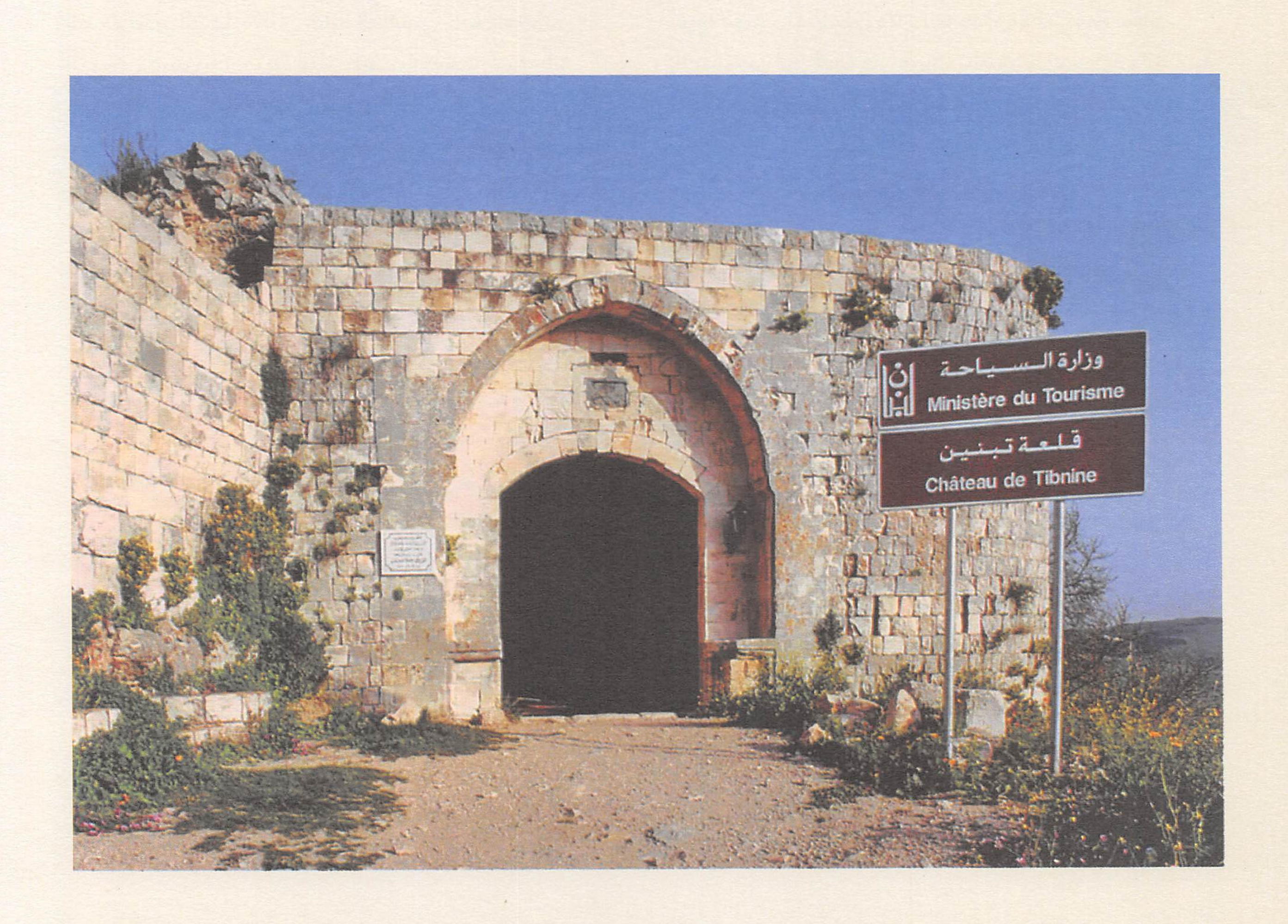
خاتمة

انطلاقًا مما سبق، يُمكن القول إن فترة 1956-1961 توصف بأنها أكثر الفترات على مستوى التاريخ السياسي المغربي المعاصر غموضًا وتداخلًا، بحكم ما ميزها من ملابسات عديدة ومظاهر الصراع السياسي والمناورات الحزبية والدسائس المخزنية. كما أنها فترة كانت محكومة بسياق سياسي وظرفية تاريخية خاصة، وبسيادة وضعية ثقافية واقتصادية واجتماعية وسياسية استثنائية شكّلت أهم عوامل استفحال العنف السياسي الذي تمظهر في أشكال أكثر حدة مثل التمردات العامة، وعمليات الاغتيال، والاعتقالات، وتدخل الجيش لقمع الانتفاضات، وتنفيذ الأحكام القاسية ضد قادتها.

ولم يقتصر العنف السياسي على هذه المرحلة، بل كان ذلك فقط مقدمة لمرحلة أخرى امتدت إلى بداية التسعينيات اشتد فيها العنف السياسي وكان أكثر حدة، ووظف في سياق الصراع من أجل السلطة، فبرزت تمظهراته الجسدية والنفسية من سجن، واغتيالات، ومحاولات انقلابية، ومحاكمات جائرة، وأحكام بالإعدام وسلب للأموال، ونفي وتشريد، وتُرجم هذا الصراع في مناسبات عدة، هي أجلى مظاهر العنف والعنف المضاد. وعمومًا يرسم العنف في الحقل السياسي التاريخي المغربي المعاصر صورًا عن علاقة الدولة برعاياها، وعلاقة الحاكم بالمحكوم، بعضه في إطار مؤسساتي منظم، وبعضه خارج هذا الإطار. ومن أبرز الملفات في هذه الفترة اغتيال المهدي بن بركة، التي استمرت قضيته في إزعاج أطراف داخلية وخارجية إلى يومنا هذا.

وإذا كان المغرب قد شهد العنف السياسي بشكلٍ كبير خلال الفترة المعاصرة، فإنه قد شكّل الاستثناء في تعاطيه مع هذه المرحلة المظلمة من تاريخه التي تعرف بسنوات الجمر والرصاص عبر إطلاق دينامية سياسية واجتماعية تمثّلت في تأسيس هيئة الإنصاف والمصالحة سنة 2003، وتنظيمها لجلسات الاستماع لضحايا انتهاكات حقوق الإنسان وغير ذلك من المبادرات التي كانت بمثابة اعتراف جماعي من الدولة ومن المكونات السياسية للمجتمع بانتهاكات الماضي، وتعبير عن إرادة توافقية للقطع مع هذا الماضي والتطلع للمستقبل.

1. جون واتربوري: **مرجع سابق**، ص 324.
2. العياشي أحمد العمراني: من مواليد سنة 1932 بقبيلة آيت يطفت، وهو أحد زعماء انتفاضة 1958-1959 بالريف، توفي يوم 4 نوفمبر 2014.
3. سعيد العمراني: **مرجع سابق**، ص 50.


وزارة السياحة
Ministère du Tourisme
قلعة تبنين
Château de Tibnine

همفري الثاني (ت. 1179م/575 هـ):

كونسطبل مملكة بيت المقدس الصليبية



أ.د. علي أحمد محمد السيد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب جامعة دمنهور

دكتوراه في الآداب، في التاريخ الوسيط من قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، بمرتبة الشرف الأولى. حصل على الأستاذية في عام 2009. تولى رئاسة قسم التاريخ من 2000-2011، ثم وكالة شئون التعليم والطلاب ووكالة الدراسات العليا والبحوث وقائمًا بعمل عميد الكلية حتي 2016، منشور له العديد من الكتب والدراسات والأبحاث العلمية، وشارك في عدد من المشاريع البحثية محلية ودولية، وترأس اثنين منها، كما حكم عشرات من الأعمال العلمية، وشارك في ندوات ومؤتمرات علمية محلية ودولية.

حصل على شهادات تقدير وجوائز علمية من جامعة الإسكندرية، وجامعة دمنهور، وجامعة بيروت، وجائزة جامعة الإسكندرية للتشجيع العلمي عام 2000. وعضو في عدد من المؤسسات والمراكز البحثية والجمعيات العلمية والاجتماعية.

جميع الصور الواردة في هذا المقال من اختيار الكاتب

يهتم البحث بشخصية لعبت دورًا واضحًا في التاريخ الصليبي؛ إذ نجح في تأسيس إقطاعية صليبية، وبرز دوره العسكري قائدًا صليبيًا مدافعًا عن كيان الصليبيين في بلاد الشام، مما جعله يعتلي منصب كونسطبل مملكة بيت المقدس الصليبية ، وتطور وضعه الاقتصادي والعسكري وتنامت مكانته، فغدا أهم معاوني الملك، وقضي نحبه في إحدى المعارك عام 1179م/575هـ تاركًا أسرة صليبية حاكمة.

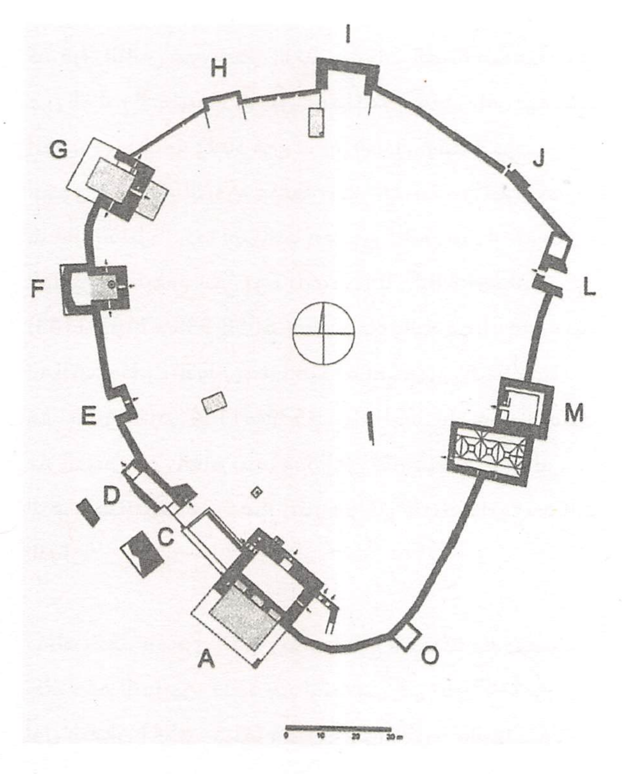
مقدمة

يهتم البحث بشخصية صليبية عتيدة لها شأنها، ملأت الساحة الصليبية حركة وضجيجًا، تلك هي شخصية القائد الصليبي همفري الثاني[1] Hemfree II، الذي وصفه المؤرخون بإجماع رأيهم على أنه قائد صليبي شجاع متميز؛ ويقول عنه ابن الأثير، وهو من المؤرخين الذين يقفون خصمًا للصليبيين: «وما أدراك ما همفري؟ به كان يُضرب المثل في الشجاعة والرأي في الحرب»[2]، أما الحافظ ابن كثير فيصفه قائلًا: «أشجع فرسان الفرنجة»[3]، ومن الجانب الصليبي جاءت شهادة وليم الصوري مختصرة؛ حيث قال فيها عنه: «رجل ذو همة عالية وشجاعة»[4].

وقد ورد في التاريخ الصليبي العام من أسماء سادة إقطاعية تبنين toron الصليبية- آل همفري- أربعة رجال يحملون هذا الاسم، ذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري ثلاثة منهم بداية من همفري الثاني؛ باسم همفري دي تورون مسلسلين، وفيما يخص همفري الأول فقد اكتفى المؤرخ ألبرت دي إكس بالإشارة إليه باسم «همفري الكبير». أما المُسمى العربي له فهو شيخ الجبل- بالطبع ليس المقصود به مُسمي

1. ورد في المصادر الإسلامية والأجنبية برسوم مختلفة؛ إذ ذكرته الأولي باسم همفري أو هنغري انظر: العماد الأصفهاني (ت.597هـ/1200م) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد: **الفتح القسي في الفتح القدسي**، تحقيق محمد محمود صبيح (القاهرة: 1965) ص80، 205؛ ابن الأثير (630هـ/1132م) عز الدين أبوالحسن علي بن أبي الكرم بن عبدالواحد الشيباني الجزري: **الكامل في التاريخ**، 12ج، (بيروت: 1979)، جـ11، ص353،453، 537؛ ابن واصل (ت 697هـ/1298م) محمد بن سالم جمال الدين: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، 3ج، تحقيق جمال الدين الشيال، (القاهرة: 1953– 1960)، جـ2، ص72-73.
   أما المصادر الأجنبية فأوردته همفري وأونفروا Onfroi، وأمفرد Amfrid ، ورينفرو دي تورون Reunfru du Touron . راجع علي سبيل المثال: Ernoul: **La Chronique d'Ernoul, et de Bernard le Trésorier,** ed. Mas latrie, (Paris: 1871), p.267.
2. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، جـ11، ص453.
3. ابن كثير (ت774هـ/1373م) ابن كثير القرشي عماد الدين أبوالفدا بن عمر: **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله التركي، 16 ج، (القاهرة: دار الهجرة، 1998)، جـ14، ص442.
4. William of Tyre: **A History of Deeds Done Beyond the Sea,** 2 Vols., Trans. By Babcockm and Krey, (New York: 1943), vol 2, p.87.

شيخ الجبل الذي كان يُطلق على زعيم طائفة الحشاشين- لاستحواذه على منطقة تِبنين الجبلية الواقعة على بُعد بضعة أميال في ظهير صور، وتمكن همفري الأول من تأسيس إقطاعية صليبية له فيها حول قلعة «تبنين» التي تأسست فيما بين عامي (1103-1105م/ 497-499هـ) على حساب أراضي الجليل[1]. وقد أشارت الوثائق إليه ثلاث مرات في عام 1109م/ 503هـ وعام 1115م/509هـ وعام 1128م/522هـ، كشاهد على العقود، وحمل همفري في الوثيقتين الأخيرتين لقب دي تورون[2] De Toron وخلفه على تبنين ابنه همفري الثاني الذي أشار إليه وليم الصوري في هذا الموضع باسم همفري الصغير، حيث كانت أول إشارة إليه في عام 1137م/ 531هـ، وظل يذكره متتبعًا أطواره ودوره الصليبي إلى أن وصفه بالشيخ[3] في سني عمره الأخيرة.



تخطيط قلعة تبنين التي حكمها همفري الثاني

Ahmed Sheir, Tibnin in the Age of the Crusades, p. 36; Mathias Piana, "Die Burg Toron (Qal'at Tibnīn) Im Südlichen Libanon" in Burgen und Städte der Kreuzzugszeit: Studien zur international Architekturund Kunstgeschichte 65 (Petersberg: Michael Imhof Verlag, 2008), p. 400.

بروز الدور العسكري الصليبي لهمفري الثاني

برز الجهد العسكري لهمفري الثاني في سنوات حكمه لتبنين، إذ ظهر كأبرز القادة الذين خرجوا مع الملك فولك دي أنجو Fulk De Anjou (1131-1143م/526-538هـ) لتوطيد سلطة الصليبيين في شمال الشام، والتصدي لتهديدات قوات عماد الدين زنكي، حاكم إمارة الموصل وحلب المتنامية، التي وصلت توسعاتها وغاراتها للذروة عند تخوم المملكة الصليبية الشمالية عام 1140م/534هـ[4]. كما ظهر اسم

1. William of Tyre: **OP. Cit.**, vol ,II ,p.19-20; Albert d'Aix.: **Historia Hierosolymitana,** ed: R. H. C. H. Occ., Tome IV, (Paris: 1879), pp.265–713;

ابن القلانسي (ت555هـ/1106م) أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي بن محمد: **تاريخ دمشق**، نشر سهيل ذكار، (دمشق: 1983)، ص 385-386.

التاريخ المحدد بإقامة قلعة تبنين من وضع المؤرخ ستيفن رنسيمان، وأسند بناءها إلي «هيو دي سانت أومر Hugu de Saint Omer " سيد الجليل، وذلك فوق قمة بارتفاع 870 مترًا؛ بغرض التمهيد لإسقاط صور. راجع:

Deschamps,P. :**Les Chateaux des Croises en Terre-Sainte"la defense du royaume de Jerusalem",** 2vols., (paris: 1939), vol.I,p.112 , Runciman,S.: **A History of the Crusades,** 3 vols., (Cambridge:1951-1954), vol. II, p.95

2. Rochricht.R.: **Regesta,** Doc.No.59,79,127
3. William of Tyre: **OP. Cit.,** vol.II , pp.87 ,218-251
4. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، جـ11، ص73-74؛

Anonymous: "Syriac chronicle ,The First and the second Crusades",ed.and Trans.by A.S. Tritton, **The Journal of the Royal Asiatic Society,** (London:1933), pp73-79

همفري الثاني في بعض الأنشطة ذات الصلة بتشييد عدد من القلاع الصليبية؛ لتأمين المملكة كرد فعل على تهديدات زنكي، منها قلعة جلعاد في شرق الأردن، وقلعة كوكب الهوى في غور الأردن، وقلعة صفد القريبة من تبنين في شمال الجليل[1]. كما استأنف همفري الثاني مشاركاته مع الجيش الصليبي في عهد بلدوين الثالث Baldwin III (1143-1163م/538-558هـ) بعد وفاة والده فولك في عدة حملات، وكانت الأولى منها ضد أهالي حوران الدماشقة في شرق الأردن 1144م/539هـ، وكذلك شارك في اجتماع عكا الحربي في العام نفسه، والذي تقرر فيه نجدة أهالي الرها الصليبيين من حصار زنكي؛ ولكن التحرك جاء بعد فوات الأوان[2].

كذلك شهد همفري الثاني تجدد صراع المملكة مع دمشق تحت حكم البوريين، بداية من السادس من يناير1147م/ أول شعبان 541هـ، حينما وصل «التونتاش»- واليها على حوران- إلي بيت المقدس طالبًا المعونة بغرض الاستقلال عن دمشق مقابل تقديم بلدتي صرخد وبصرى للصليبيين[3]، وحرص همفري الثاني مع بقية القادة والملك الصليبي على اقتناص هذه الفرصة، وخرجوا لتمكين «التونتاش» من غرضه في حوران واستلام البلدتين؛ إلا أن حاكم دمشق معين الدين أُنر رصد هذه التحركات، وبادر بمخاطبة نور الدين طالبًا النجدة، وتمكنت المقاومة الشعبية من إعاقة حركة الجيش الصليبي، في حين وصلت قوات نور الدين المنجدة لتجتمع قوى المسلمين مع تقلبات الطبيعة على معسكر الفرنج، وهو ما أجبرهم على الانسحاب في مشهد شديد الصعوبة، صوره وليم الصوري بقوله: «يجرون أذيال الخيبة»[4]، وهكذا تصاعد نجم همفري الثاني العسكري في الساحة الصليبية.

وتعاقبت المواقف كي تُبرز شخصية همفري الثاني القيادية، وخاصة في جانبها العسكري، فها هي ذي أوروبا المسيحية تنتفض من أجل إنقاذ الكيانات اللاتينية التي شرعت في التصدع في الشرق، حينما سقطت إمارة الرها بشكل نهائي في يد نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي عام 1146م/ 541هـ[5]، وبدلًا من قصد الرها لإعادتها إلي المعسكر الصليبي اجتمع قادة مملكة بيت المقدس مع الغزاة بعكا في 24 يونيو 1148م؛ لتحديد وجهة أخرى للجيوش الجرارة القادمة من فرنسا وألمانيا تحت قيادة لويس السابع Louis VII ملك فرنسا (1137-1180م/531-576هـ)، وكونراد الثالث Conrad III ملك ألمانيا (1138-1152م/532-546هـ)، وكان همفري الثاني من أبرز القادة الذين انبروا على الساحة في هذه الأحداث، إذ شارك بوضوح في تحديد دمشق هدفًا للحملة في المجمع العسكري الكبير، وأكد وليم الصوري على أهمية الدور الذي لعبه نبلاء المملكة الكبار في أحداث تحركات الحملة الصليبية الثانية، وذلك لمعرفتهم الدقيقة بظروف وطبوغرافية الأماكن؛ لوضع وتنفيذ الخطط الملائمة لمجريات المعارك، وأوضح المؤرخ أنهم شكلوا مع قوات ملكهم بلدوين الثالث جيشًا قائمًا بذاته، هو أحد الجيوش الثلاثة الرئيسة التي خرجت صوب دمشق عبر الجليل، وكان هؤلاء النبلاء أداة الحسم لفاعليات الحملة فيما اعتبره المؤرخ دورًا خائنًا؛ حينما هادنوا الدماشقة في الخفاء وعملوا على إفشال الحملة لعدة دواعٍ؛ منها ما واجهوه من شح في المؤن، ومقاومة شعبية، وتحرك قوات

1. William of Tyre: **OP. Cit.**,vol.,II, pp.102-105 ,185 ,Fedden ,R.and Thompson,J:. **Crusader castles,** (London: 1956), p22 ; Grousset, R.: **Histoire des Croisades, et du Royaume France de Jerusalem,** 3 Tome, (Paris: 1948), vol. II,p40.
2. William of Tyre: **OP. Cit.**,vol ,II , p142 ; Michel Le Syrien: **Chronique de Michel le Syries,** ed., With French Trans. by J. B., Chabot, 4 Vols., (Paris: 1899–1924),vol II, pp261-262;

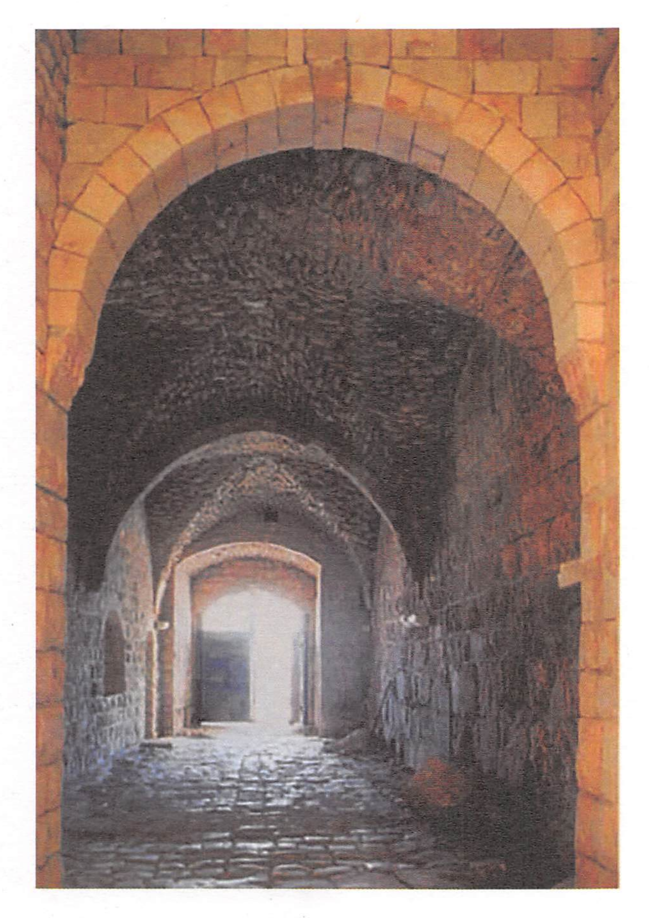
ابن القلانسي: ذيل **تاريخ دمشق**، تحقيق أمدروزو، (بيروت: 1908)، ص 279.

3. أبو شامة (ت 665هـ/1267م) شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل: **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، 2ج، (القاهرة: 1287-1288هـ)، جـ1، ص50.
4. William of Tyre: **OP. Cit.**, vol.II , pp 148-156

ابن القلانسي: ذيل **تاريخ دمشق**، ص289-290.

5. William of Tyre: **OP. Cit.**,vol ,II , pp 148-156

ابن القلانسي: ذيل **تاريخ دمشق**، ص289-290.



المدخل الشمالي الغربي لقلعة همفري الثاني "تبنين"

Ahmed Sheir, Tibnin in the Age of the Crusades, p. 37; Mathias Piana, "Die Burg Toron," p. 401.

نور الدين محمود[1]، فضلًا عن رغبتهم في الإبقاء على مصلحتهم مع الدماشقة من خلال الهدنة المتقطعة والمعقودة بين الطرفين منذ حوالي أربعة عقود[2]، وبعد مرور حوالي خمسة أيام من الحصار لدمشق، تقرر فجأة العودة عنها بعد طول معاناة. والواضح بعد تحليل المصادر المعاصرة أن همفري الثاني والأمراء المحليين معه بنوا مواقفهم العسكرية من الحملة بناءً على الوضع الميداني السيئ، واضعين في الاعتبار العمل على عدم سقوط دمشق في يد نور الدين، واستمرار حالة السلام معها على حساب أطماع ملوك ما وراء البحار.

ونلحظ دور همفري الثاني المتميز أيضًا في التخطيط لعملية الانسحاب بأقل خسارة ممكنة، وتأمين الجيوش الأوروبية للعودة إلى القدس في دروب يجهلونها وفي ظروف نفسية صعبه للغاية. ومن هذا وذاك تتجسد الملامح العسكرية المميزة للقائد همفري في مراحل حياته الأولى.

ولم يمض سوى عامين تقريبًا، إلا وخرج همفري الثاني على رأس جيش مملكة بيت المقدس الصليبية في مهمة عسكرية للمناورة ضد قوات نور الدين في عينتاب (96 كم شمال حلب) بغرض إنقاذ ما يُمكن إنقاذه من بقايا إمارة الرها، وأبلى في مهمته بلاءً حسنًا[3]، خاتمًا هذه المرحلة من حياته كقائد متميز. وهكذا سجل همفري الثاني جانبًا من سيرته الذاتية المجيدة في مجال الحرب والتخطيط الاستراتيجي عونًا لملك بيت المقدس.

وفي مجال الحكم والسيادة تشير وثيقتان ترجعان إلى عام 1149م/ 544هـ وعام 1152م/ 547هـ إلى شخص يُدع همفري حاملًا لقب رئيس حامية قلعة سانت إبراهام Castella Santi Abraham ، بعد أن خلف هيو دي سانت إبراهام الثاني Huga De St. Abraham II (1136-1149م/531-544هـ) في

1. William of Tyre: **OP. Cit.**,vol.II , pp183-191;

ابن القلانسي: ذيل **تاريخ دمشق**، ص 297-298.

وجدير بالذكر أن المؤرخين السريان كانوا أكثر وضوحًا في إتهام نبلاء المملكة بالخيانة، وتفاوتت تقديراتهم للرشوة التي تلقوها من الدماشقة ما بين ثلاثمائة ألف دينار ذهبي وخمسين ألفًا، والتي سرعان ما اكتشف أنها مزيفة. راجع:

Michel Le Syrien: **Chronique de Michel le Syries,** p.276 ;Anonymous: **Syriac chronicle,** pp. 98-99.

2. Grousset, R.: **Histoire des Croisades,** vol. II ,pp263-269

3. ابن القلانسي: ذيل **تاريخ دمشق**، ص299-300، أبو شامه : **كتاب الروضتين**، جـ1، ص 52؛

William of Tyre: **OP. Cit.**,vol ,II , pp 148-156.

هذا المنصب[1]، والثابت أن مسمى سانت إبراهام هو الاسم اللاتيني الصليبي لمدينة الخليل- حبرون Hebron (37 كيلو مترًا جنوب القدس)، وهناك وثيقة خاصة بطائفة آل عازر Saint Lazare الرهبانية الصليبية مؤرخة في 24 يونيو 1148م/ 4 صفر 543هـ تذكر أن بطريرك بيت المقدس فوشيه Fouche (1145-1157م/540-553هـ) قام بتثبيت المنحة التي قدمها همفري دي تورون (الثاني) إلى رهبان الدير القريب من القدس، وكانت عبارة عن عشرة قناطير(يزن القنطار قرابة مائة وخمسين كيلو جرامًا) زبيب وعشرة بيزنطات[2]، يتمّ الحصول عليها سنويًا مما تُغله الأرض القريبة من الخليل، وذلك في حضور وموافقة كلٌّ من زوجته وابنه، وكان من بين الحضور الشهود فارسان من الخليل، وأحد كبار الرجال من ساكني الخليل السريان، فضلًا عن «جويدو» سيد إقطاعية تل المعشوقة (إسكاندليون) Guid do Mine Scandeleon، وهو من أقارب همفري، وكان قد حصل على هذه الممتلكات منحة له من هيو دي سانت إبراهام الثاني السيد السابق للخليل[3]، وبالربط بين الوثائق يتأكد أن همفري الثاني حكم الخليل بعد أن حاز أراضي فيها، جراء قرابته من «جويدو»[4].

وفي دراسة سابقة للباحث عن «الخليل عصر الحروب الصليبية» أشار إلى وثيقة أخرى ترجع إلى نوفمبر 1234م/ ربيع الأول 642هـ لا تدع مجالًا للشك أن أسرة همفري امتلكت الخليل، نظرًا لأنها تتضمن تقديم أليس Alice - سليلة سادة تبنين- ثلاثين بيزنطًا سنويًا منحة لرهبان دير القديس عازر في بيت المقدس الواقع في "بيثاني Bethani" [5] (قرية الخضر كيلومترين جنوب القدس). وبالرغم من الوضع الاسمي لأليس بالوثيقة- بحكم أن الخليل كانت في يد المسلمين آنذاك-إلا أن الوثيقة تؤكد ملكية الأسرة للخليل.

هكذا توافرت لهمفري الثاني بعض مقومات القوة والنفوذ، وأكدت ذلك بعض المظاهر؛ إذ ورث همفري المنطقة الجبلية حيث «تبنين» وما جاورها من أراضٍ قابلة دائمًا للتمدد، كما أهلت ملكية همفري للأرضي حول الخليل لتولي السلطة فيها، الأمر الذي دعم موقفه العسكري والإقطاعي بين نبلاء المملكة، ويتضح ذلك من ورود اسمه في الوثائق ضمن أعضاء محكمة الملك Court de Roi، كبرى محاكم الدولة، ومن ناحية أخرى أتى اسمه ضمن أبرز القادة الذين استقبلوا قادة الحملة الصليبية الثانية، ووجهوها بما فيه صالح المملكة، فضلًا عن جهوده الحربية الأخرى التي اتسمت بالتعددية والانتشار، وبذلك تراكم لهمفري رصيد من الأعمال، جعلته لصيقًا بأصحاب القرار في مملكة بيت المقدس الصليبية.

همفري الثاني كونسطبلًا وإقطاعيًا في مملكة بيت المقدس

التفت الملك الصليبي بلدوين الثالث المتطلع إلي الانفراد بالسلطة في المملكة حوله، فوجد شخصية همفري الثاني المخلصة له لتُسانده في تحقيق غاياته، وبالفعل كان موقفه المؤازر للملك هو أبرز المواقف المساندة له في صراعه مع أمه ميسلند Melisende لأجل الوصول إلى العرش. ويتلخص هذا النزاع في أنه عندما بلغ بلدوين الثانية والعشرين من

1. Bresk – Bautier J.: **Le Cartulaire du Chapitre de Saint Sepulcre de Jerusalem,** (Paris: 1984); Rihricht, R.: **Regesta,** Doc. No169,255.

2. البيزنط: عملة ذهبية ظهرت نتيجة قيام إمارات صليبية على الحدود الإسلامية والبيزنطية، وكانت بمنزلة عملة ثالثة من عملات التجارة الدولية بعد النوميسما البيزنطية، والدينار الذهبي الإسلامي، وقد جاءت النقود الذهبية التي سكها الصليبيون تقليدًا لدنانير الخليفة الآمر الفاطمي، وأطلق عليها في المراجع الغربية اسم البيزنط الإسلامي Besant Sarracens، وأُطلق عليها في المصادر العربية اسم الدينار الصوري. محمد إبراهيم محمد خلف: **الأوضاع الاقتصادية في صور (1124-1291م./518-690هـ.)**، رسالة ماجستير غير منشورة، (أسيوط: كلية الآداب،جامعة أسيوط،2010)، ص185-186.

3. De Marcy: **Fragment d`un Castalaire de un Castalate de Saint – Lazare,** Doc. N.VI p.127; Roehricht, R.,: **Regesta,** Doc.No251.

4. Tiblle, S.: **Monarchy and Lordships in the Latin Kingdom of Jerusalem,** (Oxford: 1989), pp70-71.

5. De Marcy: **OP. Cit.,** p.127;

كذلك، علي أحمد السيد: **الخليل والحرم الإبراهيمي عصر الحروب الصليبية، 1099-1187م/ 492-583هـ.**، (القاهرة: دار الفكر العربي، 1998)، ص 139-140.

عمره في عام 1152م/ 547هـ أصبح من حقه أن يتوج ملكًا، وترتب على ذلك أن انقسم بارونات المملكة إلى فريقين متنازعين، وجد همفري مصلحته في الانضمام إلى فريق بلدوين والتقرب بشكل أوثق إليه، وآثر الملك ألا يستخدم القوة، فدعا إلى عقد المجلس العام في المملكة لحسم هذا النزاع، وتحدد يوم 30 مارس/ 21 ذي الحجة من العام ذاته، كموعد لعقد المجلس، وفيه اصطدم بلدوين بالبطريرك فوشيه الذي أراد، بإيعاز من الملكة، أن يتوجها مع ابنها في اليوم نفسه، وتمّت تسوية المشكلة على مرحلتين: في المرحلة الأولى قَبِلَ بلدوين أن تُقسّم المملكة بينه وبين ميلسند، على أن تحتفظ لنفسها ببيت المقدس ونابلس وأجزاء من جنوب المملكة. وفي المرحلة الثانية تمكن الملك من أن يستحوذ على بيت المقدس، وأجاز لأمه بأن تحتفظ بنابلس، والجهات المجاورة لها فقط طيلة حياتها، وبذلك أصبح لبلدوين السيادة العليا على المملكة، في حين انسحبت ميلسند من أمور الحياة العامة، وانشغلت برعاية الكنيسة[1]. وهكذا قدم همفري دي تورون الثاني كل ما لديه من إمكانيات دعمت موقف الملك في النزاع على العرش، ومن ثم غدا جديرًا بمزيدٍ من الثقة فيه.

وبعد وقت قليل حصد همفري الثاني ثمرة تعاونه الصادق والقوي مع الملك بلدوين الثالث، حينما عينه في منصب الكونسطبل في مملكة بيت المقدس، وذلك في نفس العام، الذي وقعت فيه أحداث تنصيب بلدوين ملكًا منفردًا على العرش[2]، مما يؤكد الارتباط بين الحدثين، حتى تولى منصب الكونسطبل مكافأة على ما قدمه من جهود.
وللوقوف على أهمية تلك المكافأة يجدر بنا أن نسلط الضوء على ملامح ثقل المنصب؛ فالكونسطبل الملكي يُصدر أوامره للقادة الأصغر في ضوء أوامر الملك، وفي حالة غياب الأخير يقوم الكونسطبل بقيادة الجيش، وإدارة العمليات الحربية، ويُصدر قرارات قضائية على الجند المخالفين بعد استشارة مجلس الحرب المكون من بلاط الملك؛ وبناء على ذلك أصبح همفري الثاني أهم شخصية في إدارة مملكة بيت المقدس بعد الملك الصليبي؛ لما لمنصبه الجديد من سلطة عسكرية رائدة، فهو القائد العام للجيش، فضلًا عن أن هذه الوظيفة جعلت يده متغلغلة في الإقطاعات الخاضعة للملك الصليبي كافة، من خلال سادتها النبلاء الذين يخضعون لأوامره.

وتجدر الإشارة إلى أن همفري الثاني تبوأ منصب الكونسطبل الحساس والمهم، في وقت أخذ فيه ميزان القوة في الاختلال لصالح المسلمين تحت قيادة نور الدين محمود زنكي، الذي جعل مسئولية همفري أكثر حرجًا، في ظل تصاعد الصراع بين المعسكرين الصليبي والإسلامي الذي أخذ يلم شعثه، ويعمل على بناء جبهة قوية في ظل حُكمه الرصين.

وفي المقابل كانت أولى مهام همفري الثاني تتمثل في إحداث نقلة رئيسة في استراتيجية المعارك في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي؛ فكانت الخطوة الأولى فيه المشاركة في إسقاط عسقلان، حين تواترت الأخبار بشروع كل من الدماشقة ومصر في التقارب فيما بينهما، بوساطة من المؤرخ والسياسي المحنك أسامة بن منقذ، وفي الوقت الذي عانت فيه مناطق شمالي المملكة من تهديدات نور الدين محمود العسكرية حرص الملك بلدوين الثالث على تأمين جانبه من جهة الجنوب، حيث مصر، باستيلائه على عسقلان[3]، التي تعرضت للحصار الشديد لأسابيع طويلة اشترك فيه جميع قادة المملكة؛ بما لديهم من قوة، وبرز همفري الثاني أثناء الحصار قائدًا أعلى؛ مما اضطر أهلها للتسليم بشرط تأمين خروجهم، وذلك في 22 أغسطس 1153م/ 29 جمادى الأولى 548 هـ[4]، وكان سقوط عسقلان يمثل انتصارًا مهمًا للمعسكر الصليبي على طريق التوجه نحو مصر، وأيًا كان الأمر فقد أخذ همفري الثاني يؤكد على بروزه

1. William of Tyre: **OP. Cit.**, II , pp.205-207.
2. William of Tyre: **OP. Cit.**, vol ,II ,.p74
3. أسامه بن منقذ: **كتاب الاعتبار**، أو حياة أسامة بن منقذ، تحقيق فيليب حتى، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.)،ص 10 ؛ وانظر أيضًا: William of Tyre: **OP. Cit.**, vol ,II ,p.225.
4. ابن القلانسي: ذيل **تاريخ دمشق**، ص 320-321، أبو شامة: **كتاب الروضتين**، جـ2، ص 89 ؛ هذا ولم يوفق وليم الصوري في تحديد تاريخ سقوط المدينة، ويمكن مراجعة تفاصيل أحداث الحصار والسقوط في : William of Tyre: **OP. Cit.**, vol. II, pp.225-231.

بين أقرانه من القادة الصليبين، بما أثبته من جدارة في إدارة الحصار والوصول إلى تحقيق الهدف.

وفي قفزة إضافية أخرى لهمفري الثاني في مشهد يتكرر عادة مع القادة ذوي الطموح والساعين إلى السلطة، أقدم همفري على الزواج من ابنة رينيه دي بروس Renie de Brus الذي كان سيدًا لإقطاعية "بانياس- باليناس" وقلعتها الصليبية الواقعة على تخوم المملكة الشمالية الشرقية مع دمشق، التي تقلبت السلطة عليها بين الدماشقة والصليبيين في العقدين الأخيرين، واستقر الأمر بأن خضعت دمشق لنور الدين محمود زنكي 1154م/549هـ. وغدا يُهدد بانياس بشدة[1]. وفي تلك الآونة كان قد طرأ في مصر الفاطمية تغير سياسي مهم، إذ برز فيها وزيرها القوي الصالح طلائع بن رزيك الذي شكّل عنصرًا مهمًا في التوازنات السياسية والعسكرية بمنطقة الشرق الأدني الإسلامي في ظل ضمّ نور الدين محمود زنكي لدمشق في العام نفسه؛ إذ أخذت المراسلات والسفارات تتواصل بين دمشق والقاهرة بغرض تنظيم عمل عسكري مشترك ضد الصليبيين، وتزامن ذلك مع وفاة رينيه دي بروس؛ وهو ما أهل همفري كي يحوز ممتلكات زوجته الوريثة الشرعية له، فتملك المدينة وقلعتها[2]، وتحرك نور الدين محمود في 26 أبريل 1157م/3 ربيع الأول 552هـ، صوب بعلبك؛ ليكون على مقربة من هدف زحفه نحو «بانياس»، ومالبث أن فرض نور الدين حصارًا شديدًا على المدينة وقلعتها بغرض استردادها[3]. وفي الوقت نفسه خرج من مصر جيش كبير صوب أطراف مملكة بيت المقدس الجنوبية لمهاجمتها وفقًا للتنسيق المتفق عليه[4].

ونلحظ صدى إمساك همفري الثاني بالسلطة بقوة في «بانياس» وقلعتها «الصبيبة» في الدفاع عنهما بشراسة هو وابنه همفري الثالث، المعروف في المصادر الإسلامية باسم ابن الهنفرى، فبمجرد أن شعر همفري الثانى أن ممتلكاته في «بانياس» أصبحت مهددة خرج لمنازلة المسلمين، حيث التقى بهم في معركة بالقرب من المدينة في 21 مايو/7 ربيع الثاني؛ تمكن المسلمون بعدها من الاستيلاء عليها ومحاصرة همفري وفرسانه في قلعتها «الصبيبة» لمدة شهر ونصف تقريبًا، وحينئذ قاد بلدوين الثالث جيشًا ضخمًا تمكن به من مباغتة المسلمين والاستيلاء على المدينة منهم، وما لبثت المعارك أن تجددت بشكلٍ محدودٍ حول «بانياس» في أوائل ديسمبر/أواخر شوال من نفس العام[5]، من دون أن تتغير وضعية همفري الثاني سيدًا عليها.

وظل همفري يقوم بأداء دوره كونسطبلًا لمملكة بيت المقدس ونبيلًا إقطاعيًا يذود عن ممتلكاتة الشخصية أينما كانت، ومن ثم لا يُمكن إلا أن نُسلّم بأن هناك ارتباطًا وثيقًا

1. ابن القلانسي: ذيل **تاريخ دمشق**، ص520-534،523 ؛ ابن العديم (ت660هـ/1262م) كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد الحلبي: **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، نشر سامي الدهان، جزآن، (دمشق: 1951)، جـ2، ص307-308؛ William of Tyre: **OP. Cit.**, vol. ,II. P.258
2. كانت «بانياس» قد سقطت في يد الدماشقة عام 1132م/ 527هـ، غير أن الصليبيين سيطروا عليها مرة أخرى في سنة 1140م/534هـ، حيث منحت إلى النبيل رينييه دي بروس. راجع، ابن القلانسي: ذيل **تاريخ دمشق**، ص375،427؛ ابن الأثير: **الكامل**، جـ10،ص684-685؛ ابن واصل: **مفرج الكروب**، جـ1،ص113؛ أبو الفدا: **المختصر في أخبار البشر**، 4 ج، (بيروت، د. ت.)، جـ3، ص2-7؛
William of Tyre: **OP. Cit.**, vol ,II , pp.74,76-77
3. العماد الأصفهاني: **البرق الشامي**، تحقيق مصطفى الحياري (عمان: 1987)، جـ5، تحقيق فالح صالح حسين، (عمان: 1987)، ص148،5-149؛ ابن واصل: **مفرج الكروب**، ج2،ص88-90؛
William of Tyre: **OP. Cit.**, vol ,II , pp.108-112
4. ابن القلانسي: ذيل **تاريخ دمشق**، ص520-534،523؛ ابن العديم: **زبدة الحلب**، جـ2، ص307-308؛ William of Tyre: **OP. Cit.**, vol. II. P.258
5. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، جـ1، ص353،453؛ المقريزي (ت845هـ/1442م) تقي الدين أحمد بن علي: **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، جـ1، نشر جمال الدين الشيال، (القاهرة: 1948)، ج-2 3، نشر محمد حلمي أحمد، (القاهرة: 1973)، ج3، ص230.؛ ابن ميسر: **أخبار مصر**، جـ2، ص95-96 .
Rihricht, R.: **Geschichte des Ersten Kreuzzuges,** (Innsbruck: 1907), p.293; Stevenson, w.b.: **The Crusaders in the East,** (Beirut: 1968).

بين تطور وضع همفري الثاني الإقطاعي والعسكري، وخير برهان على ذلك اشتعال الجبهة الصليبية الإسلامية عند «بانياس»، وبروز اسمه في جميع الأحداث ذات الصلة.

ولكن ماذا عن الوضع العسكري المحيط بممتلكات همفري الثاني في إقطاعية الخليل؟ في الواقع كانت الجيوش الفاطمية البرية المعتمدة على فرق تألفت في غالبيتها من البدو والفرسان قد تغلغلت على مدى ما يزيد عن العام وصولًا إلى شهر يونيو 1158م/ جمادى الأولى 553هـ، مدعومة بالأسطول في مناطق عديدة: غزة،عسقلان، الشوبك حتى بلغت أطراف دمشق، ووقعت الخليل وبيت المقدس ذاتها ضمن المناطق المستهدفة، بيد أن سيدها همفري الثاني كان مشغولًا بالدفاع عن «بانياس» ضد هجوم نور الدين، كما أوضحنا[1]، تاركًا ممتلكاته في الخليل لابنه همفري الثالث، الذي ذكره وليم الصوري في أول ظهور له في المصادر بهمفري الثاني؛ ليذود عنها في مواجهة الغارات الفاطمية المتلاحقة[2]. ولعل في هذه الغارات المتتالية ما جعل المؤرخين المسلمين المعاصرين يُطلقون على الوزير طلائع بن رزيك لقب أبي الغارات، وبقدر محدود من التعاون بين مصر والشام أصبح الصليبيون في حالة من الشلل التام، وظل ملكهم والكونسطبل همفري وباقي القادة لمدة قاربت العامين عاجزين عن توفير الأمن. ومن المهم أن نؤكد على أن هذه الأحداث قد ترتب عليها تبعات استراتيجية، رغم عدم إحراز المسلمين انتصارًا حاسمًا؛ إذ وضع الصليبيون في استيراتيجيتهم أهمية الدور العسكري لمصر، وضرورة العمل على الحد من خطرها.

وفي المرحلة التالية من حياة همفري الثاني الوظيفية والإقطاعية نلحظ امتزاج نزعتي القيادة عنده بين كونه كونسطبلًا حاميًا لمجمل المملكة، وحاكمًا مضطلعًا بدوره حاميًا لممتلكات أسرته من بعده، إذ إن همفري الثالث الابن، شب عن الطوق، وأثبت جدارة في حماية الخليل وقلعتها، فضلًا عن إعانته لأبيه في أحداث الدفاع عن «بانياس»، وحان الوقت لأن يتزوج فتدخل همفري الثاني الأب- كما هو واضح- في اختيار «ستيفاني دي ميلي Stephanie de Milly» زوجة له عام 1163م/ 558هـ[3]، و«ستيفاني» هي ابنة فيليب دي ميلي سيد بارونية شرق الأردن إحدى كبريات الإقطاعيات الصليبية الأربع في مملكة بيت المقدس[4]. وورثت عن أمها إيزابيلا Isabella البارونية لوفاتها، وكذلك لالتحاق والدها فيليب بطائفة رهبان الداوية Templars عام 1167م/ 562هـ[5]، وبزواجها من همفري الثالث أُتيحت الفرصة أمام والده لربط ممتلكات شرق الأردن بممتلكات الأسرة في الخليل وتبنين وبانياس[6]، فتحددت معالم أسرة آل همفري الحاكمة، وممتلكاتها في التاريخ الصليبي.

1. أسامة بن منقذ: **الاعتبار**، ص15-17 ؛ المقريزي: **اتعاظ الحنفا**، ج3،ص233.
2. على أحمد السيد: **الخليل**، ص134،138؛ William of Tyre: **Op.cit.**,Vol.II,pp.396-401
3. William of Tyre: **Op.cit.** Vol. II, pp.396-401; Grousset ,R.: **Histoire des Croisades**, vol.II., p.554.
4. Rohricht,R.: **Regesta**, doc.no. 412.

يُقدّر أحد الباحثين مساحة إقطاعية شرق الأردن وحدها بحوالي خمسة آلاف كيلو متر مربع، شاملة الكرك والشوبك ووادي موسى وطفيلة، كما يُقدّر أبعاد أطوالها بأنها تمتد من عمان حتى العقبة بمسافة ثلاثمائة كيلومترًا، ومن الكرك إلى الخليل حوالي ستين كيلومتر.

راجع:

Deschamps,P.: **Les Chateaux des Croises en Terre-Sainte"la defense du royaume de Jerusalem"**, 2vols., (paris:1939), Vol I., p49; Benvenisti, M.: **The Crusaders in the Holy Land**, (Jerusalem: 1976), p.15.

5. William of Tyre: **Op.cit.** vol ,II , p.418; Rey,E.G.: **Les Seigneurs de Barut**, In R.O.L., tome IV, (Paris:1896), pp.12-18.

والدواية تُعدّ من أهم الطوائف الرهبانية العسكرية الصليبية، أسسها في عام 1120م/514هـ هيو دي بانيز Hugue de Payens ، بعد إقناع الملك الصليبي، واتخذت من المسجد الأقصى مقرًا لها، وأخذت الطائفة في النمو حتى لعب أفرادها دورًا مهمًا في الحركة الصليبية.

انظر:

William of Tyre: **Op.cit.** vol ,I , p.524; Runceman: **A History of the Crusades**, vol. II,P.157.

6. Rey,E.G.: **Les Familles d'outre-mer de du Cange**, (Paris:1896), p.403; Grosset, R.: **Histoire des Croisades**, vol.II, P.559.

وبرز دور همفري الثاني مرة أخرى في أحداث محاولة ضم مملكة بيت المقدس الصليبية المتكررة لمصر في الفترة (1164-1169م/559-564هـ)، إلا أن نور الدين محمود وقف حائلًا دون تحقيق ذلك بتوجيه عِدّة حملات مضادة للذود عنها، إذ إن أحوالها ازدادت سوءًا؛ بأن توفي الخليفة الفائز، وهو في سن الحادية عشرة من عمره في 23 يوليو 1160م/ 17 رجب 555هـ، ثم تولى الخلافة من بعده العاضد بالله، فدخل كبار القادة في صراعات دامية للاستحواذ على الوزارة، وقد استغل الصليبيون تلك الفرص للتدخل في شئون مصر الداخلية تمهيدًا لإخضاعها، وتراوح هذا التدخل بين توجيه حملات حربية بلغ عددها أربعًا، ووضع حامية في القاهرة؛ وفرض إتاوة سنوية عليها[1]. وأثناء ذلك كان اسم همفري الثاني يتوارى وراء اسم الملك عموري النشيط عسكريًا، ومع ذلك نجده يقوم بدور المُدافع عن التخوم الشمالية للمملكة أثناء تحركات الملك، إلا أن الأمر حُسم لصالح نور الدين محمود في النهاية بإعلان العاضد صلاح الدين وزيرًا على مصر، وممثلًا له فيها، وانطلاقًا منها نجح صلاح الدين في توحيد بلاد الشام ومصر مما شكل خطرًا داهمًا على الوجود الصليبي في بيت المقدس[2].

وكمؤشر على تنامي مكانة همفري الثاني لدى الملك الصليبي، وقدرته على توجيهه، والتأثير في الأحداث أن ممتلكات ابنه في كل من الخليل وشرق الأردن شهدت طفرة دينية وسياسية تمثلت في إحداث تغيير جوهري في الخريطة الكنسية لمنطقة أورشليم التاريخية، فبعد أن كانت بطريركية القدس تضم أسقفيتي بيت لحم، واللد والرملة فقط، أرسل إلى بابا روما إسكندر الثالث Alexander III (1159-1181م/554-578هـ) بشأن إعادة ترتيب الكراسي الكنسية، وطلب منه تأسيس كرسيين لأسقفيتين جديدتين هما الخليل، والبتراء الواقعة في شرق الأردن[3].

وقد واكب هذا القرار جدل كبير ساد الأوساط الدينية في الشرق اللاتيني، إذ جاءت استجابة البابوية لإنشاء كرسيين لأسقفيتين جديدتين في كل من الخليل والبتراء في وقت متزامن مخالفة جسيمة للنظم الكنسية المتأصلة[4]. ويُرجع أحد الباحثين إضفاء هذه المكانة الدينية على المدينتين إلى تنامي دورهما الاستراتيجي ضد المسلمين[5]. ويُمكننا أن نستنتج أن الفضل في ذلك يرجع إلى همفري الثاني، وربما معه ابنه همفري الثالث، نظرًا لارتفاع مكانته عسكريًا وإقطاعيًا وسياسيًا سواء في الشرق اللاتيني أو في الغرب، وارتباط ذلك بتأسيس الأسقفيتين.

همفري الثاني وتأمين المملكة بعد وفاة ابنه

كان همفري الثالث يُمثل حلقة الوصل في العائلة، حيث ربط بين همفري الثاني وهمفري حفيده القاصر، الذي كان ثمرة زواج ابنه من ستيفاني، ولكن هذه الحلقة ما لبثت أن انفضت لوفاته في حياة أبيه همفري الثاني؛ إذ كان آخر ذكر له في المصادر الصليبية في إحدى الوثائق بتاريخ نوفمبر1168م/ ربيع آخر 564هـ[6]. بيد أن آخر ذكر له في المصادر الإسلامية عند ابن الأثير، الذي أشار إليه بابن الهنفري في أحداث معارك

1. تعرضت مصادر عربية عديدة لتلك الأحداث المهمة في تاريخ الحركة الصليبية بشكل متوازٍ مع وليم الصوري لعل أهمها: ابن شداد (ت632هـ/1234م) القاضي بهاء الدين يوسف بن تميم بن عتبة: **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين**، تحقيق جمال الدين الشيال، (القاهرة: 1964)،ص36-40. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، جـ 1، ص 298،301،324 ،327،335،340؛ أبو شامة: **كتاب الروضتين**، جـ1، ص142، 154،174 ؛ William of Tyre: **Op.cit.** Vol.II,pp.319-366
2. ابن واصل: **مفرج الكروب**، جـ1،ص179؛ أبو الفدا: **المختصر في أخبار البشر**، جـ3، ص 50-52.
3. Hiestand, R: **Papstukund en fuer Kirchen in heiligen, lande** vol.II, (Duesselorg: 1985), Doc.No.118 p292.
4. Mayer,H.E: **The Crusaders,** (London: 1978), pp.125,126,197-198; Hamilton, B: **Latin Church in The crusader states,** (London:1980), pp68,84
5. Smith, G. A : The Historical Geography of the Holy Land, Especially in **Relation to the History of Israel, and of The Early Church,** (London: 1903).
6. Rohricht R.: **Regesta,** Doc.No.454; Mayer,H.E.: Die Herrschaftsbidung in Hebron, in, **Z.D.P.V.CI,** (1985), PP. 76-77.

ضد نور الدين محمود حول الكرك، في جمادى الآخرة 565هـ/ فبراير-مارس1170م أثناء محاولته إنفاذ قوات تدعم صلاح الدين في مصر عبر أراضيه تحت قيادة والده نجم الدين أيوب[1]. والواضح أن الأب صُدِم لفقدانه كثيرًا، إذ كان ذلك يعني أيضًا تحمله أعباء تركة ثقيلة، حيث ممتلكات الحفيد همفري، الذي عرفه وليم الصوري باسم همفري الثالث[2]، وبالأحرى ووفقًا للترتيب في التاريخ الصليبي العام في الأسرة همفري الرابع، سيد تبنين، أو سيد سانت إبراهام (الخليل)، وسيد الكرك والشوبك والبتراء، حيث بارونية منطقة ما وراء نهر الأردن، وهي في مجموعها تفوق مساحة ما يحوزه الملك الصليبي ذاته[3]، والتي ورث حكمها عن أبيه، وتولت أمه الوصاية عليه. بيد أن الأحداث تُشير إلى وجود إشراف من همفري الثاني الجد بدوافع عديدة ما بين عائلية ووراثية إقطاعية ولكونه كونسطبلًا.

هكذا تجسدت أمام همفري الثاني مشكلة تُهدد وضعيته في بارونية شرق الأردن؛ فربما تتزوج أرملة ابنه الشابة ستيفاني من رجل يُفقد القاصر همفري الرابع حيازته للممتلكات التي آلت إليه، أو على الأقل جانبًا منها، ولذا كان همفري الثاني شديد الحرص على إعاقة زواجها لمدة ثلاثة أعوام مستندًا إلى ما لديه من نفوذ قوي لدى البلاط الملكي، وبدت المهام الإشرافية لهمفري الثاني على ممتلكات العائلة الواقعة في شرق الأردن في خروجه في مايو1172م/شوال 567هـ؛ لصد هجوم مشترك شرع في القيام به كلّ من نور الدين محمود وصلاح الدين ضد الكرك،إلا أن الهجوم لم يُستكمل بسبب الخلاف بين القائدين[4].

وفي أثناء فترة إشراف همفري الثاني على ممتلكات حفيده همفري الرابع في شرق الأردن والخليل نجده يتحرك نحو قرية الكِرْمل الواقعة في الهضبة الجنوبية لبلاد الخليل في مايو 1173م/ذو القعدة 568هـ؛ ليكون في استقبال الملك عموري وباقي حشود الجيش الصليبي من شتى أرجاء المملكة في مناورة لمواجهة قوات صلاح الدين المتنامية التي تُهدد شرق الأردن، إلا أن الصليبيين اكتفوا بمراقبة تحركات المسلمين منتفعين بمياه عين الكِرمل، وتمكنوا من الحد من تحركات صلاح الدين في المنطقة[5]. بيد أن صلاح الدين حدد هدف هجومه بالتوجه إلى حصن الكرك ثانية في العام المذكور، فخرج همفري الثاني لصده عنها، وكانت ستيفاني الوصية على الحفيد قد تزوجت قبل هذه الأحداث الأخيرة من ميلون دي بلانسي Milon de Plancy مستشار Seneschal مملكة بيت المقدس، وذلك في العام ذاته[6]، وعليه كان من المفترض أن يتولى ميلون الدفاع عن الكرك بوصفه حاملًا لقب سيد الكرك والشوبك مقترنًا بزوجته ستيفاني، ولكن همفري الثاني استمر في اضطلاعه بهذا الدور وفقًا لما رسمه لنفسه من سياسة.

1. ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، جـ11،ص353.
2. William of Tyre: **Op.cit.** Vol.II, pp. 265,369,401; Mayer,H.E,: **Z.D.P.V.CI,** pp.73,76 .
3. Deschamps.p.: **les chateandes,** p.99.
4. William of Tyre: **Op.cit.**,Vol.II,p.375

   ويذهب ابن الأثير إلى أن صلاح الدين حرص على عدم الاستمرار في التوسع في حرب الصليبيين ليظلوا حاجزًا يفصل بينه وبين نور الدين محمود فقرر الانسحاب من أمام الكرك تخوفًا من غدر نور الدين به؛ فاتخذ من مرض والده نجم الدين أيوب ذريعة للعودة إلى مصر ، راجع: ابن الأثير: **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل،** تحقيق عبد القادر طليمات، (القاهرة: 1963)، ص6؛ ابن الأثير: **الكامل في التاريخ،** جـ11، ص 392-402.
5. William of Tyre: **Op.cit.**,Vol.I,pp.387-388; Rohricht,R: **Geschichte,** p. 357
6. William of Tyre: **Op.cit.**, Vol.II,p.401; Delaville Le Roulx: **Delaville le Roulx, Cartulaire General de l'Order des Hospitaliers de St Jean de Jerusalem (1100-1310),** 4 vols., Doc. No. 521, (paris: 1894-1906), Vol.I, pp317-318 ; Rohricht,R.: **Regesta,** no 492;

   وتُعدّ وظيفة المستشار من أهم الوظائف في المملكة؛ ومن مهامها الإشراف على عملية بناء القلاع داخل المملكة، وكذلك تموين الجيش، ومن الممكن أيضًا قيادة إحدى الفرق أثناء المعارك، وينوب عن الملك في تسلّم غنائمه من المعارك. انظر:

   Chalondon: **Histoire de la Premiere Croisade jusqu'a l'election de Godefroi de Bouilliom,** (Paris: 1925), p.319.

يبدو أن السنوات القليلة الماضية من الاحتكاك العسكري قد أوجدت نوعًا من التعارف بين الشخصين البارزين في المعسكرين الإسلامي والصليبي (صلاح الدين وهمفري الثاني) إذ نجد ما يدل في رواية غربية طريفة لمؤلف مجهول تؤرخ للجهود الصليبية لريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا Richard I (1189-1199م/ 585-595هـ)، حين ترسم صورة للكونسطبل همفري الثاني في ثوب أدبي، حيث أظهرته بطلًا مغوارًا يحترم أقرانه من فرسان المسلمين، حيث جمعت الفروسية والنبالة بينهما، وكان الفارس هو صلاح الدين الأيوبي الذي أخذ نجمه في الصعود، وتردد اسمه في تلك الآونة، وتخلص الرواية إلى أن همفري الثاني قام بتنصيب القائد المسلم فارسًا في جيشه الصليبي[1]. ويبدو واضحًا أن الرواية تعكس أمنية همفري في أن يضم فارسًا بكفاءة وشجاعة صلاح الدين إلى جيشه، كما تعكس تواتر القصص حول شخصية همفري المتميزة عسكريًا، حتى ترددت أخباره واسمه على ألسنة الأوروبيين في الأدبيات الغربية مرتبطًا باسم صلاح الدين، وهو ما جعل من همفري بطلًا شعبيًا مسيحيًا محبوبًا.

سنوات همفري الثاني الأخيرة

تمخضت الأحداث عن تغيرات في الظروف السياسية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي؛ إذ توفي نور الدين محمود في 16 مايو 1174م/ 4 شوال 569هـ، كما توفي عموري ملك بيت المقدس في 11 يوليو 1174م/ 8 ذي الحجة 569هـ، كما خرج صلاح الدين من مصر سالكًا شرق الأردن إلى دمشق لإرساء الوحدة بين مصر والشام[2].وأثناء انشغاله بذلك تمتعت ممتلكات آل همفري بقدر كبير من الهدوء، في حين اهتزت الأوضاع الداخلية في مملكة بيت المقدس باعتلاء بلدوين الرابع الأبرص العرش (1174-1185م/ 569-581هـ)، وتفاقمت المنازعات بين القادة الصليبيين، مما سيكون له صداه في حياة همفري الثاني كونسطبلًا ونبيلًا.

وإبان تلك الظروف حدث ما وطد من نفوذ همفري الثاني في شرق الأردن دون غيرها من ممتلكات حفيده القاصر، إذ لم تمض سوى بضعة أشهر على زواج ستيفاني من ميلون دي بلانسي إلا وتم اغتياله، ولم تكن لفترة زواجه منها أي تأثير على وضع همفري الرابع الإقطاعي. ونجح همفري الثاني على ما يبدو في تعطيل زواج ستيفاني ثلاثة أعوام أخرى[3]. وبذلك ظل همفري الثاني يتمتع بقوة ونفوذ ملحوظين لفترة تناهز الربع قرن، إلا أنه مع بداية ظهور جوسلين دي كورتناي Josclen de Courtenay(المنتمي لأسرة كورتناي العريقة سادة الرها) مستشارًا للملك بلدوين الرابع في عام 1176م/571هـ أخذت شخصية همفري الثاني في الإنزواء، إذ أصبح توقيعه على الوثائق يلي توقيع جوسلين الثالث[4]، وترتب على ذلك أن تراجع نفوذه الإداري، ولا يفوتنا أن نذكر تأثير عامل كبر السن السلبي عسكريًا أيضًا، ذلك أن وظيفة همفري قائدًا لجيش مملكة بيت المقدس بحكم منصبه كونسطبلًا للملكة كانت تتطلب من هو أكثر حيوية ونشاطًا، في وقت عانت فيه المملكة من تنامي قوة المسلمين.

وقد توافرت تلك الصفات في رينو دي شاتيون Renaud de Châtillon، الذي ذكرته المصادر الإسلامية باسم أرناط الإبرنس صاحب الكرك[5]، وفي وقت لم يكن للملك بلدوين الرابع وصي على العرش يعينه في حكمه، ويعد رينو من الشخصيات المحورية في عالم الصليبيين نظرًا لكونه فارسًا صليبيًا مميزًا منذ عصر الملك بلدوين الثالث، وحاز وضعيته المرموقة في المملكة الصليبية بزواجه من كونستانس Constance أميرة أنطاكية في نوفمبر عام 1177م/جمادى الآخرة 573هـ،

1. Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi (ed. Stubbs): **Rolls Series,** (London: 1894), p.9.
2. ابن العديم: **زبدة الحلب**، جـ2،ص336؛ ابن واصل: **مفرج الكروب**، جـ2، ص18؛ Grousset: **Op.cit.**, vol II,P.598
3. William of Tyre: **Op.cit.**, vol II,PP.401, 416.
4. Rohricht,R.: **Regesta**, Doc.No.553.
5. العماد الأصفهاني: **الفتح القسي**، ص59،63،68،78؛ العماد الأصفهاني: **البرق الشامي**، ص69، ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، جـ11،ص 12، 27؛ ابن واصل: **مفرج الكروب**، جـ2،ص 59، 101، 192؛ ابن العديم: **زبدة الحلب**، جـ3، ص234-235، 263-292؛ Schlumberger,G.: **Renaud de Chtillon**, (Paris: 1898) , pp.148-149

فضلًا عن ماضيه الذي يشهد بأنه مقاتل شرس، حتى وقوعه في أسر نور الدين محمود لمدة تناهز ستة عشر عامًا (1160-1176م/555-572هـ)[1].

وبالفعل اضطلع رينو بمهام وظيفة الكونسطبل في المملكة، وخير دليل على ذلك بروزه بمظهر القائد الأكبر للصليبيين أثناء تصدي جيش المملكة لجيوش صلاح الدين الزاحفة من الجنوب انطلاقًا من مصر فيما يُعرف بمعركة تل الجزر Montgisard أوتل الصافية Blanch Garde-على نحو ما خلص إليه الباحث-(نوفمبر 1177م/جمادى الآخرة 573هـ)[2] في حين لم نجد في المصادر أية إشارة إلى همفري الثاني في أحداث هذه المعركة المهمة، ومن ثم فالشواهد تؤكد أن رينو رغم كبر سنه -هو أيضًا- اضطلع بوظيفة الكونسطبل بشكل عملي، مع احتفاظ همفري الثاني بالمنصب اسميًا حتي وفاته، حيث لم نجد في المصادر ما يشير إلى عزله، أو تولي آخر المنصب.

وتجددت مخاوف همفري الثاني على ممتلكات حفيده، في ظل سطوع نجم رينو دي شاتيون على هذا النحو، خاصة وأن ممتلكات الحفيد أسالت لعابه بشدة، بدليل حرصه من قبل على الزواج من والدته ستيفاني، وتأتي الوثائق لتدعم هذا التوجه عند رينو- فبمجرد عقد الزواج على أمه في نوفمبر 1177م/ جمادى الآخرة 573هـ- بأن ذكرت بشيء من المبالغة ما يدل على إعلاء قدره، «الذي كان أميرًا لأنطاكية غدا بنعمة الله أميرًا للخليل والشوبك Princes Elironensis et Mounties Regales» كما أكدت، وبصفته مشاركًا لزوجته أن لديه سلطة منح بعض الممتلكات لهيئات دينية داخل إقطاعية شرق الأردن[3].

ولذا أقدم همفري الثاني، وهو في تلك السن المتقدمة، على الزواج من سيدة تدعى فيليبا الأنطاكية Philippa de Antioch كانت ذات جاه ونسب، سليلة أمراء أنطاكية، وكان همفري الثاني يأمل، من تلك الزيجة، الارتباط بأحد البيوتات الصليبية الحاكمة الكبرى ليُنجب منها من يرثه في تبنين حتى يؤمن ممتلكات آل همفري الأخرى، بيد أن المرض ألم به، كما أنه لم يُنجب من فيليبا التي ما لبثت أن توفيت[4]، وبذلك ظل القلق يساوره على ممتلكات الأسرة، وبقي همفري الحفيد رهن أطماع كبار القادة والنبلاء وكان رينو على رأسهم.

خاتمة همفري الثاني

في أبريل 1179م/ ذي القعدة 574هـ خرج همفري الثاني كأحد أبرز قادة الملك بلدوين الرابع مرافقًا له، بغرض الإغارة على تخوم دمشق فأنفذ صلاح الدين لهم فرخشاه ابن اخيه

1. Paoli,S: **Codice diplomatico del sacro militare ordine gerosolimitano oggi di malta,** 2vols., (Lucca: 1733-37), vol. II, no 31, p.63; Delaville le Roulx: **C.G.O.H.,** 4 vols., doc. No. 521, (paris: 1894-1906), vol II, p.355

ولمعرفة المزيد عن حياة رينو وأطوارها المختلفة انظر:

William of Tyre, **Op.cit.**, vol.II,PP.284,414 ; Hamilton,B.: **The Elephant of Christ, Reynald of Chatillon, in Monasstic Reform Catharism and the Crusades 900-1300, Varior.repr,** (London: 1979), pp.99-100; Mayer, H.E.: **The Crusader Lordship of Kerak and Shaubak, some Preliminary, remarks, in: S.G.A.J.,** Vol.III, (Aman: 1987), p.202.

2. أبو شامة: **كتاب الروضتين**، جـ1، ص274؛ ابن شداد: **النوادر السلطانية**، ص53؛ المقريزي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، الجزء الأول والثاني نشر وتحقيق مصطفى زيادة، (القاهرة: 1936)، والجزء الثالث والرابع تحقيق سعيد عاشور، القاهرة: 1970-1974)، جـ1،ق1، ص64؛

William of Tyre: **Op.cit.**, vol. II, PP.429-430.

3. Paoil. S., **cod.** doc. no. 62; delaville de roulx, **C.G.O.H.** vol.I.doc. no.521 p.355

ذكرت قوانين بيت المقدس ممتلكات رينو مؤلفة من اقطاعية الكرك والشوبك وسانت إبراهام (الخليل) انظر:

Jean d'ibelin: **Le Livre de Jean d'Iblelin,** en : Ass.Jer., tome I, (Paris:1881), p.418

4. William of Tyre: **Op.cit.**, vol.II,P.417.

ويُعرف وليم الصوري فيليبا بأنها ابنة ريموند صاحب أنطاكية، وأخت بوهيموند الثالث الذي كان يحكم في تلك الآونة الإمارة، وأخت ماريا إمبراطورة القسطنطينية.

فخرج معه وأمره بالتواصل معه للانحياز إليه عند الحاجة، إلا أن فرخشاه اضطر إلى أن يدخل المعركة بما لديه من قوات محدودة قدرها ابن الأثير بما لايزيد عن الألف فارس نظرًا «لتفاجئه بهجومهم» وفي ذلك يروي المؤرخ «فانهزم الفرنج وانتصر المسلمون عليهم وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم هنفري [الثاني]، وما أدراك ما هنفري؛ به كان يُضرب المثل في الشجاعة والرأي في الحرب، وكان بلاء صبه الله على المسلمين فأراح الله من شره وقُتل غيره من أقرانه»[1].

ومما أوضحه وليم الصوري أن همفري استمات في القتال فداءً لحياة الملك بلدوين الرابع، وأن وفاته كانت جراء جرح كبير ألم به[2]، بيد أن العماد الأصفهاني كان مهتمًا بأمر همفري بشكل أكثر، إذ أولى مشهد مصرعه بمزيد من الوصف ومما ذكره عن ذلك: «حُمل هنفرى جريحًا وأُودع بعد يومين ضريحًا، وناح في نواحيهم النادب بندوب صريعهم صريعًا، وحاز هنفري جراحات فاز الهوى منها براحات، إحداها نشابة وقعت في مارنه فجدعته ونفذت إلى فيه، ومرت بضرسه فقلعته، وخرجت من تحت فكه ففتكته، وصرعته وأخرى في مشط رجله نفذت إلي أخمصه، وأخرى في ركبته جرعته صاب أوصابه وغصته، وكان هلاكه بالتي في جنبه كسر له ضلعين وقرب له حين الحين» واستمر المؤرخ في شرح جانب من أحداث الهزيمة التي وقعت بين عسكر الفرنجة[3]، وبذلك أُسدل الستار على واحد من أكثر قادة الصليبيين شهرة بعد حياة مليئة بالمعارك والمعاناة خدمة للقضية الصليبية ولأطماع وطموحات لم ينافسه فيها سوى الملك.

كانت وفاة همفري الثاني بمثابة ضربة صادمة لأسرته، ولمملكة بيت المقدس ولملكها المكلوم بلدوين الرابع؛ وفيما يتعلق بممتلكات حفيده أثبتت الأحداث أن الجد كان مُحقًا فيما أبدى من قلق على مصير ممتلكات العائلة الشاسعة، فمن الواضح أنه بعد الوفاة طالب فريق من النبلاء همفري الرابع بالتنازل عن تبنين، إذا ما أراد أن يحتفظ بحقه في شرق الأردن والخليل، وما لبثت أن أشارت وثيقتان ترجعان لعامي 1180م/576هـ و1181م/577هـ إلى شخص آخر اسمه بلدوين يحمل لقب حامي قلعة تبنين[4]. ومن الثابت تاريخيًا أن تبنين قد أصبحت في وقت لاحق من ممتلكات آجنس والدة الملك بلدوين الرابع[5]، ما يُفيد أن همفري الرابع فَقَد حقوقه الوراثية في تبنين بعد عام واحد من وفاة همفري الثاني.

لم يتبق أمام همفري الرابع سوى أحقيته في شرق الأردن والخليل، وأصبح بذلك حكم أسرة همفري في الخليل محفوفًا بالمخاطر في الإقطاعيتين، إذ قام رينو دي شاتيون بدور الوصي على همفري بصفته زوج أمه إلى أن يصل سن الرشد، بيد أن طموحات رينو لم يكن لها حد إبان الظروف المضطربة التي تعيشها مملكة بيت المقدس، الأمر الذي أفضى إلى ذكر اسم رينو شاهدًا على العقود في 28 أبريل 1180م/ ذي الحجة 575هـ حاملًا لقب أمير الكرك والخليل[6]، وهكذا بعد مرور وقت قصير على وفاة همفري الثاني فقدت أسرته حيازتها لتبنين، كما أصبح حكمها في الخليل وشرق الأردن حكمًا إقطاعيًا صوريًا.

وفي أعقاب تداعي ممتلكات آل همفري فعليًا على هذا النحو، والتي لم يتبق منها إلا ما هو حقوق شرعية وراثية لا يُمكن إغفالها، سعى بلدوين الرابع مع كبار نبلاء المملكة إلى تزويج همفري الرابع من أخت الملك غير الشقيقة إيزابيلا Isabella وتمّت مراسم هذه الخطبة في أكتوبر 1180م/ جمادى الثانية 576هـ، وهما في سنٍ صغيرة[7]. وفسر المؤرخ

1. ابن الأثير: **الكامل**، جـ11، ص452-453؛ وعن المعركة راجع أيضًا: العماد الأصفهاني: **البرق الشامي**، ص159، 187؛ وراجع أيضًا: William of tyre: **Op.cit.**, II,pp.401,459; Ernoul: **Op.cit.**, P267.
2. William of tyre: **loc.cit** ; Ernoul: **loc.cit.**
3. الأصفهاني: **البرق الشامي**، ص151.
4. Rohricht R.: **Regesta**, Doc. No 606,615 ; Mayer: **H.E.Z.D.P.V.CI**, PP.77-78.
5. ذكر الرحالة المسلم ابن جبير الذي زار تبنين عام 1183م/579هـ أنها من ممتلكات الخنزيرة أم الخنزير، صاحب عكا يقصد بها آجنس، راجع: ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، ص201.
6. Rohricht R.: **Regesta**, Doc593.
7. **Ibid**, Doc596. والملاحظ أن الوثيقة المشار إليها قد ذكرت خطأ أن إيزابيلا زوجة لهمفري، في حين أن الزواج لم يتم إلا في مرحلة تالية

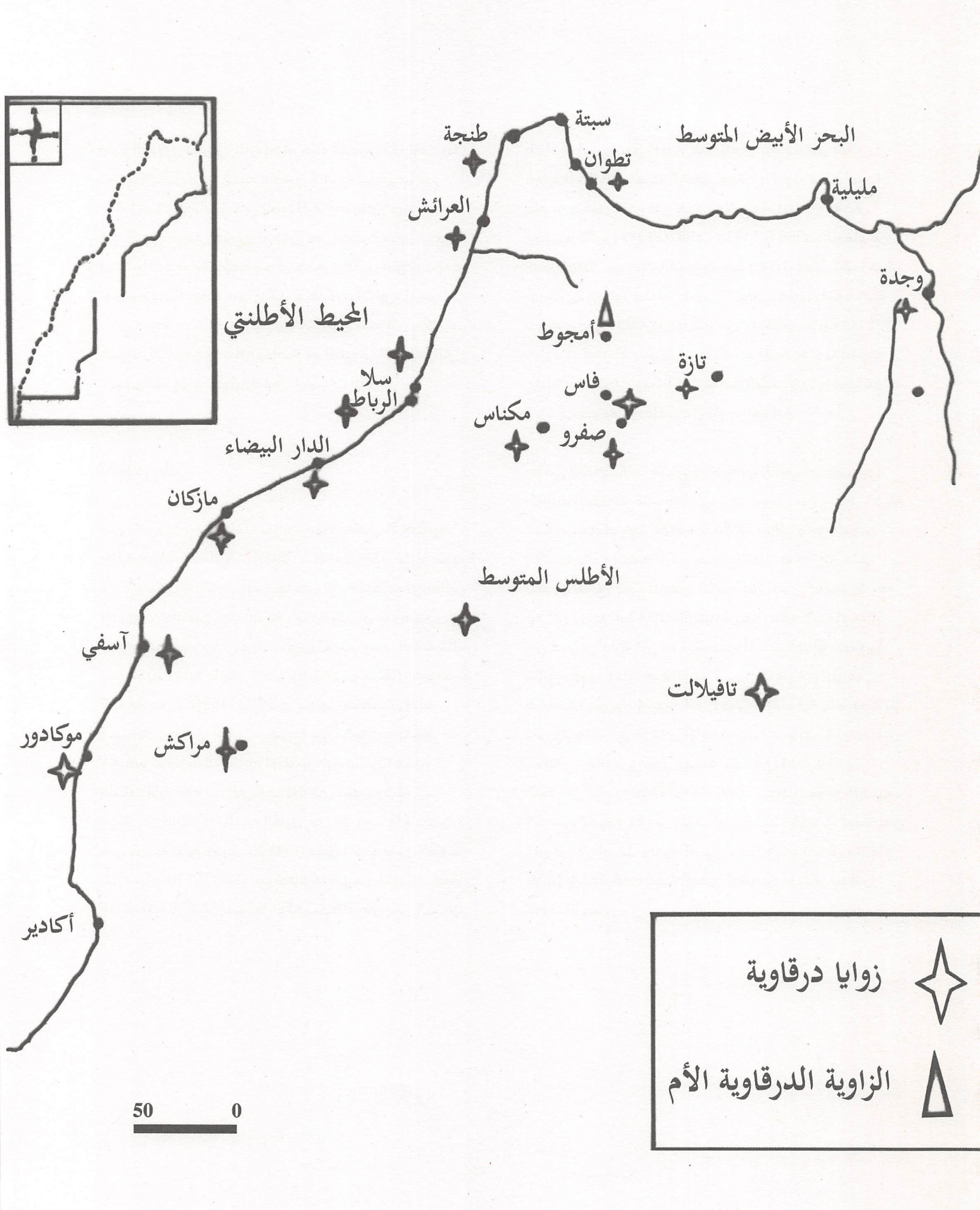
وليم الصوري الحرص على إتمام هذه الخطبة بأنها كانت ردًا شرفيًا للجميل الذي قدمه همفري الثاني الجد حينما جُرح فداءً للملك الصليبي في المعركة التي تُوفي فيها بسبب هذا الجرح[1]، وفي الواقع لم تكن هذه الخطوة سوى محاولة من الملك لإبداء تعاطفه مع آل همفري الذين انتهت عظمة أسرتهم عمليًا بوفاة عاهلها الكبير همفري الثاني، إذ لم يثبت حفيده من القدرات والإمكانات التي تقنع من حوله به، فانزوت الأسرة في حياته وخاصة مع الظروف الصعبة التي شهدتها المملكة الصليبية في السنوات التالية.

تقييم عام

في وقفة تقييمية شاملة لحياة همفري الثاني الإقطاعية والعسكرية نجدها اتخذت أنماطًا ثلاثة: فترة غلب عليها ظهوره قائدًا عسكريًا يتنامى دوره فيها في خدمة إقطاعه المتنامي في تبنين والخليل، وكذلك في خدمة العرش سواء في عهد فولك أف أنجو أم في عهد بلدوين الثالث. وفي النمط الثاني حيث تميزت فترة ما بعد شغله وظيفة الكونسطبل العسكرية المهمة في عام 1152م/547هـ، وفيها اختلطت دوافعه وحيثياته، وبالتالي أنشطته الحربية بين اضطلاعه بمهام وظيفته كونسطبلًا، وكونه إقطاعيًا حاز ممتلكات متباعدة شملت أجزاء تقع شمالي المملكة في تبنين وبانياس، فضلًا عن أراضي إقطاعية الخليل في الجنوب، وامتد نفوذه في بارونية شرق الأردن شرقًا من خلال ابنه همفري الثالث، الذي حمل جانبًا من أعباء مسئولية الدفاع عن البارونية، وعن الخليل لصلته الإقطاعية بها، وألقت وفاته في سن الشباب بأعباء الخليل وشرق الأردن على كاهل أبيه همفري الثاني حمايةً لممتلكات حفيده الصغير همفري الرابع، ولعل آخر ما قام به همفري الجد في هذا الإطار العسكري خروجه في عامين متتاليين 1172م/567هـ، و1173م/ 568هـ؛ للدفاع عن الإقطاعيتين الجنوبية والشرقية ضد جيشين قويين هما جيش نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي. وفي رؤية شاملة لجهود همفري الثاني وانطلاقًا من ممتلكات أسرته المتناثرة في هذه المرحلة يتبين أن هذا التباعد كان مقصودًا بصفته مطلبًا استراتيجيًا، حيث كان يتخذ من البلاد التي يحكمها قواعد انطلاق هجومي ودفاعي عن تخوم المملكة.

أما عن النمط الثالث من جهود همفري الثاني فيتمثل في مؤازرته المخلصة للتاج الملكي، فقد عاصر بسبب طول خدمته عددًا من ملوك بيت المقدس؛ الملك فولك وابنه بلدوين الثالث مع أمه ملسيند، ثم عموري الأول، وجانبًا من حكم بلدوين الرابع، ونجح همفري الثاني على مدى العقود الأربعة في أن يُسجل مشاركاته مع العرش في بقاع وأصقاع عدة، من شمالي حلب إلى دمشق، حيث أحداث الحملة الصليبية الثانية، ومن أحداث إسقاط عسقلان والدفاع عن أطراف المملكة الجنوبية، وصولًا إلى حدودها الشمالية والشرقية بلا كلل ولا ملل، مؤكدًا على نجاحه في تبوّء منصب الكونسطبل الملكي، وكانت لهمفري جهوده أيضًا في إعمار القلاع الصليبية العديدة عند أطرافها، كذلك شملت جهوده التغييرات الكنسية المهمة في ممتلكات أسرته حيث تأسست أسقفيتان في كلٍ من الخليل وشرق الأردن تحت رعايته، بفضل ما تمتع به من سمعة طيبة عمّت الشرق اللاتيني بل عبر بها إلى الغرب الأوروبي.

1. William of tyre: **Op.cit.**, II, pp.401,459 ; Ernoul: **Op.cit.**, pp.81-82.



سبتة
البحر الأبيض المتوسط
طنجة
تطوان
مليلية
العرائش
وجدة
أمجوط
المحيط الأطلنتي
تازة
سلا
الرباط
فاس
مكناس
صفرو
الدار البيضاء
مازكان
الأطلس المتوسط
آسفي
تافيلالت
موكادور
مراكش
أكادير
زوايا درقاوية
الزاوية الدرقاوية الأم
50
0

الزاوية الدرقاوية في المغرب
من انتقاد المخزن ومعارضته
إلى رفض الاحتلال الفرنسي ومقاومته



د. قاسم الحادك

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة

جامعة شعيب الدكالي - المغرب

أستاذ باحث، حاصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ المعاصر، جامعة سيدي محمد بن عبد الله بمدينة فاس المغربية، يكتب في تاريخ الزوايا والطرق الصوفية بالمغرب، وعضو في عدد من الهيئات العلمية، كما شارك في عدد من الندوات الوطنية والدولية، وله أبحاث ومقالات منشورة في مجلات محكمة مغربية وعربية.

جميع الصور الواردة في هذا المقال من اختيار الكاتب

شكلت الزاوية الدرقاوية منذ ظهورها قوة دينية وسياسية كبيرة، تميزت بمواقفها المعارضة للمخزن المغربي والمنتقدة لسياساته، وعجزه عن التصدي للمشاريع الاستعمارية الفرنسية. وانطلاقًا من ذلك صارت هذه المؤسسة الدينية والسياسية مؤهلة كي تتبنى مواقف معارضة للاحتلال الفرنسي، وتُعلن زعاماتها عن رفضها للغزو الاستعماري، وتعمل على تنظيم المقاومة، والدعوة إلى الجهاد.

لا يخفى على أحد الأدوار الحاسمة التي قامت بها الزوايا والطرق الصوفية في تشكيل تاريخ المغرب، فقد كان رجالات التصوف دائمًا في قلب المجتمع والسياسة، طبعوا تاريخه وكانوا فاعلين في تأسيس دوله، وتوجيه سياسته وثقافته، وتشكيل هُويته. وتُعتبر الزاوية الدرقاوية من أبرز هذه المؤسسات الدينية والصوفية، فقد برزت منذ نشأتها كقوة مادية ومعنوية تأطيرية تمتعت بتأثير كبير في جميع المجالات الدينية والاجتماعية والسياسية، كما انفلتت من السيطرة المخزنية، ونجت من عملية الإخضاع والاحتواء التي نهجها المخزن، وبالتالي تميزت مواقفها بنوع من الاستقلالية النسبية، بل ودخلت في صراعات عديدة ضده. وبمجيء الاستعمار الفرنسي، وقفت جُلّ الزعامات القبلية والصوفية الدرقاوية في وجه غزو جيوشه، وانبرت للدعوة إلى الجهاد، وحث القبائل على تنظيم المقاومة، ممثلة تيار المقاومة والجهاد أحسن تمثيل. وبذلك تُعدّ الزاوية الدرقاوية من أهم الزوايا التي تحركت في بنياتها آليات المقاومة، وتبنت مواقف معارضة للاحتلال الفرنسي، وأعلنت جُلّ زعاماتها الصوفية والقبلية عن رفضها القاطع، ومعارضتها الشديدة للمشاريع الاستعمارية، وعملت على تنظيم المقاومة والدعوة إلى الجهاد.

تأسيس الزاوية الدرقاوية ونشأة طريقتها الصوفية

ينتسب الدرقاويون إلى الشريف الإدريسي سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي الزروالي[1]، المزداد[2] سنة 1737م بقبيلة بني زروال، وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم، ثم رحل إلى مدينة فاس، وأقام بها مدة تلمذ خلالها لكبار العلماء. أسس مولاي العربي الطريقة الدرقاوية سنة 1786م في منطقة «بوبريح» التابعة لقبيلة بني زروال، وهي الزاوية الأم للطريقة الدرقاوية[3]، وسُميت بذلك نسبة إلى جده أبي عبد الله محمد

1. تعددت الترجمات التي أحاطت بمؤسس الطريقة الدرقاوية، ومن أهم هذه الكتابات كتاب «كنز الأسرار في مناقب مولانا العربي الدرقاوي وبعض أصحابه الأخيار» للشيخ أبو زيان محمد بن أحمد الإغريسي المعسكري، الذي أبرز تميز الشيخ الدرقاوي وقدسيته ومناقبه وعرّف ببعض أصحابه وأتباعه. كما تطرقت العديد من الكتابات الكولونيالية لحياة الشيخ الدرقاوي وأدواره الدينية والسياسية، ومنها:
   Drague George: **Esquisse d'histoire religieuse du Maroc,** (Paris: Peyronnet, 1951), p 251, Sallem Ben M`Barek: «Les Derquaouas», **Bulletin de la société de géographie du Maroc**, n 27, (Oct., Nov., 1961), p 6, Drouin Jeannine: **un cycle Hagiographique orale dans le moyen Atlas,** (Paris: imprimerie nationale,1975), p 14.
2. تطلق كلمة المزداد في المغرب على الطفل المولود من أم مغربية وأب أجنبي.
3. Spillmann Lieutenant: **Etude inédite sur Les Confréries religieuses au Maroc,** (Paris: Centre des hautes études sur l'Afrique et l'Asie modernes, 1936), p 5.

بن يوسف المُلقب بأبي درقة لأنه كان ملازمًا لدراقة تقيه في الحروب[1].

استطاعت الطريقة الدرقاوية بفضل النسب الشريف لمؤسسها[2] أن تُصبح إحدى أهم الطرق الصوفية في المغرب، وتمكنت في وقت قليل من استقطاب النخب الحضرية والقروية خاصة في الأوساط القبلية الأمازيغية[3]، فكثر من بين أتباعها العلماء والفقهاء، وبدأ المريدون يأتون جماعات إلى «بوبريح» لتلقي تعاليم الشيخ الجديد[4].

وقد أحدث توسع الدرقاويين وانتشارهم هزة قوية داخل المجتمع المغربي[5] في إطار سعيهم الهادف إلى تجديد التصوف الشاذلي[6] واستعادة حركيته ومصداقيته، وتجسد هذا المشروع الديني والصوفي في شكل ثورة على القيم السائدة في المجتمع المغربي، وخاصة التصوف الطرقي المتسم بالتقادم والتآكل والتشتت. إنها ثورة شبهها الفقيه التطواني محمد بن محمد الجنوي 1214هـ/ 1800م، في تعبير لا يخلو من مبالغة، بالثورة الفرنسية «إن درقاوة قاموا في هذا القطر والنصارى الفرنصيص قاموا في قطرهم»[7].

وقد تجلّت هذه الثورة بوضوح في أسس الطريقة الدرقاوية وأحوال شيوخها ومريديها التي بدت غير مألوفة في الواقع الديني والصوفي على السواء، حيث كتب القائد رين Rinn سنة 1884م على لسان أحد الموظفين الأتراك يصف أتباع الطريقة الدرقاوية «إنهم يبدون الكثير من الزهد و التقشف...ويلبسون أثوابًا بالية متسخة ولا يجتمعون إلا سرًا»[8].

لقد نجحت الطريقة الدرقاوية خلال فترة وجيزة في اكتساح جُلّ مناطق المغرب، واستقطاب قاعدة جماهيرية واسعة[9]، وتمكنت بذلك من مراكمة رأسمال رمزي وشرعي كبير، كما استطاعت أن تتغلغل في أعماق مختلف شرائح المجتمع المغربي من أعيان وفئات شعبية، وأن تفرض تأثيرها على الصعيدين الاجتماعي والسياسي.

إن أهم ما ميز الطريقة الدرقاوية عن غيرها من الطرق والزوايا، وجعلها تنجح في خلق هذا الحماس الشعبي والتعاطف الواسع لمختلف فئات المجتمع المغربي من نخب وأعيان وعامة، كونها تدعو إلى تصوف عملي اجتماعي يُسهم في

1. Sallem Ben M'Barek: **op.cit**, p. 7.

2. يُعدّ النسب الشريف شرطًا ضروريًا لتأسيس طريقة أو زاوية دينية، انظر:
Michaux Béllaire: «Essai sur l'histoire des confréries Marocaines», **Hesperis**, № VI (1921) p 87, Hammoudi A: «Sainteté Pouvoir et Société», **Annales, Economies, Sociétés et Civilisation**, №34, (1980) p 637.

3. شكلت البوادي المغربية -خاصة مناطق جنوب شرق المغرب والأطلس المتوسط- الوسط الأكثر ملاءمة لانتشار الأفكار والمبادئ الدرقاوية، وقد أسهمت الظروف الطبيعية والمناخية القاسية التي تعيشها هذه المجتمعات القبلية في صياغة نفسيات وعقليات هذه الأوساط القبلية، وجعلها أكثر قابلية لاحتضان الطرق والزوايا الصوفية، التي شكلّت تعاليمها ومبادئها نوعًا من الحصانة والاحتماء من الكوارث والأزمات، واستجابة منطقية لنفسيتهم المهزوزة، كما يُفسر هذا الانتشار السريع للزوايا الدرقاوية في هذه المناطق بالأصل القروي لمؤسسها، ودعوته إلى نمط عيش يطبعه الزهد والتقشف، وهو ما يتماشى مع ظروف عيش البوادي المغربية المتسم بالبساطة والخشونة.

4. Spillmann Lieutenant: **op.cit**, p 5.

5. الخداري محمد: **دور الزوايا و الطرق الصوفية في العلاقات بين المغرب و ولاية الجزائر، حالة الزاوية الدرقاوية من 1786 إلى 1823م**، دكتوراه وطنية في التاريخ غير منشورة، (الرباط: كلية الآداب، 2004-2005)، ص 194.

6. نسبة إلى الحسن علي بن عبد الله الشاذلي، ولد في قبيلة غمارة سنة 1196م، وتتلمذ في صغره على أبي محمد عبد السلام بن مشيش في المغرب، وكان له أكبر الأثر في حياته العلمية والصوفية. ثم رحل إلى تونس، حيث تفقه وتصوف. وقد احتل مكانة بارزة بين صوفية المغرب والمشرق في القرن السابع الهجري.

7. الخداري محمد: **مرجع سابق**، ص 194.

8. Drague G: **op. cit**, p 268.

9. Odinot Paul: «Le Monde religieux», **Revue France Maroc**, №107, 9eme Année, (Octobre 1925), p 399.

مختلف المجالات السياسية والاجتماعية من دون الانعزال في الجبال والاعتكاف في الزوايا[1]. كما أنها لم تدع إلى التشبث بالسنة فحسب، بل كانت تُعلن مرجعيتها المذهبية المتعددة من كتاب وسنة وسيرة السلف الصالح[2].

وإضافة إلى ذلك لم ينطلق الدرقاويون من فراغ لتأسيس طريقتهم، بل استفادوا من الأرضية الخصبة التي وفرها لهم التاريخ الصوفي المغربي لاكتساب المشروعية الصلاحية. فمنذ القرن السادس عشر أصبح المغرب يعرف تزايد نفوذ الزوايا وتغلغل تأثيرها داخل المجتمع، وصارت الحاجة إلى الانخراط في طريقة ما ضرورة اجتماعية وخيارًا ملحًا، وتحول التصوف إلى ثقافة شعبية، وعقيدة مجتمعية، ونمط من أنماط التفكير، والفعل داخل المجال الديني، بل أصبح الهواء الذي يتنفسه الجميع والمظلة التي يستظل بها الخاصة والعامة[3]. كما أسهمت البنية الداخلية لعقيدة التصوف في تثبيت موقع زعماء الطرق الصوفية داخل الحقل الديني والاجتماعي المغربي، وتعزيز أدوارهم وإظهارهم كضرورة مجتمعية وحتمية تاريخية، فصار شيخ الزاوية «مرشدًا روحيًا وزعيمًا مسلمًا به محبوبًا ومحترمًا ومهابًا في نفس الوقت»[4]. بالإضافة إلى ذلك، استفاد الدرقاويون مما وفره لهم التاريخ الخاص لزعيمهم من رصيد اعتباري كالنسب الشريف والمكانة الاجتماعية المرموقة. وهو رصيد مكنهم من مراكمة رأسمال رمزي أهلهم للإسهام بفعالية في مختلف المجالات السياسية والدينية.

واستطاعت الطريقة الدرقاوية أن تُهيمن على المشهد الصوفي المغربي منذ أواخر القرن الثامن عشر، وتنفرد من دون غيرها من الطرق الصوفية بمهمة إحياء التصوف الشاذلي[5]، وتجديد النشاط الصوفي وتخليصه عمليًا ونظريًا من قيود وتعقيدات سيطرت عليه طويلًا، وجعله مسايرًا للأحداث والمستجدات التي يشهدها المغرب. كما أعطت الطريقة الدرقاوية دفعة قوية للتراث الشاذلي، وعملت على تحرير التصوف الطرقي المغربي من عادات وطقوس سيطرت عليه منذ قرون، وأعادت له حيويته ونشاطه في إطار تصوف عملي اجتماعي يُشارك في مختلف شؤون البلاد السياسية والاجتماعية[6]. إنها مهمة جعلت الشيخ المؤسس مولاي العربي الدرقاوي يوصف بأنه شيخ عصره، مثلما اعتبر القرن التاسع عشر قرن الطريقة الدرقاوية[7].

1. الخداري محمد: **مرجع سابق**، ص 196.
2. تتمثل هذه المرجعيات المتعددة في اعتبار الدرقاويين «لبسهم المرقع اقتداءً بالصحابيين أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) اللذين كانا يلبسان ثيابًا ممزقة، وحمل العصي منقولًا عن سيدنا موسى عليه السلام، والسبحة الكبيرة نقلًا عن أبي هريرة، والانعزال اقتداءً بالنبي عيسى عليه السلام». ينظر: Drague G, **op. cit,** p 264؛ الزاهي نور الدين: **الزاوية والحزب: الإسلام السياسي في المجتمع المغربي**، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2003)، ص 9.
3. الصغير عبد المجيد: «من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي بالمغرب»، **مجلة البادية المغربية عبر التاريخ**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 77، (1999)، ص 274.
4. حسب جاك كاني فقد كان معظم المغاربة منخرطين في إحدى الزوايا والطرق الدينية، انظر:
   Jacques Cagne: **Nation et Nationalisme au Maroc,** (Rabat: Al Maarif Al Jadida, 1988), p 388.
5. نبه ميشو بلير إلى الخطورة التي ستُشكّلها الطريقة الدرقاوية قائلًا: «إن إنفراد الطريقة الدرقاوية بمهمة إحياء التصوف الشاذلي وتجديده من دون غيرها من الطرق... يفرض علينا أن نولي هذه الطريقة اهتمامًا جديًا»، انظر: Michaux Bellaire: **op.cit,** p156.
6. الخداري محمد: **مرجع سابق**، ص259.
7. Drague G: **op.cit,** p267, Drouin Jeannine: **op.cit,** p15.

استقلال الزاوية الدرقاوية عن المؤسسة المخزنية



ضريح مولاي العربي الدرقاوي في منطقة بني زروال قرب مدينة فاس

عمل المخزن[1] طوال تاريخه على إخضاع الزوايا وإدماجها ضمن سياسته بقصد توظيفها كأدوات لترتيب سيطرته وتبريرها[2]. وقد خضعت هذه العملية لسيرورة طويلة الأمد حاول المخزن خلالها إضعاف هذه المؤسسات تارة باللين من خلال احتوائها والتقرب إليها، وتارة أخرى بالعنف عبر مواجهتها وتفكيكها، وبلور من أجل ذلك عدّة استراتيجيات أهمها: المواجهة، الاحتواء، التدجين، ووضع الزاوية خارج الشرع[3]، وهي استراتيجيات هدفت في مجملها إلى الدفع التدريجي بالزوايا نحو المجال الديني والاقتصادي، وتقليص نفوذها السياسي.

وقد تأثرت العديد من الزوايا بذلك فتحولت بالتدريج إلى أجهزة إدارية تابعة للمخزن تخدم مصالحه، وتدافع عنها، وتبررها أمام الناس، وتُسهم في تحقيق أهدافه وسياساته، وتجعل من نفسها أداة ووسيلة للدفاع عنه، وتكريس شرعيته. وتكرست هذه التبعية المطلقة بفعل مسلسل المخزنة طويل الأمد الذي تعرّضت له هذه الزوايا وغيرها في إطار علاقتها بالمؤسسة المخزنية، فقد عمد السلاطين العلويون إلى احتوائها وتدجينها من خلال العديد من الآليات، إذ منحوا شيوخ الزوايا ظهائر التوقير والاحترام، وأعفوهم من الضرائب، وأنعموا عليهم بالإقطاعات والهبات والهدايا، فتحولوا من رجالات زهد وتصوف ودين وعلم إلى مستثمرين في الميدانين الفلاحي والتجاري، يكدّون في تسيير إقطاعاتهم ويتصارعون من أجل المحافظة عليها[4].

ومع مرور الوقت انفلتت الزاوية الدرقاوية من السيطرة المخزنية، ونجت من عملية الإخضاع والاحتواء التي نهجها

1. يدل المفهوم اللغوي للمخزن على المستودع؛ أي المكان الذي كانت تُجمع وتُخزن فيه مختلف الذخائر، وكل ما هو موجه لخزينة الدولة من زكوات وأعشار، إلا أنه منذ القرن السادس عشر حمل مدلولًا آخر، إذ بات يدل على مجموع هياكل الدولة، وأصبح كتعريف للنخبة الحاكمة، التي تمحورت حول السلطان.
2. ظريف محمد: **مؤسسة الزوايا بالمغرب**، (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، 1992)، ص 119.
3. **المرجع السابق**، ص 119-129.
4. يتعلق الأمر بالزاوية الوزانية والناصرية، التي شكل شيوخها أحد دواليب السلطة المخزنية، ولا يُمكن الاستغناء عنها لتثبيت سلطتها في جهات نائية لا يُمكن للمخزن أن يكون حاضرًا فيها بقوة، واستفادوا مقابل ذلك من هذا التحالف الضمني، فتمكنوا بفضل الامتيازات المادية والمعنوية التي اكتسبوها من نشر طريقتهم داخل المغرب وخارجه، وراكموا ثروات مادية كبيرة.

المخزن؛ إذ شكّلت منذ ظهورها قوة دينية وسياسية كبيرة حفل تاريخها بالثورات والانتفاضات ضد المؤسسة المخزنية مركزيًا وجهويًا[1]، وقد منحتها هذه الثورات التي شارك فيها زعيمها مولاي العربي الدرقاوي[2] والعديد من أتباعه شهرة واسعة، فصارت تعاليمها ومبادئها بمثابة الورد الديني لقسم مهم من المغاربة، وأصبحت طريقتها من أهم الطرق الصوفية في المغرب ما بين سنتي (1790-1910م)، حسب لها المخزن ألف حساب، وارتعد منها خصومها، ولهذا السبب اعتبر الفرنسيون الدرقاويين مجموعات متعصبة وفوضوية معادية لكل سلطة سياسية، فأصبحوا يُشكّلون في مُجملهم جبهة قوية لمعارضة المؤسسة المخزنية[3]، الشيء الذي أهلهم للدخول في لعبة الاصطدامات السياسية معتمدين في ذلك على ما راكموه من قدسية ورمزية.

وقد أثار الإقبال الواسع الذي لقيته تعاليم الطريقة الدرقاوية ومبادئها مخاوف المخزن المركزي، الذي رأى فيها خطرًا محققًا، ومن ثم عمل جاهدًا على التصدي لها ومحاولة وقف انتشارها[4]. ولمواجهة هذه الحملة المخزنية الشرسة قرر مولاي العربي الدرقاوي الدفع بأتباعه ومناصريه إلى البوادي والمناطق النائية فرارًا من الاضطهاد المخزني.

بعد فشل حملات السلطان الهادفة إلى قمع أتباع الشيخ الدرقاوي وعزلهم، وأمام إصرار هؤلاء على التشبث بالمبادئ والأفكار الدرقاوية، تبنى السلطان المولى سليمان خطة جديدة حاول من خلالها استمالة الشيخ مولاي العربي الدرقاوي وكسب طريقته إلى جانبه واستخدامها لمصلحته، وتوظيفها لتحقيق أهدافه وغاياته[5]، وهو ما جعل العلاقة بين

1. إن المتأمل في معظم الكتابات والدراسات الكولونيالية حول الزوايا والطرق الدينية بالمغرب يتبين له اتفاقها على الخطورة التي شكلّتها الطريقة الدرقاوية على المخططات الاستعمارية، ووصفها بالفوضوية والمعارضة، والمحرضة على الفتن. فمثلًا يعتبر كوبولاني Coppolani الطريقة الدرقاوية «طريقة للدراويش بثيابهم البالية المتسخة الذين غالبًا ما يتظاهرون بنشر العلم، لكن هدفهم الحقيقي هو نشر الفوضى، والتحريض على التمرد ضد السلطة السياسية، إنهم في عصيان مستمر ضد كل الحكام سواء أكانوا عربًا أم أتراكًا أم مسيحيين... يُخفون وراء ثيابهم الرثة وزهدهم أهدافًا سياسية للوصول إلى السلطة». أما رين Rinn فيعتبر الدرقاويين «بثيابهم المتسخة، وشعرهم الطويل، ومبالغتهم في العبادة والزهد، وحذرهم من التعامل مع رجالات السلطة، يخططون لأهداف وغايات سياسية»، انظر: Dragüe G: **op.cit,** p268.
   وحسب جورج دراك كان السلطان مولاي عبد الرحمن والعديد من رجالات المخزن ينتمون للطريقة الدرقاوية، هذه المعلومة، وإن كانت تتناقض مع ما أوردته الكتابات الكولونيالية حول أحوال الدرقاويين ومزاجهم الفوضوي، فإنها تجعلنا نتساءل حول ما إذا كان انخراط هذه الشخصيات الفاعلة في المخزن المغربي نابعًا عن اقتناعها بالأفكار والمبادئ الدرقاوية، أم أنها رأت أنه لا مناص لها من التعامل مع هذه الأوساط القبلية الأمازيغية، ونيل رضاها في إطار السياسة المخزنية المعروفة بالتقرب من الزوايا الكبيرة قصد احتوائها.
   في حين يرى ميشو بلير Bellaire Michaux أن الدرقاويين معارضين للمخزن بشكل آلي. انظر:
   Michaux Bellaire: «Les confréries religieuses Au Maroc», **Archives Marocaines,** Vol XXVII, (Paris: Librairie Ancienne Honoré, 1927), p 84.
2. Drouin Jeannine: **op.cit,** p 15.
3. Drague G: **op.cit,** p 267, 287, Depont octave et Coppolani Xavier, **Les confréries religieuses musulmanes,** (Alger: A. Jourdan, 1897), p 512.
4. تعرّض الدرقاويون إلى موجة من الإدانات من جهات مختلفة: زعماء الزوايا، علماء، فقهاء، بالإضافة إلى محاكمتهم ومطاردتهم. وأبرز مثال على ذلك محاكمة درقاويي مدينة تطوان، التي تحولت من قضية شرعية ذات ملامح صوفية إلى قضية درقاوية كبرى انطلق معها مسلسل التعذيب والمضايقة والاضطهاد النفسي والجسدي، الذي سُخرت له كل الوسائل المادية والمعنوية؛ بهدف إثابة الدرقاويين عما هم فيه، وإرجاعهم عن شعاراتهم ومظاهرهم وتصفية حركتهم، إذ شن قائد مدينة تطوان محمد الصريدي حملة قمعية ضد أتباع مولاي العربي الدرقاوي، وقام باعتقال العديد منهم، وخاصة العالم المشهور أحمد بن عجيبة بتهمة مخالفة السنة، والتنكر لقيم المجتمع، ويُفسر هذا الموقف الصارم الذي تبناه قائد تطوان من الدرقاوي ابن عجيبة بإصرار السلطان مولاي سليمان «إذا لم يرجع الفقيه ابن عجيبة عن ذلك فقيده بالسلاسل واسجنه ثم أرسله إليّ». الخداري محمد: **مرجع سابق،** ص 194.
5. Michaux Bellaire: «L'évolution politique de la Berbère sédentaire», **Archives Marocaines,** (1912), p 24.

الطرفين تنتقل من الصراع إلى التعاون الذي تجلى بوضوح في سعي السلطان المولى سليمان للاستفادة من النفوذ الديني والسياسي للشيخ الدرقاوي عندما كلفه بمهمة تهدئة القبائل المتمردة ضد باي وهران[1] بعد أن «هاجت الفتنة بين عرب تلمسان والترك، وكان السبب في ذلك أن باي وهران كان له انحراف عن الفقراء والمنتسبين وسوء اعتقاد فيهم، فقتل بعض الطائفة الدرقاوية، وأمر بالقبض على مقدمهم أبي محمد عبد القادر الفليتي تلميذ الشيخ الأكبر أبي عبد الله سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي شيخ الطائفة المذكورة»، لكن المقدم الدرقاوي أبا محمد عبد القادر بن الشريف الفليتي فر إلى الصحراء، ونجح في تعبئة أعداد كبيرة من الأتباع الدرقاويين الجزائريين، الذين ضاقوا ذرعًا بتصرفات الحكام الأتراك و«امتعضوا لمن قتل منهم ولنفي مقدمهم عن وطنه وعشيرته... وزحفوا لحرب الترك على حين غفلة منهم فقتلوهم في كل وجه»[2].



السلطان المولى سليمان.

وبعد أن تمكن درقاويو الجزائر من هزيمة الأتراك لمرات عديدة، واشتد حصارهم لوهران، وأمام عجز هؤلاء عن فك الحصار لجأ باي وهران إلى مراسلة السلطان المولى سليمان وطلب منه «أن يوجه شيخهم مولاي العربي لإطفاء هذه النار، فوجهه السلطان وأمره أن يكُف من سعى في ذلك ويردهم»[3]. لكن الشيخ الدرقاوي أيد تمرد أتباعه وخاطبهم قائلًا: «إن الأتراك قد ولت أيامهم، وقد ملككم الله بلادهم»[4]، فتزعم ابن الشريف الثورة ضد الأتراك سنة 1808م بدعم من الشيخ الدرقاوي، الذي أذن له ولأتباعه «بجهادهم وقتالهم»[5]، فازدادت «العرب بذلك تظاهرًا على الترك، وتكالبًا عليهم، فاتهم الباي السلطان بأنه هو الذي يُغريهم لأنه كان ينتظر الفرج على يديه». وبعد فك الحصار عن وهران توجه الشيخ الدرقاوي إلى تلمسان، واتفق مع سكانها على خلع بيعة الأتراك ومبايعة سلطان المغرب، وخطبوا باسمه في المساجد، كما وجه ابن الشريف «وفده

1. Drouin Jeannine: **op.cit**, p 14, Drague G: **op.cit**, p 252.

2. الناصري أحمد بن خالد: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، (البيضاء: دار الكتاب، 1956)، ج 8، ص 109.

3. أكنسوس محمد بن أحمد: **الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي**، تحقيق وتقديم أحمد بن يوسف الكنسوسي، الجزء الأول، (مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، 1994)، ص 283، 284.

4. الخداري محمد: **مرجع سابق**، ص 263.

5. **المرجع السابق**، ص 260.

وهديته إلى السلطان مع شيخه»[1]. وبذلك تأكدت شكوك الأتراك في ضلوع المولى سليمان، وحملوه المسؤولية فيما آلت إليه الأوضاع.

وضعت هذه المستجدات السلطان المولى سليمان في موقف حرج، فمن جهة هناك حق الخلافة الذي يفرض عليه شرعًا قبول هذه البيعة، ومن جهة أخرى توجد عدم الرغبة في الدخول في مواجهة مباشرة مع الأتراك. وللخروج من هذه «الورطة» اختار المولى سليمان عدم إقحام نفسه في هذه المخاطرة، التي قد تنتهي بمواجهة عسكرية مع الأتراك في الجزائر، وتبنى نهج الدبلوماسية «فرد عليهم بيعتهم وطردهم، وقبح فعلهم، وخروجهم عن طاعة أميرهم... وقال لهم ارجعوا إلى بلادكم، ولا حاجة لي بولايتكم، وتوبوا إلى الله من فعلكم»[2]. كما تبرأ من الشيخ الدرقاوي، وأنكر تصرفاته[3]، وعاتبه وطرده من بابه[4].

أدى رفض السلطان المولى سليمان لبيعة سكان تلمسان إلى دخول العلاقة بين الزاوية الدرقاوية والمخزن المركزي في مرحلة من الفتور والتأزم، زاد من حدتها إقدام السلطان على مهاجمة الطرق الصوفية وإدانة ممارستها[5]، فرغم تقبله لورد الناصريين والوزانيين -لأهداف سياسية محضة- فإن تأثره كان واضحًا بالأفكار الوهابية، التي تُحرِّم زيارة الأولياء والمواسم[6]، مما جعله يصطدم بشيوخ الزوايا وأتباعهم. وقد استند على هذا الاتجاه السلفي لبلورة استراتيجية وضع من خلالها الزاوية خارج الشرع، فحاول القيام بنوع من التدجين للزاوية ليس على الطريقة الإسماعيلية، ولكن على طريقته الخاصة، حيث أكد على ضرورة ارتباط الزاوية بالشرع كشرط للسماح بتواجدها، إلا أنه أمام فشل هذه السياسة لجأ المولى سليمان لأول مرة إلى بلورة استراتيجية تهدف إلى اقتلاع الزاوية من جذورها من خلال وضعها خارج الشرع[7]، وذلك باتخاذ عدة إجراءات ترمي إلى إلغاء الحصانة التي كان يتمتع بها شيوخ الزوايا والطرق الدينية وحرمانهم من الامتيازات التي كانت تمنحهم السلطة المركزية حتى صارت حقوقًا شبه مكتسبة.

وحاول السلطان المولى سليمان فك الارتباط بين الزاوية والقبيلة من خلال تنديده ورفضه لممارساتها باعتبارها بدعًا مخالفة للسنة، فمنع إقامة المواسم[8] التي لم تكن لها دلالة اقتصادية فقط كمصدر هام من مصادر الدخل، بل لها دلالات سوسيولوجية ودينية أيضًا تتمثل في خلق شعور جماعي بالتماسك لدى أفراد الزاوية، والعمل على تجديد الروابط والصلات بين شيوخ الزوايا وأتباعهم ومريديهم بشكل يضمن استمرارية الزوايا والطرق الدينية.

1. الناصري أحمد بن خالد: **مرجع سابق**، ص 110، 111.
2. أكنسوس: **مرجع سابق**، ص 284.
3. Drague G: **op.cit**, p 254.
4. الخداري محمد: **مرجع سابق**، ص. 260.
5. Drouin Jeannine: **op.cit**, p 14.
6. Drague G: **op.cit**, p255.

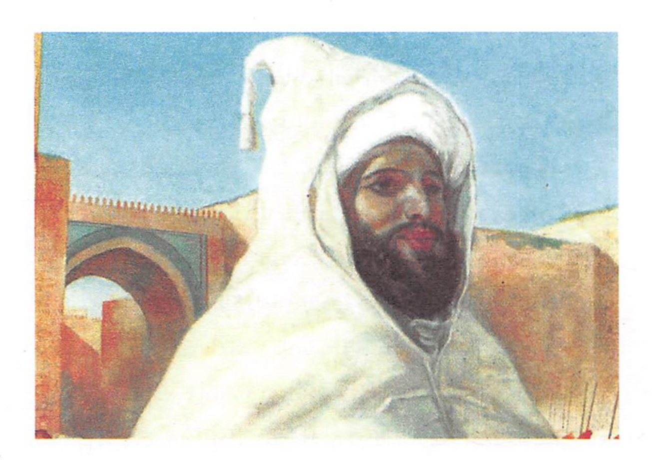
أجمع كل من عرفوا المولى سليمان عن قرب على صفات الزهد والتقشف التي طبعت سلوكه. ولم يفت الملاحظين الأجانب الذين زاروا المغرب أن يُشيروا إلى بساطة نمط عيشه، ونفوره من مظاهر الترف. فلباسه كان في غاية البساطة، كما أن بلاطه كان بعيدًا كل البُعد عن مظاهر الأبهة، وانطلاقًا من ذلك أبدى السلطان المولى سليمان تعاطفًا مع الأفكار الوهابية، فكان بالتالي من الحكام المسلمين القلائل الذين امتنعوا عن مهاجمة المذهب الوهابي، انظر: المنصور محمد: **المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين (1792-1822)**، ترجمة محمد حبيدة، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2006)، ص 223-228.

7. ظريف محمد: **مرجع سابق**، ص 139.
8. قام السلطان المولى سليمان بكتابة رسالة تُحرِّم زيارة الأضرحة، وإقامة المواسم أُلقيت في مختلف مساجد المغرب، وهو ما اعتبره زعماء الزوايا والطرق الدينية بمثابة إعلان حرب ضدهم. فهل كان ارتكاز المولى سليمان على الأفكار والمبادئ الوهابية استمرارًا لمسلسل الإخضاع، والاحتواء الذي تبناه السلاطين العلويون، ونهجوه طوال تاريخهم للحد من نفوذ الزوايا غير المندمجة بشكل كامل في النسق المخزني، أم كان نابعًا عن اقتناع وتشبع بهذه الأيديولوجية الوهابية؟ الاحتمالان قائمان، ولم يستطع الباحث الجزم في الأمر.

عارض مولاي العربي الدرقاوي إجراءات السلطان وسياساته الرامية إلى الحد من النفوذ السياسي للزوايا والطرق الدينية من خلال إضعاف رصيدها المعنوي والنيل من تلاحمها، فثار أنصاره في مختلف مناطق المغرب وألحقوا بقوات السلطان عدّة هزائم[1]. وبعد أن عجز المولى سليمان عن إخضاع المجموعات القبلية «لآيت سخمان» بزعامة أبي بكر أمهاوش[2] سواء باعتماد الوسائل العسكرية، أو بفرض حصار اقتصادي خانق، قرر سنة 1816م القيام بحملة عسكرية واسعة النطاق لإرغام هذه الأوساط القبلية على الإذعان[3]. وقد حاولت هذه الأخيرة العمل على تجنب هذه المواجهة عندما أرسلت إلى السلطان وفدًا يطلب عفوه وشفاعته «فلما بلغوا بلاد العدو أتوهم بالنساء والولدان طلبًا للمجاوزة والمسامحة، وأظهروا الطاعة والتوبة...فلم يساعفهم، ومنعه من ذلك من كان معه من رؤساء الأعراب والبربر، ولم يقبلوا الصلح»[4]. وبعد رفض السلطان الصلح، أصبحت المواجهة حتمية بين الطرفين، وانتهت بهزيمة جيوش السلطان وأسر هذا الأخير. وقد كانت هذه «الوقعة الفادحة سبب سقوط هيبة السلطان المولى سليمان من قلوب الرعية، فلم يمتثل له أمر في عصاتها حتى لقي الله تعالى»[5]. كما أدت إلى انتشار الفوضى والاضطرابات وتفكك المؤسسة المخزنية وعجزها عن فرض سلطتها في مختلف مناطق المغرب.

قاد أبو بكر أمهاوش مقاتليه من القبائل الموالية له، بتحريض ودعم من زعيم الطريقة الدرقاوية ضد المولى سليمان، الذي فقد مشروعيته الدينية حسب هذه الأوساط الدينية والقبلية المحافظة، «واستحوذوا على مزارع مكناسة ومسارحها، فنصب لهم السلطان حبّالة الطمع وكادهم بها ...إلى أن وفد عليه منهم في مرة سبعمائة فارس من أعيانهم فقبض عليهم وجردهم من الخيل والسلاح وأودعهم السجن...وقامت بسبب ذلك فتنة البربر على ساق...وزحفوا إلى مكناسة وحاصروها وجاءوا معهم بدجالهم أبي بكر أمهاوش»[6]. وفي سنة 1820م تزعم مولاي العربي الدرقاوي حركة «انقلابية» بمشاركة الحاج العربي الوزاني شيخ الزاوية الوزانية[7] وعدد من أعيان مدينة فاس بهدف خلع السلطان المولى سليمان، وتنصيب مولاي إبراهيم ابن السلطان السابق مولاي يزيد[8]، لكن حادثًا فجائيًا أنقذ السلطان، فمولاي العربي المنتشي بالنصر حلّ، دون اتخاذ إجراءات احتياطية، قُبالة جيش «الودايا»[9] لكي يحصل على ولاء إحدى الفرق العسكرية التي بقيت مُخلصة للسلطان، فتمّ إلقاء القبض عليه، مما جعل القوات القبلية الأمازيغية تُوقف هجماتها لإنقاذ حياة الشيخ الدرقاوي، وهكذا قام الزعيمان الدرقاويان أبوبكر أمهاوش، والقائد بلغازي الزموري[10]، الذي «كان من أصحاب الشيخ المذكور وممن له فيه اعتقاد كبير»[11]، بتوقيع هدنة مع المخزن الذي احتفظ بالشيخ الدرقاوي رهينة لديه.

1. ظريف محمد: **مرجع سابق**، ص 140.
2. ينتسب «آل أمهاوش» إلى قبيلة «آيت سري» الواقعة بين نهر أم الربيع ووادي العبيد، يشمل نفوذهم «آيت سخمان» وقسم من «إيشقرن». ترجع تسميتهم بآل أمهاوش إلى جدهم سيدي علي إحساين الذي تزوج في القرن الثامن عشر بامرأة تسمى «تمهاوشت». ويُعدّ أبو بكر أمهاوش من أبرز زعماء آل أمهاوش، اكتسب نفوذًا دينيا كبيرًا وقوة حربية هائلة، واستفاد من التقارب مع شيوخ الزاوية الدرقاوية، ومن توطد العلاقات مع مولاي العربي الدرقاوي، حيث تخلّت الزعامات القبلية لآيت أمهاوش مع بداية القرن التاسع عشر عن انتمائها للزاوية الناصرية، وأظهرت تعاطفها مع الدرقاويين.
3. أكنسوس: **مرجع سابق**، ص 303؛ الناصري: **مرجع سابق**، ص 115.
4. أكنسوس: **مرجع سابق**، ص 304.
5. الناصري: **مرجع سابق**، ص 137، 138.
6. **المرجع السابق**، ص 138.
7. Drague G, **op.cit**, p152.
8. Drouin Jeannine: **op.cit**, p 14.
9. فرقة عسكرية أنشأها السلطان المولى إسماعيل، وضمت مقاتلين محترفين اختارهم من قبائل بدوية عربية.
10. من أبرز زعماء قبائل زمور، وهو اتحاد قبلي أمازيغي يستقر في وسط غرب المغرب.
11. الناصري: **مرجع سابق**، ج 9، ص 6.


السلطان المولى عبد الرحمن

بعد وفاة السلطان المولى سليمان، «بويع السلطان المولى عبد الرحمن فزاد البربر ذلك الحلف توكيدًا وشدةً... لاسيما رئيسهم الحاج محمد بن الغازي الزموري فجد في صرف وجوه البربر عن السلطان، واستعان في ذلك بأبي بكر أمهاوش فروض له رؤساء البربر حتى اجتمعت كلمتهم... وجعل لذلك سببًا، وهو أن الشيخ أبا عبد الله الدرقاوي كان مسجونًا عند «الودايا»، واستمر في السجن إلى أن بويع المولى عبد الرحمن»[1]. ورغبة منه في تحقيق التقارب مع الدرقاويين، وبالتالي وضع حد لهذه الأزمة، قام السلطان المولى عبد الرحمن بإطلاق سراح الشيخ الدرقاوي[2].


السلطان المولى الحسن

أما السلطان المولى الحسن فقد تبنى سياسة دينية حاول من خلالها تدجين الطرق والزوايا وإخضاع شيوخها. ووعيًا منه بالخطورة التي يُشكِّلها آل أمهاوش الدرقاويون والهزائم التي ألحقوها بمولاي سليمان، ورغبة منه في القضاء على هذا الخطر المُحدق، تحالف المولى الحسن مع الزعيم الزياني موحى أوحمو[3] الذي كان في صراع دائم مع سيدي علي زعيم آل أمهاوش، حيث قام سنة 1888م بالهجوم على منطقة ألمسيد التابعة لآل أمهاوش بمساندة القبائل الزيانية. ورغم إعلان قبائل «آيت سخمان» خضوعها، فإن الزعيم الزياني الذي كان يرغب في إضعاف خصمه وتأزيم وضعيته، نصح السلطان بفرض غرامة مالية ثقيلة[4] عليهم. ووافقت قبائل «آيت سخمان» على قرار السلطان الذي كلف عمه مولاي سرور باستخلاص هذه الغرامة [5]؛ بمساعدة

1. **المرجع سابق،** ج9، ص 6.
2. Drouin Jeannine: **op.cit,** p 14.
3. يعد موحى أوحمو من أشهر قواد اتحادية زيان، ينتمي إلى قبيلة آيت حركات، تلقى تربية حربية منذ صغره أهلته ليتقلد زعامة قبيلته وهو في العشرين من عمره، وقد بدأت علاقة موحى أوحمو بالسلطة المركزية المغربية مع السلطان المولى الحسن، الذي عينه قائدًا على قبيلة زيان سنة 1886، وبوفاة السلطان المولى الحسن تذبذبت علاقته بالسلطان عبد العزيز، حيث حاول الاستقلال عن السلطة المركزية لعجزها عن أداء رواتب الجند، غير أن هذه العلاقة تغيرت إلى الأفضل مع السلطان عبد الحفيظ، انظر: بن لحسن محمد: **معركة لهري 13 نونبر 1914،** (فاس: مطبعة أنفوبرانت، 2001)، ص 110.
4. Drague G: **op.cit,** p 157.
5. بن لحسن محمد: **نظرية المقاومة من خلال مخطوط كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر، دراسة تنظيرية مع توثيق النص،** أطروحة لنيل دكتوراه الدولة غير منشورة، (بني ملال: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1997)، ج III، ص481. ورغم هذه الصراعات التي خاضها السلطان المولى الحسن ضد أتباع الزاوية الدرقاوية، وخاصة سيدي علي أمهاوش، فإنه حافظ على علاقات طيبة مع أبناء مولاي العربي، وخاصة مولاي الطيب، ومولاي عبد الرحمن.

قوات مخزنية قليلة العدد، لكن هذه الأخيرة وقعت في كمين نصبه لها سيدي علي أمهاوش مما أدى إلى مقتل عم السلطان رفقة قواته.

تعتبر الزاوية الدرقاوية إذن أنموذجًا للزوايا التي انفلتت من السيطرة المخزنية، ونجت من عملية الإخضاع والاحتواء التي نهجها المخزن، وبالتالي تميزت مواقفها بنوع من الاستقلالية النسبية؛ بل ودخلت في صراعات عديدة ضده. وقد جعلت هذه المعارضة التي تبنتها الزعامات الدرقاوية ضد السلطة السياسية، ورفضها لسياسات المخزن وتشددها إزاء كل سلطة حاكمة من الطريقة الدرقاوية أخطر طريقة دينية في المغرب تؤطر العديد من الانتفاضات والثورات وتدعمها وتقف وراءها، وقد كان المخزن واعيًا بما تُشكّله هذه المؤسسة الدينية والسياسية الممتدة في مختلف مناطق المغرب من خطورة، ومن بعده القوات الاستعمارية التي حسبت لها ألف حساب.

3- الزاوية الدرقاوية وتبني نهج المقاومة

شكلت نهاية القرن التاسع عشر المرحلة الأخيرة من مسلسل الإخضاع الكامل لجُلّ الزوايا والطرق الدينية[1]، وخاصة ذات النفوذ الواسع مثل الوزانية[2] والناصرية[3] والشرقاوية[4]... وذلك بتبني المخزن لسلسلة من الإجراءات الهادفة إلى احتواء هذه الزوايا، عبر الحد من نفوذها الديني والسياسي، وإدماجها ضمن النسق المخزني، فأصبحت عبارة عن مؤسسات مخزنية مهمتها تمثيل المخزن في مناطق نفوذها وحماية مصالحه والدفاع عنها مقابل تمتعها بامتيازات متنوعة (هبات، عقارات، إعفاءات ضريبية)، فتحول زعماؤها من رجالات علم وتصوف إلى إقطاعيين همهم الأساسي الحفاظ على امتيازاتهم وجمع الأموال ومراكمة الثروات. لكن بعد ضعف المخزن وعجزه كان من الطبيعي أن يبحث بعض شيوخ هذه الزوايا ورجالاتها عن سلطة داعمة أخرى تُحافظ على مكتسباتهم وتدعم طموحاتهم، فكان انتقالهم من الوصاية المخزنية إلى وصاية وحماية سلطات الحماية الفرنسية. لقد أدرك هؤلاء مبكرًا ضرورة البحث عن موطئ قدم لهم في العهد الجديد ضمانًا لاستمرارية امتيازاتهم وحفاظًا عليها فرحبوا بالمشروع الاستعماري ودعموه وأقنعوا أنصارهم وأتباعهم بإيجابياته ومزاياه.

لكن إذا كانت النتيجة النهائية التي آلت إليها هذه السياسات المخزنية تجاه الزوايا هي انتهاءها بتقديم خدمات وتسهيلات لقوات الاحتلال، بعدما كان دورها سابقًا خدمة المخزن، ومساندة قراراته، ومواقفه وتزكيتها، فإن الزاوية الدرقاوية تُعتبر من أبرز الزوايا المغربية، التي تحركت في بنيانها آليات المقاومة، وأعادت ربط المجتمع المغربي بتاريخه المحلي،

1. تحولت الزوايا والطرق الدينية بالتدريج إلى أجهزة إدارية تابعة للمخزن تخدم مصالحه، وتُدافع عنها وتُبررها أمام الناس، وتُسهم في تحقيق أهدافه وسياساته، وتجعل من نفسها أداة ووسيلة للدفاع عنه وتكريس شرعيته. وقد تكرست هذه التبعية المطلقة بفعل مسلسل المخزنة الطويل الأمد الذي تعرضت له هذه الزوايا وغيرها في إطار علاقتها بالمؤسسة المخزنية، فقد عمد السلاطين العلويون إلى احتوائها وتدجينها مُستعملين في ذلك العديد من الآليات، فمنحوا شيوخ الزوايا مظاهر التوقير والاحترام، وأعفوهم من الضرائب، وأنعموا عليهم بالإقطاعيات والهبات والهدايا، فتحولوا من رجالات زهد وتصوف ودين وعلم إلى مستثمرين في الميادين الفلاحي والتجاري، يكدون في تسيير إقطاعاتهم ويتصارعون من أجل المحافظة عليها.
2. تأسست الزاوية الوزانية على يد الولي أبي محمد عبد الله المعروف باسم مولاي عبد الله الشريف في شمال المغرب، وأكثر تحديدًا بالريف الغربي، عند قدم جبال الريف، وهي تتوسط مجموعة من القبائل، كرهونة ومصمودة وغزاوة، وكلها بمنطقة جبالة، وقد أعطى هذا الحزام من القبائل للزاوية قوة كبيرة.
3. تعتبر الزاوية الناصرية من أبرز وأهم الزوايا في تاريخ المغرب، تأسست على يد الشيخ محمد بن ناصر الدرعي سنة 1575م، بقرية «تمكروت» جنوب شرقي المغرب.
4. تأسست الزاوية الشرقاوية في مطلع القرن 16م على يدي سيدي بوعبيد الشرقي العمري أحد أقطاب الصوفية في مدينة أبي الجعد في وسط المغرب. وهي مؤسسة دينية وعلمية واجتماعية تُعتبر من أهم الزوايا في تاريخ المغرب، شاركت بقوة في الحراك السياسي بالمغرب.

وخاصة فترة المد الكامل للصلحاء في القرن السادس عشر[1]، فقد شكل الاستعمار الفرنسي للجزائر وبداية تحرشاته بالأراضي المغربية إطارًا كافيًا لهذه الزاوية كي ينصب عمل شيوخها وأتباعهم على تبني سياسة تنخرط بشكل كامل في المجال السياسي بتحريض المجتمعات القبلية ضد كل أشكال الاحتلال الأجنبي، إذ وقفت جُل الزعامات القبلية والصوفية الدرقاوية في وجه الغزو الفرنسي، وانبرت للدعوة إلى الجهاد وحث القبائل على تنظيم المقاومة، ممثلة تيار المقاومة والجهاد أحسن تمثيل، وانخرطت في مهمة استنهاض القبائل، وإشعارها بمخاطر المخططات الاستعمارية، وتعبئتها لمواجهة قوات الاحتلال، في وقت كان الموقف العام لجُل الطرق والزوايا يتّسم بالسلبية، والركون إلى مسالمة السلطات الاستعمارية ومهادنتها، وهو ما يُفسر اكتساح الزاوية الدرقاوية لمختلف مناطق المغرب وقتذاك، وتفوقها على باقي الزوايا والطرق الصوفية، التي كانت تفقد أتباعها بسرعة لصالحها، ومن ثم قدم الدرقاويون في هذا الظرف الدقيق والحرج من تاريخ المغرب زعامات صوفية وقبلية كان لها شأن كبير في تنظيم المقاومة والجهاد[2].

وقد كان من النتائج المباشرة لهذا النهج الذي تبناه الدرقاويون انتشار الأفكار والمبادئ الدرقاوية في مختلف مناطق المغرب، ونجاح الزعامات المنتمية للزاوية الدرقاوية أو المتعاطفة معها في تثبيت سلطتها الرمزية وتكريس قدسية مواقفها، وتحول شبكة الزوايا الدرقاوية المحلية إلى قوة دينية وسياسية تمتعت بنفوذ واسع عجز المخزن عن احتوائها[3].

أدى هذا النهج الذي انتهجه الدرقاويون إلى أن أصبحوا حالة استثنائية بين مختلف مكونات الحقل الصوفي المغربي، فمنذ أواسط القرن التاسع عشر وحتى عشرينيات القرن العشرين، عرف المجال القروي المغربي حركية ودينامية مكثفة وخطيرة كانت الزاوية الدرقاوية حاضرة فيها بطريقة مباشرة سواء بشكلٍ كامل أو جزئي، من خلال المنتسبين إلى بعض زواياها الفرعية أو المتعاطفين معها أو الذين يعتقدون في بنائها المذهبي. إنها زعامات دينية وقبلية أفرزتها الزوايا الدرقاوية سواء بوصفها علاقة انخراط أو تعاطف أو دعم ومساندة[4]، انتقلت من معارضة سياسات المؤسسة المخزنية إلى التشدد ضد كل أشكال الغزو الاستعماري، خاصة على المستوى الفكري من خلال اعتماد المرجعية الدينية الجهادية، وتبني وسائل تأطيرية لخوض هذا النشاط الجهادي كالآليات الدينية والطرقية والقيم القبلية. كما انبرت لتنوير المجتمعات القبلية المغربية، وإشعارها بمخاطر المؤامرات الاستعمارية الفرنسية وأهدافها بالمغرب، وتعبئتها وتأطيرها وحثها على التصدي لها والوقوف في وجهها، مع ما تطلّبه ذلك من رد فعل حازم ومعارض. وهذا بالضبط ما جسده شيوخ الزاوية الدرقاوية عامةً، وفسر تفوقهم على غيرهم من الزوايا التي كانت تفقد أتباعها بسرعة لحساب الدرقاويين. بل إن الزاوية الدرقاوية تُقدم في هذا الظرف الدقيق والحرج من تاريخ المغرب زعامات سياسية وعسكرية أصبح لها شأن كبير في قيادة حركة الجهاد والمقاومة.

إن تميز الزاوية الدرقاوية بمواقفها الرافضة لتدخلات المخزن وسياساته يضع هذه الزاوية في إطارها السياسي

1. الزاهي نور الدين: **مرجع سابق**، ص 8. وحول الأدوار التي قام بها رجال التصوف، وشيوخ الحركة الصوفية في تنظيم أمور الجهاد والرد على الغزوات المسيحية على السواحل المغربية خاصة الهجمات البرتغالية، انظر: الذهبي نفيسة: «الزوايا المغربية في القرن 11هـ/17م قراءة تركيبية»، **مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي**، العدد13، (2005)، ص 47-48؛ بن عتو عبد الله: «التصوف المغربي، من عمق السياق إلى قوة الرمز»، **المناهل**، الجزء الأول، العدد 80-81، (2007)، ص 294.
2. Michaux Bellaire: **op.cit**, p 59.
3. مقابل هؤلاء الشيوخ الدرقاويين، الذين تبنوا المقاومة، ودعوا إلى الجهاد في شتى جهات البلاد، شكّل زعماء درقاويون آخرون الاستثناء، فتواطأ بعضهم مع قوات الاحتلال، وعملوا بكل وسائلهم على تشتيت كتلة المقاومة، وتفكيك وحدتها، كما كان الشأن مع شيخ الزاوية الأم في بني زروال، في حين اتسمت مواقف زعامات درقاوية أخرى بالتقلب والازدواجية، وتأرجحت بين تبني المقاومة والدعوة للجهاد، وبين الانضمام إلى الجانب الفرنسي ومساندة مشاريعه ودعمها.
4. Depont octave: **op.cit**, p 512.
5. الزاهي نور الدين: **مرجع سابق**، ص 12.

والأيديولوجي كتيار ديني وسياسي معارض، ويجعل من رفضها لكل أشكال حضور المحتل في المجتمع المغربي، وتزعمها لحركة الجهاد ضد قوات الاحتلال باعتبارها قوات مسيحية من الناحية الدينية، وقوات غازية محتلة من الناحية السياسية، أي أن حركة الجهاد اتخذت شكلًا مزدوجًا يتمثل في الدفاع عن الدين، والحفاظ على الاستقلال.

خاتمة

شكلت الزاوية الدرقاوية إذن منذ ظهورها قوة دينية وسياسية كبيرة مضادة لسلطة المخزن، ورافضة أن يُشاركها مجال نفوذها السياسي، فدخلت في صراعات عديدة ضده وحفل تاريخها بالثورات والانتفاضات، إذ عملت على تأطير مختلف أشكال التمرد القبلي، ودعم العديد من الثورات، التي شهدتها مناطق مختلفة من المغرب، خاصةً تلك النائية والبعيدة عن المخزن المركزي. وهكذا أصبح الدرقاويون في مُجملهم يُشكّلون جبهة قوية لمُعارضة المؤسسة المخزنية، وانتقاد عجزها عن وقف المخططات الاستعمارية مستغلين ما راكموه من قدسية ورمزية. وانطلاقًا من هذه المواقف المُعارضة للسلطة المخزنية، كان من الطبيعي أن تنتقل الزاوية الدرقاوية إلى رفض كل أشكال حضور المحتل في المجتمع المغربي، كما كان من الطبيعي أيضًا أن تكون المناطق البعيدة عن المؤسسة المخزنية، والتي لا تدخل ضمن نطاق سيطرتها المباشرة أراضٍ خصبة لانتشار الأفكار والمبادئ الدرقاوية، ومعاقل مُفضلة لظهور أهم الزعامات الجهادية الدرقاوية.

غلاف كتاب تاريخ الديانات في المغرب.



فلنعمل صليبا والبواقي الصاحة
الي صورتة اذ ليس له حركة وصوق
يخرج من جهة اخرى
الفصل السابع
في كيفية عمل الوسايط المتحركة
بجميع ما ذكرة و من الابواب
الاولى والثانية والهلال
على الافق دون الابواب
الثانية والبازمان و
الليل فقط لمن اراد ال
تقتصر على ذلك يعمل البيت تابت
يدخل منه ويعمل في وسط البيت
بركة من نحاس ينتهي اليها ما يخرج
من الخاسد [illegible] من ذلك
ثم تنصب اليه الماء الي الجامة
والربع والدستور المعقوم ليخرج الماء على ما تقدم وصفه ولكن
الخانة عن يمين الحجاب ولكن ما يخرج من يخرج من الماء
على ارض صلبة الي البركة ثم تتخذ من الخشب الصلب
اليابس قرص كالترس [illegible] لا اسود لكن قطره ثلثة
اشبار ونصف وزيادة نصف ظفر وسمك اصبعين ثم
ثم يخرج قطره من وجه واحد بخط مور ويدار على مركزه
دائرة قطرها ثلثة اشبار ونصف ثم دائرة اخرى قطرها
شبران ثم نقطع من طرفه على خط قطره الي حد الدائرة الثانية

صفحة من مخطوط الحيل الميكانيكية للجزري



في سكرجة جالسة ثابتة في طرف الحاجب ويقفل عنه وسكرجة
اخرى منطبقة على الطرف الاعلى ثم يتخذ قماط من ادم
ما هو طول وعرضه ما يستر الجامات ويوثق طرفه من
المحقة المنتصب على سمت الجامات ويدار المحقة ليلتف
عليه القماط كالدرج ويشد طرفه الاخر في ومط ظهر
العجلة فمن اول الميدان وللسقوا المنتصب عليها
يحاذي طرف اول جامة ومتى سارت العجلة فان
القماط ينتشر وينشر جامة بعد اخرى حتى ينشر
جميع الجامات وهذه صورة المحقة

وعليه ح وللسكرجتين وعليهما م م والقماط وعليه
ع وطرفه في سفود العجلة وعليه س وهو منتشر واما
مواضع الكرات الاثنى عشرة فتتخذ لها مواضع على
ما تقدم في الشكل الاول وتلك الخشبة العليا في عرضها
ثمان ثقبان وليكن لهذه ثقب والشفرات
على ما تقدم وزيادة وهي ان تشد في ثقب ذنب
كل شفرة خيط طوله نحو شبر واحد وفي طرفه ثقالة
من رصاص اثقل من الشفرة ويعارض دون
اذناب الشفرات خشبة فيها اثنا عشر [illegible] ما يقوم
في الشكل الاول المعلق فهم الثقالات ثم تحاذى باسفل كل ثقالة

A page of the Manuscript of "Al-Hiyal" (Mechanical tricks) by Al-Jazari

to look only to the near past, present and the future, is to learn the value in looking backward too, into history. In doing so, it may be rediscovered that advanced thinking and vision are traits of all humans, present and past. The only difference is that now, the world finally has many of the technological tools to attempt and verify what once was only imaginary.

CITATIONS

1. «Europa».In: **Zedlers Universal-Lexicon,** Volume 8, Leipzig 1734, columns 2192–2196 (citation: column 2195).

2. George Modelski, World Cities: –3000 to 2000, Washington, D.C.: FAROS 2000, 2003.ISBN 978-0-9676230-1-6. See also Evolutionary World Politics Homepage and Trudy Ring, Robert M. Salkin, K. A. Berney, Paul E. Schellinger (1996)."International dictionary of historic places, Volume 4: Middle East and Africa". Taylor and Francis: 116.

3. Rashed, Roshdi (2007),"The Celestial Kinematics of Ibn al-Haytham", Arabic Sciences and Philosophy (Cambridge University Press) 17: 7–55, doi:10.1017/S0957423907000355

4. Karpinski, L. C. (1912)."History of Mathematics in the Recent Edition of the Encyclopædia Britannica". American Association for the Advancement of Science

5. http://www.oxforddictionaries.com/definition/english/scientific-method.

6. Konigsveld, Ronald; Stockmayer, Walter Hl. Nies, Erik (2001), Polymer Phase Diagrams: A textbook, Oxford University Press, pp xii-xiii, ISBN 0198556349

7. . Kraus, Paul, Jabir ibn Hayyan, Contribution al'histoire des ideesscientifiquesdansl'Islam. I. Le corpus des ecritsjabiriens. II. Jabir et la science grecque, Cairo (1942-43). Reproduced by FuatSezgin (Natural Sciences in Islam. 67-68, Frankfurt. 2002 (cf. Ahma Y Hassan."A Critical Reassessment of the Geber Problem: Part Three".

8. Angelo, Joseph (2009). Encyclopedia of Space and Astronomy, p 78

9. (Sabra, A. I., ed. (1989), The Optics of Ibn al-Haytham. Books I-II-III: On Direct Vision. English Translation and Commentary. 2 vols, Studies of the Warburg Institute 40, Translated bySabra, A. I., London: The Warburg Institute, University of London, ISBN 0-85481-072-2,OCLC 165564751 165564771 180528350 180528355 180528359 21530166 230045836 24910015 59836570

10. Sabra, A. I. (1978b),"An Eleventh-Century Refutation of Ptolemy's Planetary Theory", in Hilfstein, Erna; Czartoryski, Paweł; Grande, Frank D., Science and History: Studies in Honor of Edward Rosen, StudiaCopernicana XVI, Ossolineum, Wrocław, pp. 117–131

11. Al-Jahiz messages, Alwarraq edition, page 188; Yāqūt, Irshād al-arībiláma`rifat al-adīb, ed. Iḫsān `Abbās, 7 vols (Beirut: Dār al-Gharb al-Islāmī, 1993), 5:2102. And ChuoKikuu cha Dar es Salaam. Chuo cha UchunguziwaLughaya Kiswahili (1974). Kiswahili.East African Swahili Committee. p. 16.;Yāqūt,Irshād al-arībiláma`rifat al-adīb, ed. Iḫsān `Abbās, 7 vols (Beirut: Dār al-Gharb al-Islāmī, 1993), 5:2102.

12. http://www.muslimphilosophy.com/ei2/JAHIZ.htm

13. Medieval Sourcebook:AbûÛthmân al-Jâhith: From The Essays, c. 860 CE.Retrieved 2 October 2014.

14. Zirkle C (1941)."Natural Selection before the "Origin of Species". Proceedings of the American Philosophical Society 84 (1): 71–123.

15. Kitāb al-Hayawān, 'Abd al-SalāmHārūn, ed., 2nd ed., 7vols. (Cairo, 1938-1945)

16. Darwin, Charles (1859). On the Origin of Species by Means of Natural Selection, or the Preservation of Favoured Races in the Struggle for Life (1st ed.). London: John Murray.ISBN 1-4353-9386-4.Retrieved 24 October 2008.

17. Al-Kindi, Al-Falsafa al-Ula, ed. M ARida, Cairo, 1950, Vol. 1;

The first page of al-Kindi's manuscript "On Deciphering Cryptographic Messages", containing the oldest known description of cryptanalysis by frequency analysis.

All that merits recognition. But what made him especially intriguing is an intuitive statement by al Kindi in the mid 800s.

He called it his "theory of relativity" and he expressed it this way:

Time exists only with motion; body with motion; motion with body … if there is motion, there is necessarily body; if there is a body, there is necessarily motion. 17

As for the influence of al Kindi on Einstein, it is highly unlikely that Albert Einstein, as broad and iconoclastic thinker as he was, would have been delving into Islamic physical theory from 10 centuries before. It was most likely a case of parallel discovery, separated by 1,000 years of time.

It is supremely intriguing that all these futuristic and intuitive statements of modern science happened once again in the dust of long-buried Abbasid Iraq, long before computers, electricity, calculators and telescopes.

As seen in the preceding, many of the foundations of the modern world rest in Arab Muslim history. 19th and 20th centuryhigher mathematics, the modern scientific method, natural selection of species and the theory of relativity can find precedent in 9th century Baghdad, 11th century Cairo and other ancient cities.

But even older civilizations like China, India, Byzantium, Persia, Mesopotamia and Egypt also helped fertilize the thinkers of the modern world, in many cases by stimulating invention in the Arab Muslim world,which in turn seeded the European Renaissance.

Put another way, as stated at the beginning of this article, while there are ebbs and flows in the frequency and quality of invention, genius is not restricted to any historical era, race, nation, geography or religion. It is part of being human.

If one looks at the historical record without national or cultural bias, it is obvious that Arab Muslim civilization provided additional, equally important foundations for the modern world: evidence-based medicine, attempts to create artificial life,computation using the human brain and others, to name a few.

Perhaps the highest challenge for the modern world, which tends

survive; and as, consequently, there is a frequently recurring struggle for existence, it follows that any being, if it vary however slightly in any manner profitable to itself, under the complex and sometimes varying conditions of life, will have a better chance of surviving, and thus be naturally selected. From the strong principle of inheritance, any selected variety will tend to propagate its new and modified form

There is grandeur in this view of life, with its several powers, having been originally breathed into a few forms or into one; and that, whilst this planet has gone cycling on according to the fixed law of gravity, from so simple a beginning endless forms most beautiful and most wonderful have been, and are being, evolved"16

This theory, later validated and elaborated by multiple streams of scientific research, would nonetheless remain controversial in many quarters for a century and a half after Darwin's death.

Although perhaps expressed more elegantly than al Jaḥizand backed up by years of focused research and supporting data, within Darwin's theory could be found the shadow of al Jahiz' from 1000 years before. Al Jahiz achieved this biological insightat a time when Europe was a slumbering backwater, still stuck in the Dark Age depression caused by the fall of Rome. In the time of al Jahiz, India and China, ancient and rich civilizations, were in relative decline, still enormously wealthy and powerful but having temporarily surrendered intellectual discovery to the Muslim world. Al Jahiz did his work seven centuries before the theories of Kepler and Galileo and Newton and many others whom the modern world now considers the fathers of modern empirical science. He did his work far outside the frame of Renaissance and Enlightenment Europe.He did this when the desert religion and culture of Islam was barely 200 years old.

Theory of relativity: intuited by al Kindi, articulated by Einstein

This article earlier noted that Einstein's theory of relativity is perhaps the highest intellectual achievement of the modern era. Its mathematical formulation, E= MC2, and all the resulting derivatives, has led to the most advanced discoveries about the atom, nuclear fission and fusion, thermonuclear weapons, astrophysics, the Big Bang theory, a concept of the structure of the universe, the space-time continuum and much more. Its concepts are so complicated and esoteric that only a tiny fraction of the human race can even understand them.

Yet this visionary theory had been voiced, albeit in much simpler fashion and without the mathematical proof, 1000 years before Einstein, by another Arab Muslim thinker just as al Jahiz was ending his life.

AbūYūsufYaʿqūb ibn Isḥāq al-Kindī(801–873 CE) known today as al Kindi, was the first of the great Islamic thinkers who was also an Arab. He entered an august company of high Islamic intellectuals originally populated almost exclusively by urbane Persians and Levantines, exiled Byzantines, Indians and others. This was not to say the world-conquering Arabs were not as intelligent as the other nationalities of the day -- but rather that Arabs until 632 were largely non-urban and often nomadic people not granted the luxury of fertile climates, concentrated wealth and urban division of labor sufficient to allow the development of a sophisticated intellectual class.

Al Kindiwas of the Kinda tribe in what is now Saudi Arabia, and began his studies in the Iraqi town of Kufa. But ambition and good fortune took him then to Baghdad, where he began his rise.

Like many of his polymath contemporaries including al Jahiz, al Kindi exceled in philosophy, science, astronomy, cosmology, chemistry, logic, mathematics, music, medicine, physics, psychology, and meteorology just to name a few.

A devout rationalist and free thinker, he prospered under the patronage of the rationalist Mutazilite caliphs al Mamun and al Mutasim, and suffered persecution and internal exile during the traditionist reign of al Mutawakkil.

While he was an early pioneer in many fields, such as minerology, chemistry, tints and cosmetics -- and especially cryptography, including his work with numerical pattern recognition that reaches its flowering 1000 years later in the Allied code breaking of World War II – he was also a bridge between ancient Hellenistic philosophy and evolving Islamic thought. He translated Greek scientific and philosophical works and saw no contradiction between the Greek tradition and the evolving Islamic thought.

as the BanuSulaim bin Mansur, and that all the peoples settled in the Harra, besides the BanuSulaim are black. These tribes take slaves from among the Ashban to mind their flocks and for irrigation work, manual labor, and domestic service, and their wives from among the Byzantines; and yet it takes less than three generations for the Harra to give them all the complexion of the BanuSulaim. This Harra is such that the gazelles, ostriches, insects, wolves, foxes, sheep, asses, horses and birds that live there are all black. White and black are the results of environment, the natural properties of water and soil, distance from the sun, and intensity of heat. There is no question of metamorphosis, or of punishment, disfigurement or favor meted out by Allah. 13

And yet there was even more to this man. Because as best as can be determined, he was the first person to articulate and record a theory of the natural selection of species.

Although Darwin and Wallace were given credit for first describing the natural selection of the species in their visionary work On the Origin of the Species in 1858, 1,000 years before Darwin, in 830 CE, al Jahiz wrotea visionary work, *Kitab al-Hayawan (Book of Animals).*

Conway Zirkle, writing in 1941, said that an excerpt from this work was the only relevant passage he had found from a pre modern Arab on the subject of natural selection. He quoted from a Spanish translation of *the Book of Animals* as follows:

"The rat goes out for its food, and is clever in getting it, for it eats all animals inferior to it in strength", and in turn, it "has to avoid snakes and birds and serpents of prey, who look for it in order to devour it" and are stronger than the rat. Mosquitos "know instinctively that blood is the thing which makes them live" and when they see an animal, "they know that the skin has been fashioned to serve them as food". In turn, flies hunt the mosquito "which is the food that they like best", and predators eat the flies. "All animals, in short, cannot exist without food, neither can the hunting animal escape being hunted in his turn. Every weak animal devours those weaker than itself. Strong animals cannot escape being devoured by other animals stronger than they. And in this respect, men do not differ from animals, some with respect to others, although they do not arrive at the same extremes. In short, God has disposed some human beings as a cause of life for others, and likewise, he has disposed the latter as a cause of the death of the former." 14

In another translation, al Jahiz wrote:

"Animals engage in a struggle for existence; for resources, to avoid being eaten and to breed. Environmental factors influence organisms to develop new characteristics to ensure survival, thus transforming into new species. Animals that survive to breed can pass on their successful characteristics to offspring" 15

He would describe food chains ... the first such scholarly writings now documented:

"The mosquitoes go out to look for their food as they know instinctively that blood is the thing which makes them live. As soon as they see the elephant, hippopotamus or any other animal, they know that the skin has been fashioned to serve them as food; and falling on it, they pierce it with their proboscises, certain that their thrusts are piercing deep enough and are capable of reaching down to draw the blood. Flies in their turn, although they feed on many and various things, principally hunt the mosquito ... All animals, in short, cannot exist without food, neither can the hunting animal escape being hunted in his turn"

Although this self-taught scholar and sometime royally-funded polemicist was obviously not without blemish and imperfection, intellectually he was about 1,000 years ahead of his time in thinking about how life evolved on earth.

His ideas would not resurface for a millennium until Darwin, after years of work and a five-year voyage on HMS Beagle, would finally articulate his theory of the natural selection of species. As Darwin wrote,

"In October 1838, that is, fifteen months after I had begun my systematic enquiry, I happened to read for amusement Malthus on Population, and being well prepared to appreciate the struggle for existence which everywhere goes on from long-continued observation of the habits of animals and plants, it at once struck me that under these circumstances favourable variations would tend to be preserved, and unfavourable ones to be destroyed. The result of this would be the formation of new species. Here, then, I had at last got a theory by which to work.

As many more individuals of each species are born than can possibly

to Copernicus in his *De revolutionibusorbiumcoelestium (On the Revolutions of the Celestial Spheres)* published just before his death in 1543.Galileo's advocacy of heliocentrism decades later caused him to be convicted of heresy by the Catholic Church in 1633. His judgementstood for 350 years -- until 1992 when he was officially pardoned by the Church.

Natural selection of species and evolution: intuited by al Jahiz, proven by Darwin

One of the key scientific concepts of the modern world is the theory of evolution and natural selection of species. It underpins the modern understanding of the growing evolutionary complexity of life from the firstbiological organisms 3.5 billion years ago, to marine creatures, insects, amphibians, reptilians, mammals, primates and finally the human race itself. Modern recognition for this theory is generallygiventoCharles Darwin in the UK, although another British scientist, Alfred Russell Wallace, coincidentally came up with the same theory at the same time as Darwin and they co-published their first paper in 1858 CE.

Ancient Arab manuscripts show that the two Englishmen were not the first to articulate this concept. In the hot and swampy Tigris delta port city of Basra, Iraq 1,200 years ago, there was a conspicuous man named Abu Uthman Amr ibn Bahr al-Kinani al-Fuqaimi al-Basri, who voiced a similar theory.

He was known to his friends as al Jahiz – "the boggle eyed"-- and he was quite extraordinary.

He was the grandson of slaves from East Africa, with roots in Ethiopia, Zanzibar, Tanzania and the Sudan.11

He grew up on the fetid canals of working-class Basra, helping support his family by working as a child fishmonger. For that starting point,al Jahiz became the first scholar of sub Saharan African descent to achieve eminence within the frame of the young culture of Islam. This fishmonger taught himself to read and write, and he did so with such eloquence that he rose to the attention of the mighty caliph al Mamun in Baghdad, and so was invited to work in the Bayt al Hikmat.

He was the first black man to achieve this kind of scholarly recognition in Islamic Iraq, and he did it entirely on his own.He wrote at least 200 scholarly papers, about 30 of which survive in the 21st century, held in a library in Milan, Italy.

He did all this entirely by his raw ambition, intelligence and eloquence, because for all his brilliance and energy, he was not an attractive man. He was abrupt, wide-faced and squat, and he spoke in intense bursts and did not suffer fools. He was not deferent to those in power or with higher social standing, but rather spoke his mind no matter the consequence.

This man was a force of nature. And whereas most men, certainly those born into poverty and facing barriers than would deter even the strongest and most talented, this thinker easily surmounted them. It was as if those barriers did not apply to him, and so he ignored them.

In fact, he laughed his way through them. Together with his brilliance, it was his humor that saved the day. Whereas lesser men would stammer and flail at the many obstacles they faced, al Jahiz always knew how to tell a good story or joke, and how to get everybody from caliphs to religious inquisitors to laugh along with him.

Even when his jokes weren't that funny, his guttural laughter at his own jokes was so infectious that no one knew the difference, and they laughed with him.It was a good thing that he could tell a joke and get people to laugh, because this very special man spouted the most provocative theories.12

He began to articulate the geographic and climatological impact on African human evolution:

They are the sons and daughters of the sun which has made them so black. One of them will lift huge blocks and carry heavy loads that would be beyond the strength of most Bedouins or members of other races. They are courageous, energetic, and generous, which are the virtues of nobility, and also good-tempered and with little propensity to evil. They are always cheerful, smiling, and devoid of malice, which is a sign of noble character.

The Zanj say that God did not make them black in order to disfigure them; rather it is their environment that made them so. The best evidence of this is that there are black tribes among the Arabs, such

which he made hundreds, would gradually begin to impact human history and development, but often notuntil his inventions were rediscovered or unknowingly replicated later in Europe.

Another untested hypothesis of Ptolemy, equally disproved by Ibn al Haytham, was Ptolemy's equant, a mathematical formula which was used to work around an even greater underlying error in understanding the relationship and movement of the solar system.

The misunderstanding at the root of Ptolemy's error was his geocentric view of the universe, in which he argued that the earth sat at the center and everything else including the sun orbited around it.

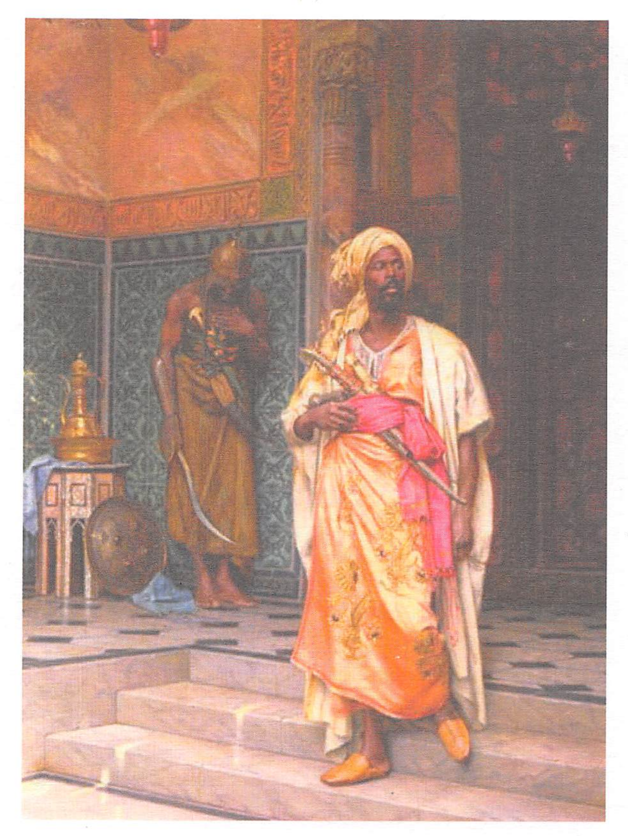
Because civilizations from the beginning of time had been fascinated by the heavens and the movements of the heavenly bodies, various theories had arisen to explain why the bodies moved as they appeared to do. Unfortunately none of the theories discovered or intuited that the earth was orbiting the sun; if they had, celestial movements would have made more sense.

Ptolemy did not discover the truth. Instead, he developed a very complicated mathematical model to explain his error in understanding the position and movement of the planets in the solar system.

Ibn al Haytham was very puzzled by the equant, and eventually disproved it mathematically, just as he had the first mathematical explanation of twilight and other phenomena. As Ibn al Haytham wrote in his Doubts about Ptolemy,

"Ptolemy assumed an arrangement (hay'a) that cannot exist, and the fact that this arrangement produces in his imagination the motions that belong to the planets does not free him from the error he committed in his assumed arrangement, for the existing motions of the planets cannot be the result of an arrangement that is impossible to exist... [F]or a man to imagine a circle in the heavens, and to imagine the planet moving in it does not bring about the planet's motion." 10

Had Ibn al Haythamlived longer, perhaps he might have figured out that the solar system was sun-centered. Other Arab Muslim thinkers might also have made the same discovery, but if they did, there is no definitive evidence that they did. Credit goes



The Answer - Ludwig Deutsch (1855-1935).

of modern alchemy. In Western translation, the word "alchemy" is associated with magical or spiritual science ... the search for the elixir or philosopher's stone that could transform lead into gold, a magical quest which so captivated medieval Europeans.

But this exclusive association of Jabir's alchemy with magic is at best incomplete. The English word alchemy is a distortion of its original meaning in Arabic, *al kemie*, or "the chemistry."

In fact, it could be argued that Jabir is also one of the early fathers of modern chemistry, and of the modern scientific method.

Thatis not to say that Jabir and many other Arab Muslim thinkers were not toying with the idea of magical or spiritual chemistry, in parallel to theirwork with evidence-based chemistry. But it is unfair to devalue the scientific work of Jabir for this reason, since even the great English empiricist Sir Isaac Newton, father of the modern understanding of gravity nearly 800 years after Jabir, was also a dabbler in alchemy.

In fact, Jabir, who lived so long ago, a generation older than alKwharizmi but also working for the Abbasids in Baghdad and the *Bayt al Hikmat*, was the first Arab Muslim to voice something akin to the scientific method. As he is believed to have written,

*"The first essential in chemistry is that you should perform practical work and conduct experiments, for he who performs not practical work nor makes experiments will never attain the least degree of mastery. But you, O my son, do experiment(s) so that you may acquire knowledge. Scientists delight not in an abundance of material: they rejoice only in the excellence of their experimental methods."*6

Historian Paul Kraus goes further in recognizing the empirical nature of Jabir's method:

"The study of the Greek alchemists is not very encouraging.An even surface examination of the Greek texts shows that a very small part only was organized according to true experiments of laboratory; even the supposedly technical writings, in the state where we find them today, are unintelligible nonsense which refuses any interpretation.

It is different with Jabir's alchemy. The relatively clear description of the processes and the alchemical apparatuses, the methodical classification of the substances, mark an experimental spirit which is extremely far away from the weird and odd esotericism of the Greek texts.The theory on which Jabir supports hisoperations is one of clearness and of an impressive unity. More than with the other Arab authors, one notes with him a balance between theoretical teaching and practical teaching, beween the 'ilm and the 'amal. In vain one would seek in the Greek texts a work as systematic as that which is presented for example in the Book of Seventy." 7

Esteemed Greek thinkers, while certainly aheadof their times, very often violated therules of measuring a hypothesis against the observed reality of testing, measurement and experimentation. A perfect example is the Greek astronomical and optical thinker Ptolemy (100-170 CE). Ptolemy was so revered by the early Arabs that it is said that when Caliph al Mamun defeated the Byzantines in battle and signed a treaty of peace, part of the tribute he received from the Byzantine emperor was acopy of Ptolemy's Almagest.8 Ironically, a number of Ptolemy's untested hypotheses survived as Arab scientific doctrine -- until they were disproved centuries later by Arab thinkers.

Themost glaring examplewas Ptolemy's theory of light, which Ptolemy said was a ray emanating from the human eye and illuminating the object observed. How that theory could withstand the actualities of such visual phenomena as sunrise and starlight is hard to imagine. But it did survive until the time of Ibn al Haytham(965– c. 1040 CE).

As Ibnal Haytham wrote,

*"The duty of the man who investigates the writings of scientists, if learning the truth is his goal, is to make himself an enemy of all that he reads, and ... attack it from every side. He should also suspect himself as he performs his critical examination of it, so that he may avoid falling into either prejudice or leniency."*9

True to his own statement of the role and duty of a scientist, in his seven volume *Book of Optics* (Arabic: Kitāb al-Manāẓir (كتاب المناظر) and other works,Ibn al Haytham painstakingly demonstrated and recorded that light was a ray emanating from a light source, striking the object, and being perceived by the eye. This conclusion required him to also understand the structure and function of the human eye. That kind of incremental discovery, of



Jabir from a medieval European manuscript



Ibn al Haytham

became "algorithm" in English, a memorial to the brilliant Baghdadinventor even after the worldforgot his name.

Al Khwarizmi's discoveries and rediscoveries underpin nearly every part of the modern world ... from basic arithmetic and symbols, to every bit of information technology computation, astronomy, financial transactions, space traveland exploration. If intellectual property protection had existed in his day, his discoveries would now be worth many trillions of dollars.

Birth of the modern scientific method: Europe or Arabia?

The modern scientific method – the process of developing a hypothesis and then testing it against measured and recorded reality – is an underpinning of the digital world. It enables research, discovery and invention in every academic field,from chemistry to physics to medicine. It is the highest expression of rationalism, and has allowed the technological and medical breakthroughs of the last 500 years, from the discovery of the characteristics of the earth's orbit to clinical trials of pharmaceuticals to silicon-based information processing.

While mainstream Western history of science does sometimes mention certain early methods of modern scientific experimentation, such as in the works of Aristotle,Ibn alHaytham in 11th century Fatimid Cairo and others, mainstream Western history of science still attributes the rise of the modern scientific method to certain intellectual discoveries and innovations in Europe in the 17th century CE. According to the Oxford English Dictionary, the scientific method is *"a method or procedure that has characterized natural science since the 17th century, consisting in systematic observation, measurement, and experiment, and the formulation, testing, and modification of hypotheses."* 5

But is that correct?

Statements of the modern scientific method can be found in the very earliest writings of the first Muslim-sponsored scientific thinkers, 1200 years ago.

Abu MūsāJābir ibn Hayyān, orJabir (721-815 CE), believed to have been a Persian of Arab origin, is often depicted as thefather

First, al Khwarizmi began his work for Mamun by digging into the scholarly archives assembled by Mamun's father Harun alRashid. There hefound papers brought from India to Baghdad by the Indian thinkerKanka (Ganga) about 30 years earlier. In the papers were the much older discoveries of the Hindu mathematican Brahmagupta.

In the writings of Brahmagupta, first al Khwarizmi found a concise and efficient new method of representing mathematical equations using numerical symbols. At that time, Arab mathematicians expressed equations using written words,which was hugely cumbersome and slow. Khwarizmi liked the Indian method,which he adopted, and which is still usedtoday. The Indian symbols 0-9 that he found and adopted are now called the "Arabic numerals" in the West.

He also noticed that Brahmagupta used a very clean method of organizing values, based on multiples of 10, a system now known as the decimal system. Until that time, assorted platforms had been used to organize values. One still in limited use today, developed by the Sumerians and Babylonians, was the sexagesimal system, based on multiples of 60, which is used today in measuring time (60 minutes to the hour) and geography (360 degrees to thecompass).

Al Khwarizmi realized how much more efficient the decimal system was. Thanks to him, theworld is now based on decimal computations.

Among those Indian symbols now usedgloballyhe saw a symbol that initially he did not understand. It was the symbol representing the number zero, which did not exist in any of the mathematic systems then being used in the Arab caliphate. In the Indian manuscripts it was represented with a dot (.)

It took him some time to figure out the meaning of zero. And then he realized it was a symbolfor nothingness. And such an abstract concept now opened up the wholeworldof higher mathematical abstraction, taking mathematical thought far beyond the confines of Greek geometry,whichwas about measuring space, not abstraction.

Following alKhwarizmi'srediscovery of the zero came his "rediscovery" of the negative numbers. This was another form of pure abstraction, since no negative number can be seen or measured, except by abstract methods.

But the genius of al Khwarizmi is that hedid not stop at using the methods that Brahmagupta had found centuries before in India. He took these rediscoveries and began to apply them to various mathematical problems.

His first mathematical invention he calledal jabr, or "restoring" in Arabic. It was used for problems like calculating inheritances. according to emerging Islamic law. Today the world knows this as algebra. The word comes from his book The Compendious Book on Calculation by Completion and Balancing (Arabic: الكتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة al-Kitāb al-mukhtaşarfīḥisāb al-jabrwal-muqābala), written approximately 830 CE.

More than 300, years later, according to L.C. Karpinski, the book was translated into Latin as *Liber algebrae et almucabala* by Robert of Chester (Segovia, 1145) and also by Gerard of Cremona. An Arabic copy remains at Oxford, whilea Latin translation is kept in Cambridge.4

But al Khwarizmi went much farther than algebra. He began developing algebraic tools for managing very complex sets of data. These were used in calculating things like lunar and planetary tables, which were important for navigation and religious calendars.

Al Khwarizmi did his work in the early part of the 800s CE. His writings gradually spread through the Muslim world and beyond.

They began to move into Europe via Italy and Spain beginning in about 1150 CE, 300years after al Khwarizmi's death. The European mathematicians, just awakening from the centuries-long silence after thefall of Western Rome in 467, were immediately dumbstruck by the discoveries and rediscoveries that al Khwarizmi had made.

His higher algebraic tool for handling complex data was named after him. In Latin, it was called *algoritmi*, sometime after the year 1100. As Europe grew and evolved, algoritmi in Latin



al Khwarizmi from a Soviet postage stamp 1983



a page from Al Khwarizmi's "Compendious ..."

Arab mathematical foundation of the modern digital world

While there are many Arab Muslim discoveries that underpin the modern world, perhaps the most important one is higher mathematics. Higher mathematics, and in particular one algebraic mathematical tool known as the algorithm,enable21st century innovations like the writing of software and applications, financial market modeling, data mining, Google searches, space travel and nuclear physics.

The average Western high school student probably believes that modern higher mathematics, as in the case of geometry, comes from the Greeks and Romans. But that view is seriouslymistaken, and a disservice to the great mathematical thinkers of the Arab Muslim world, in particular Mohammed al Kwharizmi, who did his most important work at the *Bayt al Hikmat* in Baghdad under the patronage of the Abbasid caliph al Mamunibn Harun.

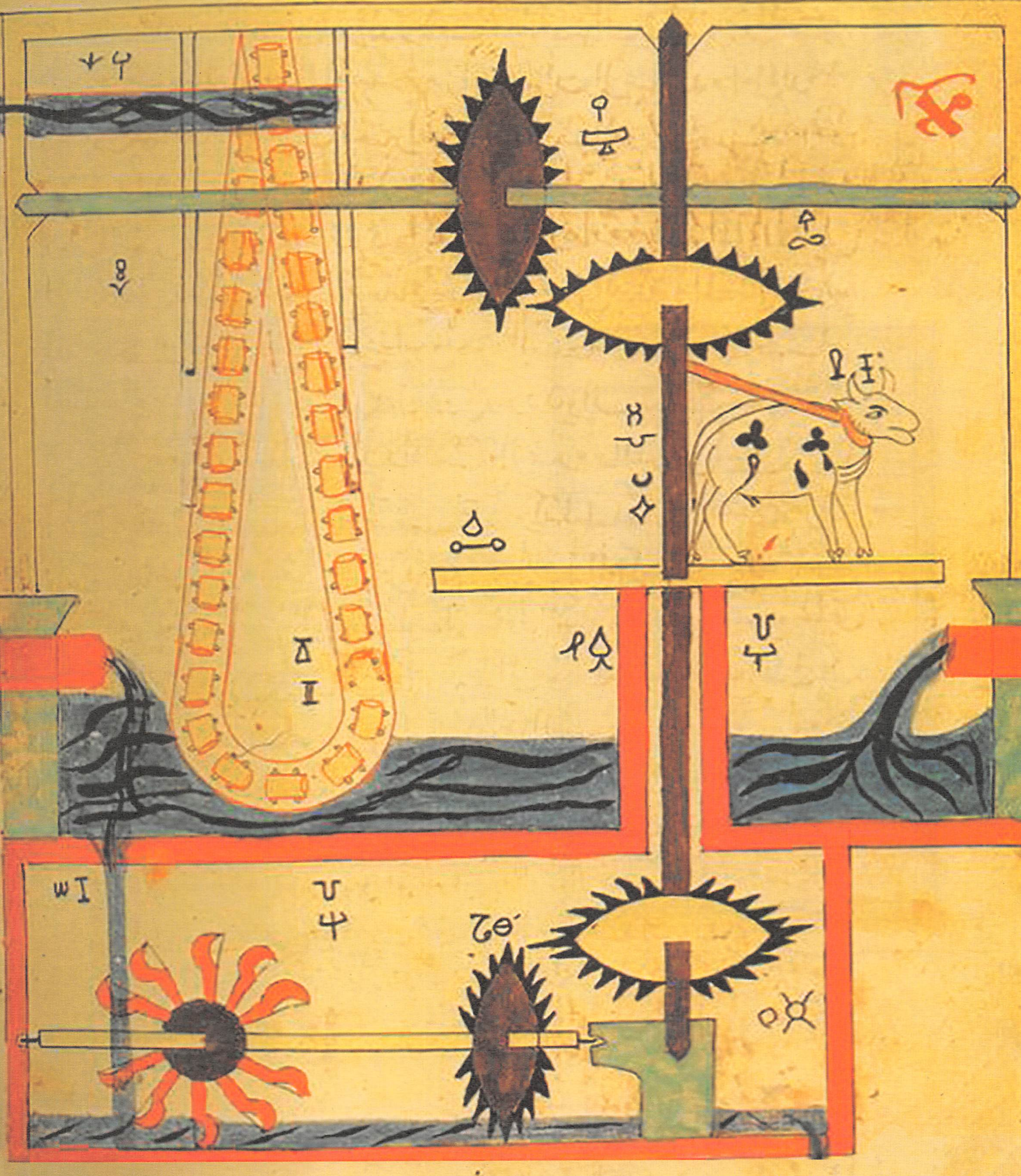
Mamun was a fierce intellect in his own right, allied with the Mutazilischool of Islamic thought. The Mutazilites argued that God's truth could be best determined through the use of reason. They were known as Islamic rationalists. They found themselves locked in angry debate with their opponents, the Hanbalischool of traditionist thinkers, who argued that God's truth came through revelation alone.

This religious debate turned very political, and shaped the future of Sunni Islam. In support of his cause, Mamun soughtto gather the greatest thinkers to find God's truth via mathematics, astronomy, science and medicine in what may have been the world's first "think tank", the *Bayt alHikmat* or House of Wisdom in imperial Baghdad.

One of the thinkers recruited by Mamun was the Persian mathematician, astronomer and geographer Muḥammad ibn Mūsā al-Khwārizm, known today as al Khwarizmi. The impact of al Khwarizmi's discoveries in modern lives are probably greater than those of Albert Einstein. This is not to diminish Einstein, whose theories of relativity and space-time are still changing our views of the universe almost 100 year after hewrotethem.

But alKhwarizmi's discoveries are ones that the world usesor benefits from every day.

نحو من سبعة اشبار وامثل لما وصفته صوره وهذه صورتها



Al Jazari'shydropowered chain pump.

stretching from Spain and Morocco to NorthIndia and Western China. This period of expansion and conquest generated new trade routes, industries and theflow of taxes and war booty back to the Muslim imperial capitals. By the year 1000 CE, modern historians believe that Baghdad may have had 2 million inhabitants, with asphalt paved streets, streetlights, libraries and hospitals, when London and Paris struggled to support only 10,000 inhabitants each.2

These surges of wealth and urbanization led to the rise of other cultural values that were common to the early Arab Muslim world, and then to the later rise of Europe; **in particular, a similar climate of intellectual and cultural openness in both cultures.** Just as the rising late medieval universities in Italy, England, France and Germany – often inspired by older universities in the Arab world -- were dedicated to understanding the world, so were the olderuniversities in Iraq, Cairo, Persia, North Africa and Spain. As Arab thinker al Kindi wrote: *"We ought not to be embarrassed of appreciating the truth and of obtaining it wherever it comes from, even if it comes from races distant and nations different from us. Nothing should be dearer to the seeker of truth than the truth itself, and there is no deterioration of the truth, nor belittling either of one who speaks it or conveys it."*

There was also a parallel culture of invention.Just as Leuwenhook invented the first recorded microscope and could finally see bacteria and cells, Ibn al Haytham of Cairo rediscovered and improved the Chinese camera obscura 600 years before Leonardo da Vinci, alZahrawi ofCordoba invented 200 medical instruments 1,000 years ago like the obstetrical forceps, many of which are still in use today, al Jazari wrote his *The Book of Knowledge of Ingenious Mechanical Devices: Kitábfíma'rifat al-hiyal al-handasiyya*, a treatise on mechanical intelligence and robotics in Kurdish Turkey in the early 1200slaying the foundation for the Industrial Revolution that would come nearly 500 years later in Europe.

There was also a common culture of intellect,using one's brain to unlock the secrets of God's universe,and of what it means to be human.

There was a similar culture ofasking hard questions, and of questioning assumptions.As Ibn al Haytham said,*"From the statements made by the noble Shaykh, it is clear that he believes in Ptolemy's words in everything he says, without relying on a demonstration or calling on a proof, but by pure imitation (taqlid); that is how experts in the prophetic tradition have faith in Prophets, may the blessing of God be upon them. But it is not the way that mathematicians have faith in specialists in the demonstrative sciences."*3

In the Arab Muslim golden age and Renaissance Europe, there was a common practiceof improvisation and assimilation. The Arabswho conquered half theworld in 100 years, previously a non-urban and often nomadic people, found themselves administering hugecities and civilizations like Persia, Byzantium and India. The victorious Arabs could have tried to force their desert ways ontothese other cultures, which would have been a tragedy and probably a failure.But instead, they assimilated the best of allthese oldercultures, and created something new.

Andthere wasa parallel culture ofleadership and philanthropy. Just as Lorenzo de Medici and many other wealthy Europeans personally funded inventionand discovery during the Renaissance and Enlightenment, so did Arab-Muslim patrons like the Umayyad andAbbasid dynasties in Spain and Iraq, the Fatimids in Cairo, the Ottomans in Istanbul and many others, fund the discoveries of thinkers like Ibn Sina, alZahrawi, al Khwarizmi and hundreds of others.

Where did these common European-Arab practices come from, in the Arab Muslim context? As said above, someof themarose as the result of economic and population growth and conquest. But some of them foundsources in the newreligion ofIslam. Drawing partly on certain statements attributed to the Prophet about the importance of knowledge, Islam became profoundly intellectual and global. It was universal and inclusive, welcoming all colors and nationalities. Like European colonial culture centuries later and the digital world today,the culture ofIslam eventually stretched from Spain to the Philippines... the entire width of Eurasia. Its beliefs required thefaithfultofind the direction of Mecca,to formalize the calendar, to navigate the seas and deserts for trade andfor the hajj, meaning astronomers and mathematicians had to figure out how the sun, moon and stars could mark the seasons and show the way to the intended destination.

Caliph Harun al Rashid receiving the delegation of Charlemagne 802, byKockert

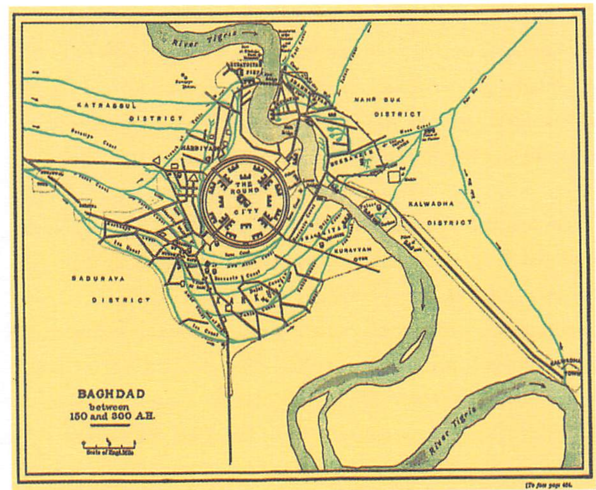
Understanding the historical Arab Muslim intellectual and cultural framework.

Few people today appreciate the similarity in intellectual and cultural frameworks that led to the discoveries of the European Renaissance/Enlightenment, as well as to the breakthroughs of the earlier Arab Muslim golden ages in Baghdad, Cairo, Cordoba, Damascus, Sicily and North Africa and later Muslim advances in Istanbul, Isfahan, Delhi, Bukhara and many others.

But in fact, these European and Easterncultural periods, separated by centuries in time and thousands of miles, were marked by similar characteristics.

First, in both cultures there was asustained period of economic growth that created wealth and the rise of cities. For Europe, that growth resulted from technological innovations like the trade guilds, printing press, the Industrial Revolution and then the age of colonial conquest, which sent the riches of older civilizations like Egypt, India, China and Africa flowing back to the European cities of Venice, London, Paris, Madrid and others.

For the Arab Muslim world, that growth and wealth came from the spectacular expansion of Arab Muslim culture in 632 CE from an area fairly confined to the Hijaz – Mecca and Medina in Arabia – to 732 CE,when it encompassed a vast region



William Muir

The article focuses on certain unrecognized intellectual processes of early Islamic societies that were the precursors of many modern scientific and intellectual developments in Europe, the West, and the modern digital world.

It is one of the tragic ironies of current historiography that ArabMuslim culture, which helped lay many of the foundations of the modern world, is today stereotyped as intellectuallybackward, both historically and in the present. Even many contemporary Arabs have come to accept that as truth.

Western thinkers generally agree that the key advances that define modernity -- including the empirical scientific method, higher mathematics, evidence-based medicine, physics, astronomy,chemistry, biology, Darwin's theoryof natural selection of species and many more – are traced to discoveries made in Renaissance and Enlightenment Europe starting in the year 1500 CE. Arab and Muslim names have no part in that story.

But a more inclusive reading of history shows this perspective is a seriousomission of fact. It leads to a false historical narrative of intellectual and cultural superiority, when in reality, thepathof human discovery transcends artificial time frames, borders, races, cultures and religions. Moreover, the omission of Arab Muslim contributions to modernity-- contributions which often happened 500 to 800 years before the era of European discovery -- contributes to the negative stereotyping of today's Arab Muslim culture as intellectually closed andsomehow separate from the flow of human discovery.

Compounding this error is the rise of Eurocentric intellectual superiority and exclusionary thinking that traces back about 200 years, to the high period of European colonialism. As Johann Heinrich Zedler in 1741 wrote,"even though Europe is the smallest of the world's four continents, it has for various reasons a position that places it before all others ... its inhabitants have excellent customs, they are courteous and erudite in both sciences and crafts."1

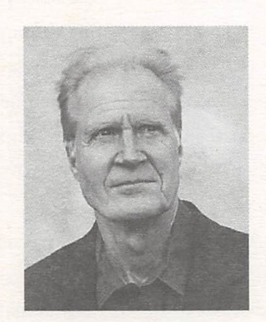
That sense of superiority is especially ironic, considering that during the period 800-1500 CE, educated Europeans stood in awe of ArabMuslim discoveries and inventions, often using centuries-oldtexts from the Middle East and Persia as the most advanced sources for multiplefields, like mathematics, medicine and astronomy.

Even the most charitable of mainstream Western historians will often only concede that the main value of the golden age of Arab Muslim culture was that it"preserved" the earlier discoveries and ideas of the Greeks and Romans by translating their original manuscriptsfrom Greek andLatin into Arabic, holding those manuscripts until Europe was ready to re-absorb them centuries later. Historian George Saliba of Columbia University calls this the"refrigerator theory" of Arab Muslim history. In other words, Arab culture had no original inventions or ideas of its own, but merely stored older Greco-Roman discoveries.

There is not enough space in the article to understand why this distortion of the historical record has happened. It results from a combination of ethnocentrism, the passage of more than 1000 years, short historical memories, the loss and destruction of ancient manuscripts and libraries, and the sad reality that"history is written by the victors."

But if one wishes to fully understand our modern world, one must understand where civilization comes from. Credit and recognition must be given not only those who speak familiar languages and are closer in culture and time; acknowledgement must also be given to those who are dead andgone, who did not benefit from intellectual property protection, who had names and who wrote in tongues that are hardfor Westerners to understand and who were sometimes inspired to make their discoveriesby the faith of Islam.

From Arabia to Silicon Valley: how early thinkers intuited the modern world



Michael Hamilton Morgan

Michael Hamilton Morgan is a former US diplomat and a researcher of Arab and Islamic heritage. He graduated from the University of Virginia. He has been a keynote speaker at the US National Archives and the British Parliament. From 87-1980 he was the Deputy Staff Director of the U.S. Advisory Commission on Public Diplomacy. His book Arabia: In Search of the Golden Ages won the Silver Nautilus Award. Among his other books about the golden age of Arabia, the legacy of Arab and Muslim scientists and popular history, the best known include Lost History and Arab Science: Journey of Innovation.

All images in this article were chosen by the writer

ترجمة هذا البحث إلى العربية على الموقع:

www.hbmhc.com

فلا تحسبانك مشتقا أوسا أويس من الهباله

الأوس الاعطاء وأويس هو الذئب وقال الهذلي

ما فعل اليوم أويس في الغنم

وقال أمية بن أبي الصلت

وأبو اليتامى كان يحسن أوسهم ويحوطهم في كل عام جاحد

ويقولون أحمق من نعامة قالوا ذلك لأنها تدع الحضن على بيضها ساعة الحاجة إلى الطعم



فإن هي في خروجها ذلك رأت بيض نعامة قد خرجت للطعم حضنت بيضها ونسيت بيض

نفسها ولعل تلك أن تصاد فلا ترجع إلى بيضها حتى تهلك قالوا ولذلك قال ابن

هرمة

Cover of Book of Animals

CONTENTS

ARABIC ARTICLES

INTRODUCTION

In the time of information flow and its spread through various source of knowledge, the need for the quality and originality of the source becomes an aim sought by seekers of facts; that is the role played by refereed scientific journals and sought by some academic centers that adhere to authentic values, which control and regulate the scientific research.

In its second issue, and after receiving many academic researches and adopting the method of objective refereeing, Rewaq is proud that its first and foremost subject, the received researches adhere to the standards of scientific quality. And we consider this to be the purpose for which we issue it.

This issue of Rewaq journal contains scientific researches and articles that constitute new additions to the stock of knowledge. In the context of his scientific project that aims at showing the contributions of Arab and Islamic civilization to the human civilization, Michael Morgan reviews in his research entitled "From Arabia to Silicon Valley" aspects of these contributions, through which the first thinkers formed a real image of the modern world.

In another realm of civilizational dialogue realms, Prof. Jamal Hajar presents an image of the intellectual meeting between the politician and the philosopher; and how each of them perceives peace as a humane demand.

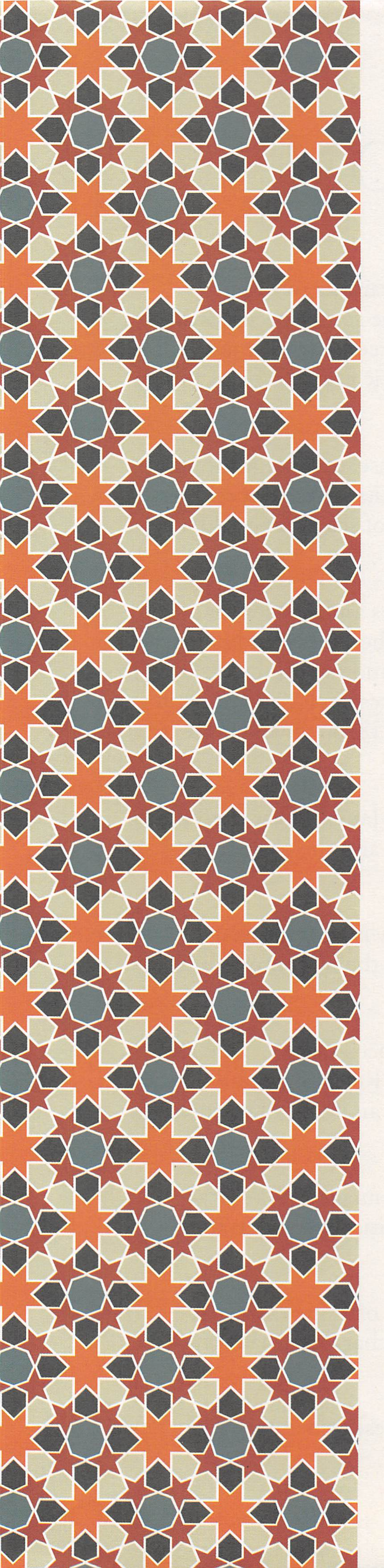
Professor Youssef Abdullah reviews a number of literary imagery, through pre-Islamic archeological examples in Arabia, exceeding the matter of doubt in pre-Islamic poetry.

And in his research entitled "Derkaouia School in Morocco from Criticizing and Opposing the Makhzen (Governing Institution) to Rejecting and Resisting the French Occupation" Prof. Qasim Al-Hadk presents an image of the modern political history of Morocco.

Professor Jalal Zine El Abidineadds in his research and image of "Political Violence in Morocco after Independence" handling a critical period in the contemporary history of Morocco.

Professor Ali al-Sayed takes an interest in the character of "Humphrey II: Constable of the Crusader Kingdom of Jerusalem"; the character that played a clear part in the Crusader history in the Levant.

Rewaq hopes that this issue, with its equable scientific researches, will add a new branch of authentic knowledge branches.



CONDITIONS FOR PUBLICATION

The Magazine welcomes publication of researches in Arabic and Foreign languages under the following conditions:

1- The material should not be previously published.

2- The material should meet the conditions of methodological scientific research.

3- References should be inserted automatically in sequential ordering.

4- Images and illustrations may be inserted provided that they are original, and the author shall obtain their publishing rights.

5- Terminologies of foreign languages should be written in their original language.

6- The material should be written on A4 word document using Arial font, and it shall not exceed thirty pages including images, illustrations and other attachments.

7- Contributions shall be subject to secret refereeing by specialists.

8- The journal shall not give reason why the material was not accepted for publication and is not required to return it.

9- The researcher shall review the material related to his research after preparing it for publication and before sending it to printing press.

10- The journal shall grant recognition award for the researches accepted for publication. The author shall not have the right to republish it in any way without prior consent of the journal.

11- The author shall provide a summary that does not exceed fifty words, and he shall also provide an abstract biography and 4x6 cm photo of the author.

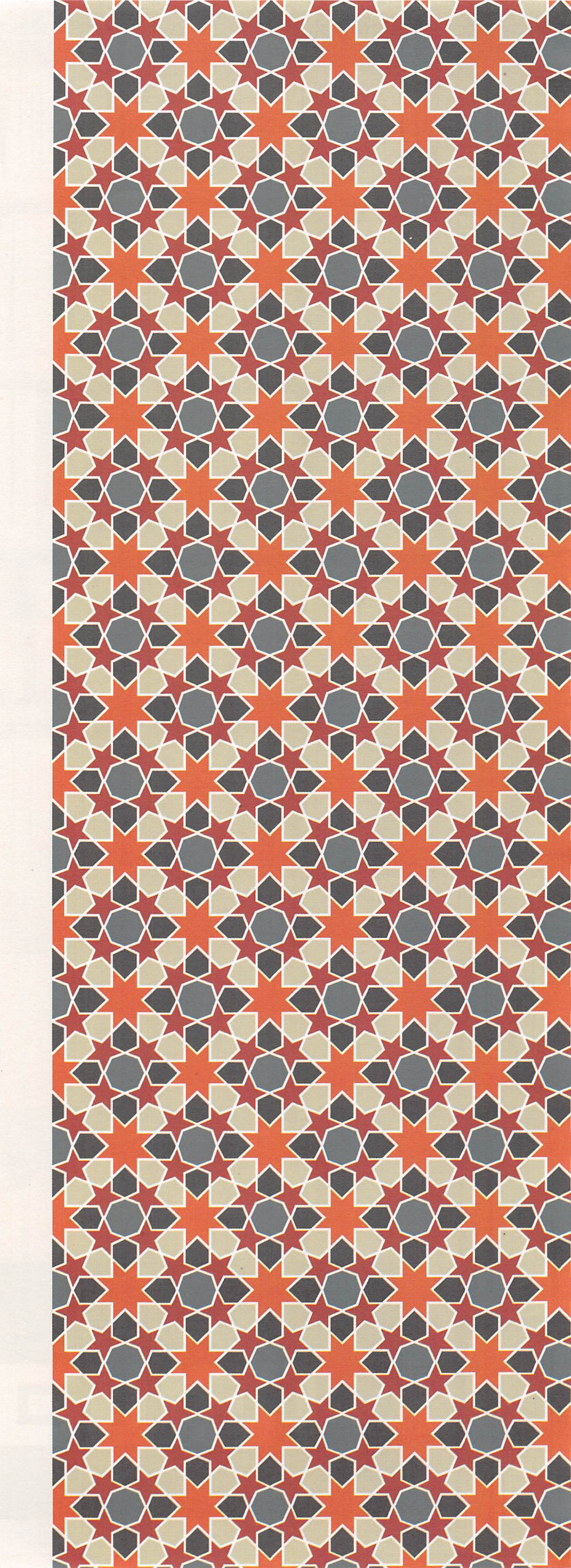
12- The author shall receive one free copy of the issue in which his article is published.

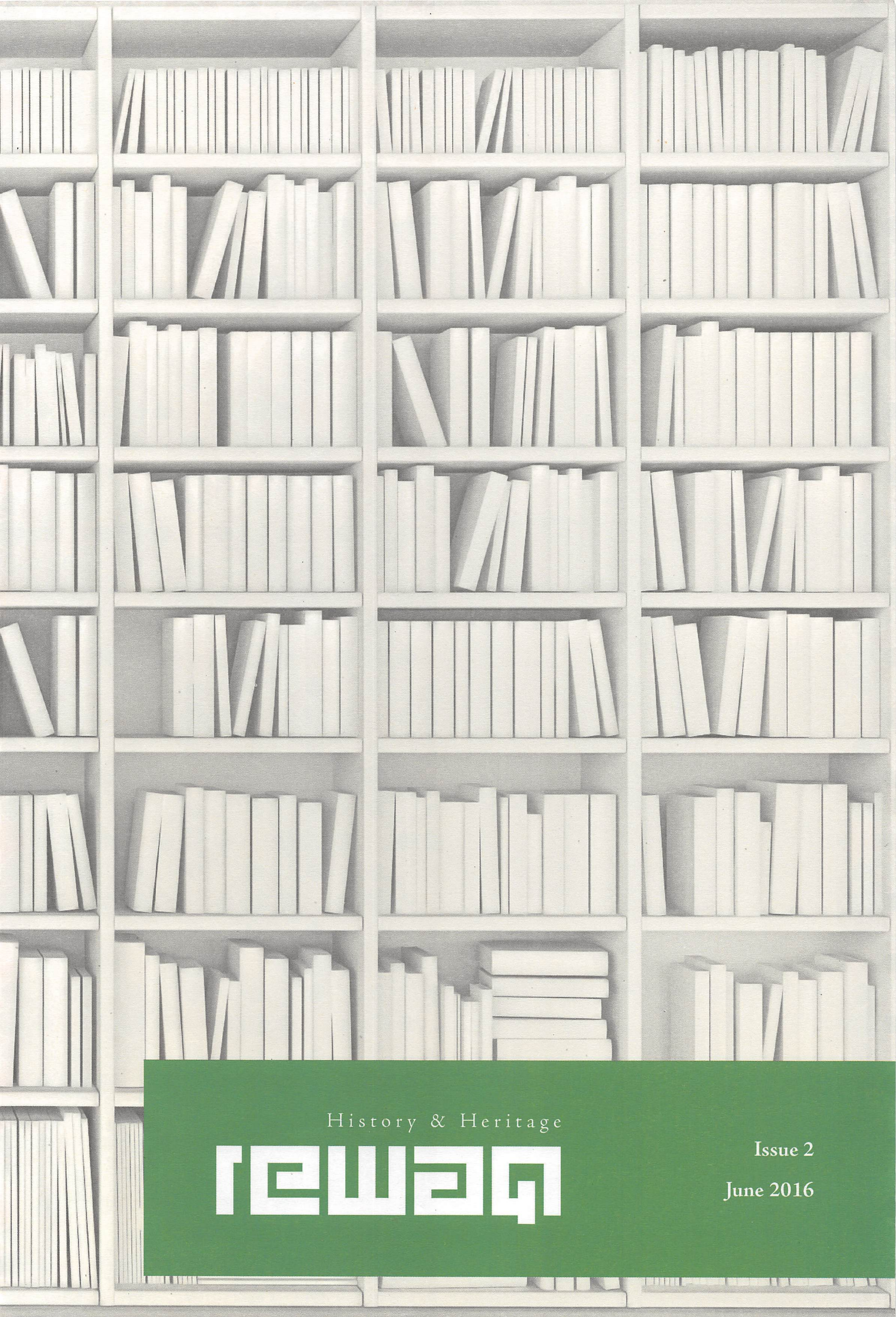
Legal Deposit No.: 19\2016
ISBN: 978\9927\00\333\2

All correspondence should be sent to
the Editing Manager on the following Address:
Hassan Bin Mohammed Center for Historical Studies
P. O. Box: 690 Doha - Qatar

E-mail : rtt@hbmhc.com

This publication is printed on FSC approved Arjowiggins Rives




History & Heritage
rewaq
Issue 2
June 2016